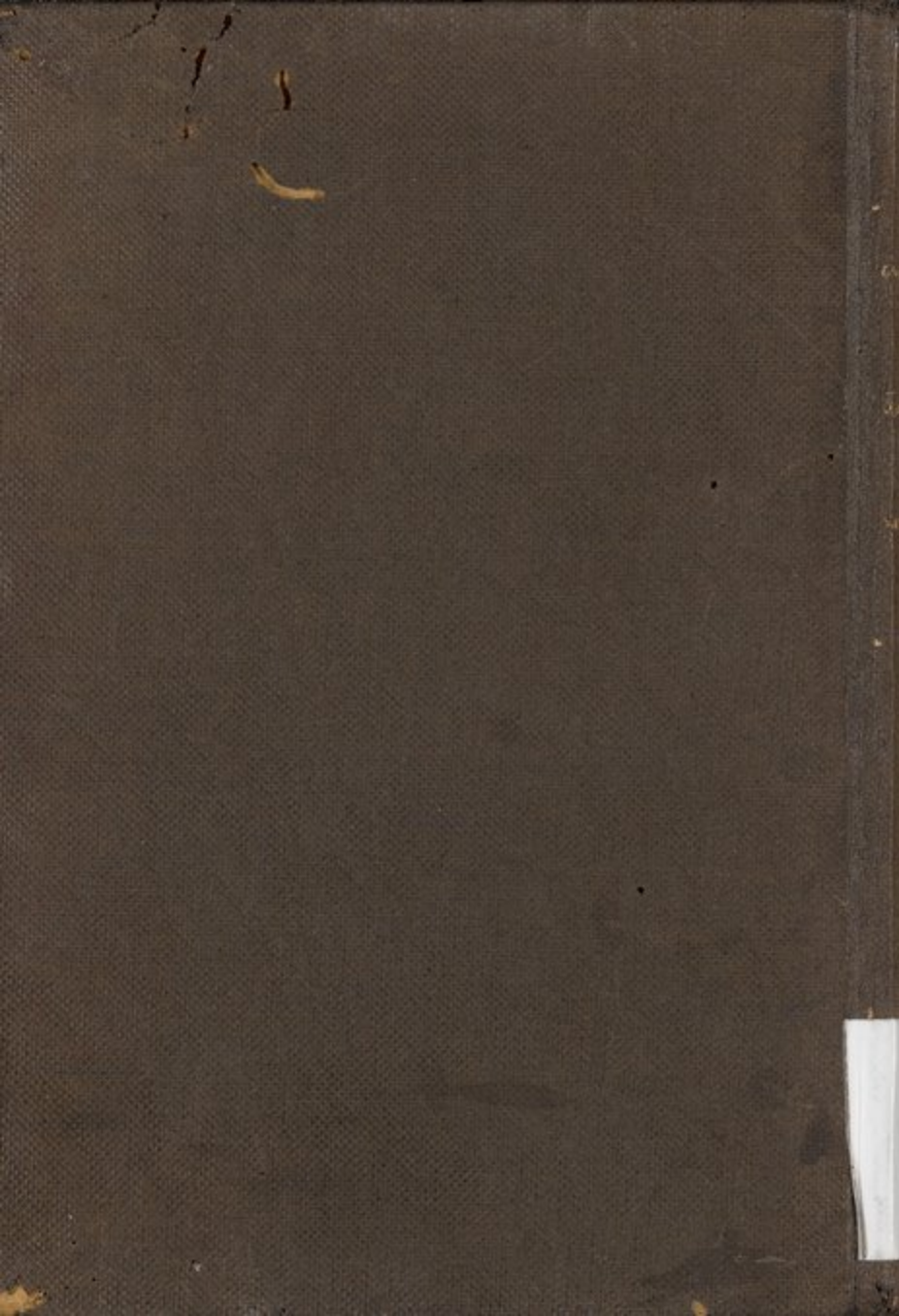
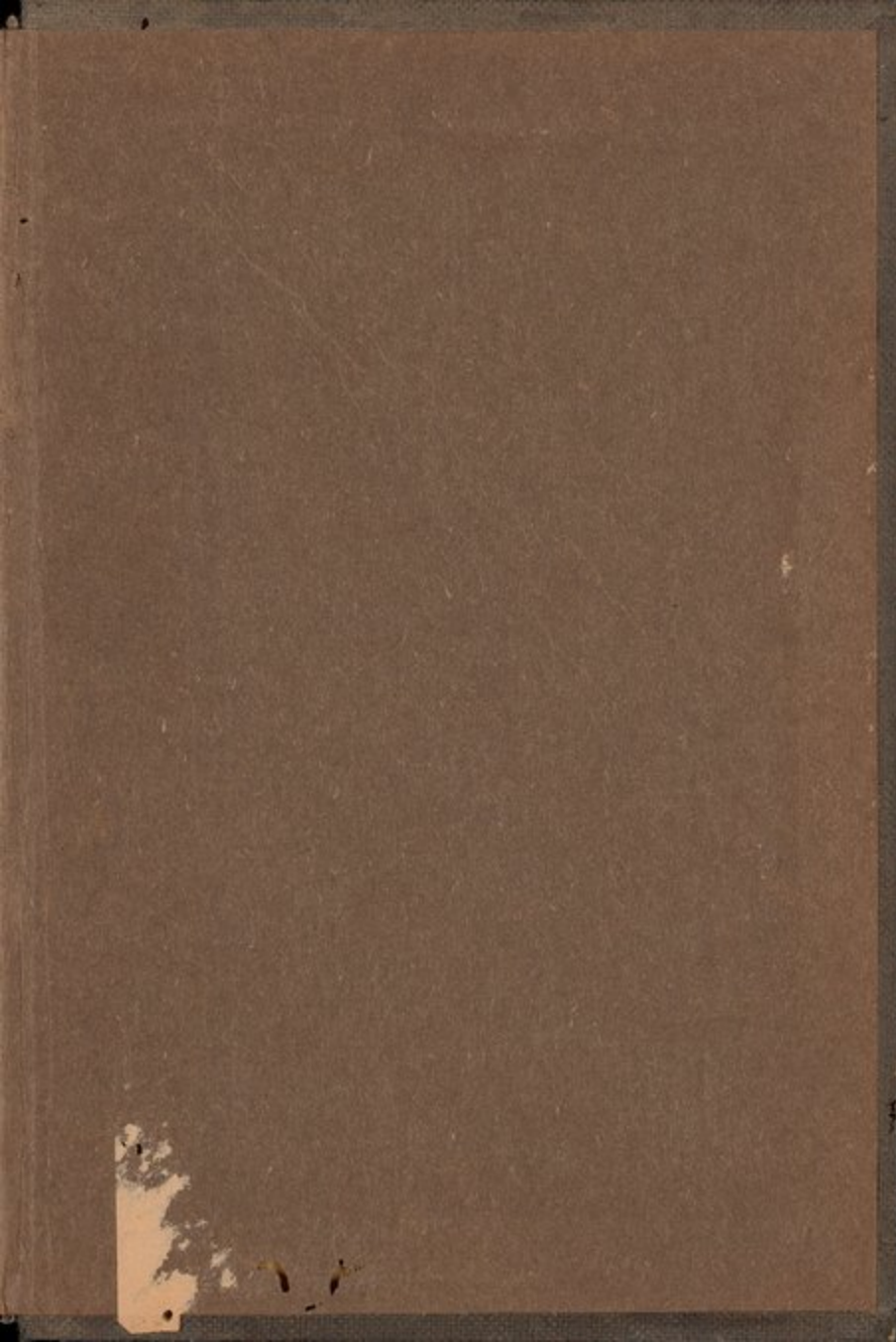






963

K45A

c.1

مَدَنِي المَدِينِ



963
K454A
C.1

سَلِيمٌ خِيَاظُهُ

الْحَبِيبَةُ الْمَظْلُومَةُ

او

فَاتِحَةُ آخِرِ نَزَاعٍ لِلْإِسْتِعْمَارِ فِي دَوْرَانِهِمَا

57166



57166
1937

1920

— الاخطاء —

سيلاحظ القاري في هذا الكتاب اخطاء مطبعية لا تحصى ، وعبارات وجعلا أصيبت بخلل أو تفكك أو اختلاط بعضها ببعض .

يرجع شيء من هذا النقص المعيب ، ولا شك ، الى تسرعى في التأليف ، لاني كنت مسوقاً برغبة اظهار الكتاب في اقرب وقت مناسب من جهة السياسة والحطة والحصول على التأثير المطلوب . لكن معظم النقص ليس نتيجة التسرع ، بل هو عبارة عن خلل طباعي يعود الى افضع ما خبرت من قلة الاعتناء بالطبع وتصحيح مسودات الصف (البروفات) .

هذا ، ومن طبيعة الاسلوب الذي اتبعه ان تترك الغلطة الصغيرة فيه على الجملة تأثيرا وتشويها غريبين ، حتى ولو كانت تلك الغلطة « فير كولا » زائدا او نقطة ناقصة ذلك ، لاني احاول ان اصوغ الجملة بشكل يتلاءم مع تفكير العصر وحدود حياته وصفاته ، وان اجسم عليها بان لا تخرج بشيء عن نفس المعنى الذي اقصده ودقائقه ، عن منظوياته واقسامه وفروعه وانعكاساته ومعارضاته .

كان علي . امام حالة كهذه ، ان اقف بنفسى على الطبع .

— ب —

لكن ذلك لم يكن باليد ، اذ كنت اكتب هذه الصفحات في فلسطين — حيث اتخذت لي اقامة فيها عقب ابعادي من بلدان الانتداب الفرنسي — وارسلها من هناك في البريد قسما بعد قسم الى سوريا — حيث يسر لي طبعها . اما الان ، وقد سبق السيف العزل ، فلم يعد لي سوى ابداء الاسف والالتجاء الى حلم القاريء الكريم ، مع رجائي اليه بان يهتم بالجواهر هذه المرة ويؤجل حسابه معي على الشكل .

— المؤلف —

الحقوق محفوظة للمؤلف

مقدمة والهداء

يا صديقي !

طلبت مني أن أسافر إلى بلاد الحبشة لأدرسها وأنور
شعبي العربي المظلوم عن قضية اخوان لهم . طلبت مني ذلك
يوم كانت الغزوة الفاشستية الاخيرة ضدها لاتزال في
مرحلتها الاولى ، يوم كانت تلك البلاد غارقة بعد في حلك عميم
من ظلام « القارة السوداء » الملفوفة بستور الفاتحين البيض ،
اولئك البيض ، النبلاء المتوحشين ، الذين يعيشون من
امتصاص الحياة في تلك القارة ، ومن نشر الجهالة فيها وحولها
لكي لا يخترق حدودهم مظلوم الى مظلوم ، او يلتقي انسان
جر باخ له يرسف في اغلاله .

واكنني ، يا صديقي ، اخبرتك مابي وما يعيقني عن
اشهى ما تشتهي النفس مما طلبت مني . قلت لك اني مرتبط

في هذه الساعة الى بلاد العرب ، و بان ذهابي قد ينتج
الضرر بدل الافادة ، التأخير بدل التقديم ، وعلى ذلك لا
أخرج من مكاني ، بل ابقى في نقطتي كما يبقى الجندي الاأمين ،
لا اترشح ولا اتحول حتى ازحزح مع كل جندي رفيق آخر
واحول من يستعبدون البشر وهم يطيبون ايديهم ، ويتغزلون
بأصنامهم وجرائمهم واوجاع عبيدهم بادمغة يملؤها دخان مئة
نوع ونوع من افيونهم .

ثم قلت لك باني ، وان لم يسعني الترحال الى بلاد
اخواننا ، استطع تبين شيء عنها وعنا وعن عروقنا الجهادية
الوثقى وأنا مكاني . وهكذا فعلت . وجئتك وجئت شعبي
بهذه الصفحات . انها اوراق سوّدت في ليالي ارق العالم في
هذه السنة ، هبطت علي من وحي الاشتراكية ونهضة الشرق
العظيمة ، من وحي ماركس ونضال الحبشة ضد الرأسمال
الغربي ، من الفكر الصافي العادل الذي يذيب نفسه حبة
حبة ، كما يقدم لنا زعيمنا دمه نقطة نقطة ، في سبيل تخليص
الشرق والغرب من اسياد تنتابهم افطع نوبات الجنون المجرم .
فأقرأها قبل ان تسافرا انت الى تلك البلاد النائية
القرية ، سواء كانت في الجنوب او في الشمال ، فلعلها تفيدك

قليلا وان كنت انت نبأ عذبا للافادة ، وان كنت سترجع
الينا من هناك وفي جعبتك ما هو افضل منها بمراحل ، وافضح
لخازي المستعمرين ، واشد تنويرا لسبيل الاحباش وسبيلنا نحن
العرب على السواء ، واظهر تدريسا للخفايا المحيطة بطريق
تحررهم وتحررنا السيد .

يقولون - ايها العربي العزيز المناضل مع عصبة الثائرين
لتحرر شعبك مع شعوب الارض باجمعها ! - يقولون
ان الحبشة آخر دولة مستقلة في افريقيا . ومنى هذا ، انها ،
ما عدا جمهوريات السوفيات وبعض حليفاتها ، تكون آخر
دولة مستقلة في العالم الذي نعرفه وبمفهوم الاستقلال الذي
ندركه ، اي الاستقلال عن ارادة الاستعمار ، وبالتالي الراسمال
الذي يعني واياه شيئين متحدي الهوية . فلما سمعت ذلك -
وكان قبل ان تجيشني بمدة وجيزة - تعجبت غاية العجب ، لا أنني
كنت اظن استقلالها وهما من الاوهام ، شيئا كاستقلال
منشوريا او مصر مثلا .

ذهبت على اثر ما سمعت اقتش . لم اترك مكتبة للبيع
او للقراءة ، في هذه المدينة وجاراتها ، من دون ان انقب في

رفوفها لاجد ما يعلمني شيئاً عن هذه الجارة الشرقية المستقلة .
ثم غصت طوال الوقت بعد ذلك ، الى ان انتهى هذا الكتاب ،
في بحر من جرائد ومجلات اللغات التي احسنها ، التقط كل
حرف يقع تحت نظري مما خطه المراسلون والمحوررون
والملفقون والجواسيس — وبالمختصر مما خطه الطييون القليلو
الظهور الضعيفو الصوت ، وغير الطييين الكثيري الظهور
الكثيري الزمور والابواق — بخصوص البلاد التي تعدها
الامبراطوريات المتلاشية لولية شائقة اخيرة من ولائها .
فكانت النتيجة وقتئذ (وذلك قبل نيسان من هذا العام)
لتفتيشي وحماشي ان وجدت ما كان يكتب عن مملكة النجاشي
الاسمر النبيه ، عن القطر الكبير والشعب النليل المتعرضين لان
يغيضا في بطون النجاشيين البيض ، اصحاب القناطير المقنطرة
من مال ومن عبيد ، قدرأ قليلا جداً بالنسبة الى اهميتها ومعنى
القتال المستمر من زمان عليها ، قدرأ جدّ محرف ومموه بالنسبة
الى حقائقها وما كان يدور فيها وحوها .

من ذلك بدا لي كأن الاوروبيين والامير كيين المستعمرين ،
الذين يؤلفون مئات والوفاً من الاسفار والمقالات
والمحاضرات المنشورة بكثافة عن كل ما هب ودب ، نسوا قبل

هذا العام ان في بقعة من هذه المسكونة مملكة قديمة ، عريقة
بمدينتها الخاصة وتاريخها ، رائعة بما سي احوالها وحياة ساكنيها ،
غنية بكنوز لا تثن من مواهب الطبيعة في ارضها . ثم بدا
لي كأن سبب هذا الاغفال ، « مؤامرة السكوت » هذه ، يعود
الى ان الحبشة كانت محاطة بمستعمرين وغير مستعمرة في آن
واحد . وجدها لا تزال منذ النصف الثاني من القرن الماضي
حتى الساعة في حالة نزاع عنيف ، عميق ، متشعب ، مع دول
الفتح الرأسمالي ومع نفسها . ومن المعلوم عند المطلعين على
خبائث المستعمرين انهم يتبعون قاعدة « السكوت من ذهب » ،
في مثل هذه الاحوال ، اذ انهم يشفقون من ان يعكر كثرة
الكلام المفضوح والتعمق بالجهل المسدوع حول شؤون
فرائسهم صفو الولايم الفاسقة التي يقيمونها على حياة الملايين ،
على دم هذه الملايين واطفالها ونسائها واطوانها وعقولها
ونفوسها وخبزها وتاريخها ومستقبلها . كانت عصابات من
المستعمرين تعمل وتحاول وتعد العدة لنحر الحبشة وسلخ
جلدها ، تنظيف أحشائها وفرز « قوادمها » ، لتهيئتها شواء
طيباً في سبيل مائدة فرعونية فاخرة . كانت تفعل ذلك كما
فعلت في بلاد العرب ، من قبل في الصين ، في مصر ، في صقع كل

امة شرقية عظيمة الماضي ، عريقة الثقافة ، ساذجة الشعب ،
ولا تزال باقية في حاضرها على احوال وقواعد مجتمع ذلك
الماضي . كانت تفعل ذلك وهي تتحذر من ان يشم بقية
القطيع البشري المستعبد رائحة موت شقيقتهم المأخوذة الى
الذبح ، من ان يروا دخان النار المعدودة لطبخها .

ولكن لما رأى القطيع ما تفعل العصابات علا الضجيج
ولمع الرصاص !

لما رأى القطيع ذلك كانت الحقيقة قد أصبحت ، يا صديقي ،
لا تختفي او تختبئ . كان الاحرار قد توالدوا وتكاثروا في
العالم ، رغم كل حصاد وآخرهم ، بصورة لم يعد يستطيع قطع
الاسلاك بينهم مما كان الامر . وفي هذا الوقت كانت
البشرية قد تعلمت كثيراً من تاريخها الطويل والممل ، الشقي
والبايد . ها انت واحد قد ترامت اليك الرائحة خلال الشقوق
في جدر المستعمرين ، فشممتها ، فتقيأت نفسك ، فحاش كل
عقاك وجسمك ، فجئتني بمشروعك في سبيل انقاذ شقيقتنا
الحبيشة . ثم ها انا ايضاً شممت الرائحة ، فهاجتي وجئت
اكتب املاء الحقيقة على اكثر ما استطيع تجريدها . وها
الناس في كل مكان يشعرون بما اكتب اثناء وقبل ان اكتب .

وها امامنا وخلفنا وحولنا ، فوقنا وتحتنا وفي كل موطن قدم
 انسان ، مئات والوف ملايين وعشرات ومئات ملايين من
 المظلومين ، من الثائرين ، من القطيع المتشرد الواعي والفاقد
 الوعي — ها كل هذا العديد ، عديد كالنجوم وكالرمال في
 كمياته ، يسرون بكل ما غرست فيهم اجيال التعاسة من حب
 للظلم وكثره للظالم نحو الحبشة . والمتقدمون من
 هذا العديد يحملون اليها شعلات النور الجديد ، والمستعدون
 للبوت مهما اسود يخاطرون بكل شيء ليعلموها والعالم
 بأسره كيف يلبس الضعيف جلده ويرمي من يتلبظون بلحمه
 في اعماق البحر الاحمر . . . في كل اوقيانوس تضيق فيه
 اوساخ الحياة ، في كل فرن لاهب لا يرحم ولا يبغي على مكروب .
 كل انسان شريف في العالم ، أميراً كان او صعلوكا ، كل
 عفيف ، ابي ، محب للانسان ، اي لنفسه بالنتيجة ، من أي
 جنس او دين او عقيدة كان — كل انسان من هذا العديد
 ينظر ، يا صديقي ، الى المملكة الافريقية كمسألة تتعلق بها مثله
 الا على .

اطمئنك باني ، وان كنت لم استطع الذهاب الى تلك البلاد ،
 وان كانت عصابات المستعمرين قد صقلت سكاكينها ، بان

الخبشة جعلت البشرية باجمعها تمسك بتلك العصابات في حالة الجرم المشهود ! اطمئن ، وقل للجميع بان يعملوا حسبما يأمرون ضمير المحبة والخير عند كل منهم !

واذا اعترضك واحد في دربك وسألك : « كيف تتكلم ولسانكم أمير من لبنان ؟ » ، فرد عليه مفحماً بأن في لبنان عشرة آلاف أمير من هذا الطراز ، بأنه اذا كان موسوليني يمثل شعبه وهو يبيدهم فان شكيب أرسلان يمثل العرب ايضاً وهو يبيعهم . وقل ، فوق ذلك ، لمعتزضك : « ما كان عارضوا انفسهم والمساهمون على اوطانهم في أسواق المزاد العلني الدولية ، ليستطيعون في يوم من الايام ان يصبغوا الشعوب التي ينتسبون اليها بسواد وجوههم ، - وكفى الله المؤمنين القتال .

جاء دورنا لكتابة التاريخ . راح الوقت الذي كان العالم يصدق فيه ما يكتبه أمثال اللورد كرومر عن « مصر الحديثة » ، والاخوان « تارو » عن همجية اهالي المستعمرات الفرنسية وعظمة المانية النازية ، وأسعد بك والمؤرخ شميرلن عن الثورة الروسية ، وجرائد « الطان » و « التامس » عن

الثورات المصرية والسورية والفلسطينية ، وثرثرات جميع
 الأبقاق الفاشستية في العالم ، المنهالة بالضربات والاهانات
 على رأس الحبشة وهي في محنتها تتلوى بين أضراس مغتاليها .
 لقد شبع الجميع من تلفيقات وتخريصات ليس مثلها تخليط
 الصائبي وهو يخترع الاماديخ مرغماً عن امرائه المستبدين .
 إن تاريخي الصغير هذا يختلف عن كثير مما قرأناه في
 لغتنا . ذلك لأنني لم أقصد منه مجرد سرد رواية مسلية فحسب
 (وان لم اغفل حاجة التسلية) او نظم كتاب نثر حزين (وان
 كانت دواعي الحزن فيه غير قليلة) عن ماضي أمة وفتوحها
 وعبودياتها ووصف لمختلف احوالها الفرعية . ولا رمت
 كذلك الى عرض هذا الحاضر ، الوارث لذلك الماضي كما يرث
 المرض الخلل مما كان في أيه ، عرضاً سطحياً ، او منقفاً ، او
 مظهراً لحقائق دون حقائق ، او ناظراً الى موضوعي كشيء
 جزئي ، غارقاً في الصغائر وناسياً الكبائر ، او معتبراً اياه حادثاً
 منعزلاً ، مكاناً وزماناً قائمين بذاتهما ، لا يتعلق ويتمركز فيهما
 كل الحاضر وكل الماضي وكل مكان آخر ، كما تتمركز هذه
 الامور في كل زمان ومكان آخر ، تؤلف النقطة وسط الكرة
 اينما كانت عليها . ان ما يحيط بنا من الطبيعة والحياة لحيز

يشبه الكرة العظيمة ، يتعلق ويتمركز كل ما فيها بكل ما فيها . والبرهان تجده كيفما نظرت اليهما ، شرط ان يكون فظرك وفكرك ، يا صديقي ، سليمين ، فلا يريان الاشياء في شكل اعوجاجات وانتفاخات منشارية بعيدة عن تركيبها واشكالها ، كما هو حال بعض اهل البيمارستانات !

بل قصدت من الصفحات التالية الى ان ادرس وادرس . ان افهم ما بدا لي مضبوطاً ، صحيحاً كل الصحة العلية ، فيما سماه المعلمان الكبيران ماركس وأنجلز « بقانون حركة المجتمع » ، ثم ان اعود الى تفهيم ما ادركته لاخواتنا ، لا ان امعن في جمع ورسم صور « بيزانطية » ، جامدة ، مكلسة ، مخططة على اعتبار الثبوت في الطبيعة والحياة ، وعلى ارجاعهما الى غايات مضمرة في عقل ذات موهومة منعزلة ، بدل رؤيتهما رؤيا الحس في اسباب وتناقضات ملبوسة التفاعل والتوليد . اما ذلك الاعتبار فانه يطلب تحريف الحقائق لانها تصطدم بمصالح الحاكمين والمالكين ، الذين يعيش القسم الكبير من الكتاب على استئجارهم ، او ينتج جيأكة مشوشة من الخيالات الاعتبارية ، المعبرة عن ارادة تحقيق أطماع اعتدائية أئيمة في جو مظلم مبهم ، و يسبب صدور الجهالات ونشرها من قبل الافكار الساذجة

او المتلاعبة ، او تنبع منه سخافات افיוنية الاوهام ، مريضة النفس والاحلام — وبالاختصار : يستند الى ذلك الاعتبار « الخيالي » كل ما يعمل على بقاء المجتمع كما هو : تعاسات وجهالات وظالمين ومظلومين .

حاولت ان لا اكتب سطرأ الا وتكون او تتكرر فيه امثلة او قاعدة شاملة جامعة ، مثل واسع الدلالة عميقه ، حقيقة ناثئة وغير ملبوسة ، حادثة هامة لم تجلب الانتباه ، وهلم جرأ من هذه الامور التي يعتمد فيها كاتب الشعب ، المخلص لخير وفضيلته ، على قواعد العلم من استناد الى الواقع ، وفحصه واستخراج الحقائق من مجموعات حوادث ثابتة قليلة الشذوذ ، والترجيح بين المعقول المنطقي وغير المعقول الخ ...

واعيد واكرر المسألة لتغرس غرساً مميكناً في العقول التي ربيت على الاعواجاج في مجتمع يسوده فوضى واعوجاج نظام المستفيدين منه ما يملكون من عبيد وحق العبيد .

لقد جاء دورنا لكتابة التاريخ ! فلنكتبه جيداً وسريعاً وكثيفاً . هذا ما حاولت ان افعله . واذا كنت غير مجيد او مسرع او كثيف كفاية — فاعذرني لاني لا ازال في الدور الذي يكون كل جهد الانسان فيه اعداد نفسه وسواه لاستقبال

شمس الصباح الجديد ، في وقتنا هذا الذي تتلاطم حوادثه وساعاته باستعجال لا يمهل الواحد منا فينة يعيد فيها نظراً قليلاً على ما كتبه .

هذا ، واذا خطر لك ان تجد لي عيباً في إكثار التهم وسط مأساة الرأسمالية المروعة ، فاعلم انني فرح رغم عميم الشقاء . فرح ، لأنني ارانا نسير الى الامام بأسرع مما تصور ونشعر ، بل لأنني اتبين « الامام » وهو يكاد يأتينا من نفسه من شدة ما نبدو له كسالى ! وعندما يشعر الانسان ، ويوقن بالحساب الجامد ، بان مسببي عميم الشقاء ينحرون بعضهم بعضاً ، كيف لا يجد موضوعاً لدعايته ، ويصب جامات تهمه على رأس المجرمين المجانين الذين يحكمون عالمنا ، كما يقول غوركي ، والذين ينتحرون على الاسلوب « اهارا كيري » ، كما يقولون رفيقك الياباني ؟



اقرأ هذه الصفحات ، ايها الصديق ، وأنت على الطريق . واعذرني ، لما بنيت لك من الاسباب ، على الاخطاء والهفوات الصغيرة التي أقع فيها . ولا تنسى الذي طبع الكتاب عندما ترعجك الاغلاط المطبعية ، هذه اللعنة التي تمتاز بها طباعتنا ،

دروس التاريخ

او

فصل كتمهيد

عندما راجعت تاريخ بلاد الحبشه وجدته شبيها في
خطوطه المجلدة بتاريخ كل امة . واهم نواحي التشابه بين
تاريخ الامم هو كثرة النكبات التي تصيبها ، سواء كانت
من الخارج او من الداخل ، من احوال الطبيعة او من
نظام المجتمع . في الحق ، ان تاريخ الانسان حتى هذه
الساعة هو في الدرجة الاولى سلسلة طويلة من المصائب
والشقاء . والكراس القيم الذي وضعه الاستاذ امين الريحاني
عن سوريا باسم « النكبات » يمكن ان يوضع مثله على
المجموع البشري .

غير ان هناك فارقا واحداً هاماً بين تاريخ
البشرية السابق لهذا العصر وبينه اليوم . لقد كان الانسان

دائماً يطمح الى اصلاح حاله والتخلص من تعسه واضطرابه ،
لكن تحقيق طموحه كان فيما مضى يكاد يستحيل عليه ، فليجأ
الى اليأس ، ومن ثم الى المخدرات الدينية ، فتزيد بذلك
نكباته . اما اليوم ، فهو يجد أن مطامحه يمكنها التحقيق ،
بل انها تتحقق . لذلك فهو ، على الاجمال ، مرح رغم
مزيد شقائه ، متفائل رغم تشاؤم اسياد نظام يموت .
يتحرك ليل نهار بسرعة تحرك اشكال الحياة المكرو سكوية ،
ويتجه - وهو غارق بين تضارب تموجاته وتشوش نضالاته
الظاهر - في مجار متضاربة ، متدفقة ، قوية ، تأخذه نحو مراتع
مستقبله الذي سيخلو من اغلب ما عرف من الوان مصائبه .
كل سليم النظر يلاحظ هذا الفارق الاساسي بين تاريخ الامم
ومجتمعاتها القديمة وبينها الان ، كل نزيه يرى ويرغب
حدوث هذا التغير في المجرى الانساني العام ، سواء كان
يحدث ببطء مع عثوق او ينفجر مع اجتياح ، سواء كان يقع
آنأ بتحول او آنأ بثورة . انه يحدث في كل مكان
- حتى في بلاد الحبشة التي نظنها منقطعة عن المعمورة .
وانه اخذ يحدث منذ ما اكتشف الانسان واستحصل
على الالات والوسائل والاستعدادات والممكنات الشتى

التي تيسره له ، منذ ابتداء ان يلتجي* الى العلم وتنظيم نضاله
 للتخلص من مصائبه بدل ان يلتجي* الى الدين ويستسلم للقوضى.
 هذا ، وعندما اقول « الانسان » اقصد منه القسم والنواحي
 التي تمثل فيه ارادة تغيير حالته للخير العام ، لا القسم
 والنواحي التي تريد ديمومة الحالة الحاضرة لمصلحتها
 الخاصة . فالشطر الاول هو المجموع البشري الساق ،
 المتألم ، المستعبد ، الذي تصيبه النكبات في الدرجة الاولى ، تقدمه
 جمهرة من الابطال والشهداء ، من المفكرين والعلماء والزعماء
 الشعبيين الثوريين ، فيشدون ازره ، ويمهدون له وعورة
 السبيل ، ويكتشفون له القواعد والاساليب التي تحقق له
 تحرره وتمكنه من سعادته . اما الشطر الثاني ، فيمثله
 كل من يستفيد ويعمل على ادامة استفادته من بقاء المجموعة
 الانسانية الساحقة على حالها السابق والراهن من نكبة وجهل .
 وهذا الشطر عصابة ضئيلة العدد من المسيطرين .

على هذا سارت البشرية وتسير ، وعلى هذا
 الاساس ندرس الحبة . والان هيا بنا اليها لنرى
 كيف يتحول تاريخها من نكبات الى امل ، ومن هذا الى
 تحقيقه . فان هذه البلاد الاستوائية ، النائية ،

المجهولة ، الغربية ، تستحق اهتماماً كبيراً منا نحن العرب الذين نطلب ان نتحرر ونرتقي ونسعد مع غيرنا ، وان يتحرر غيرنا ويرتقي ويسعد معنا . لم تعد تلك البلاد مجرد اصقاع ضائعة بين الغابات والصحاري والنجود المجهولة ، منقطعة عن العالم انقطاعاً يجعله لا يؤثر فيها ولا تؤثر فيه . كلا ! بل اصبحت منه وفيه ، يعتمد مصيرها على بقية الدنيا وشيء كثير من مصير بقية الدنيا عليها . بل العرب والاحباش انفسهم قد غدوا الان من بعضهما على قرب وترابط قضية ومستقبل كالقرب والترابط بين اي بلدوبلد مصايين او مستهدفين لخمالات الاستعمار . بين سوريا ولبنان مثلاً ، او بين مصر وطرابلس برقه ، او بين الهند والصين ، او بين الجمهوريات السوفياتية وبقية العالم المظلوم جميعاً . فكل بلد على الاطلاق اصبحت اليوم مقدماً مقاطعة في الاتحاد العظيم الاتي لجمهوريات العالم . . . هذا ، ان لم يستطع الرأسماليون ان يقرضوا الحياة من على وجه الارض بحروبهم ومؤامراتهم .

دخلت بلاد الحبشة (وهي القطر الذي يعرفه الغربيون اليوم باسمي « إثيوبيا » و « آيسينيا ») في حقبة التاريخ

التدني المتري عن حالات البدوة الاولى منذ ما هجر اليها عدد من القبائل العربية ، اهمها قبيلة عزيمة من اليمن اسمها « الحبش » او « الحبشة » ، وقد وقعت هذه الهجرة قبل الميلاد بيضعة قرون . واما ما يعرف من حقائق احوال وتاريخ هذا القطر فيما سبق هجرة الاحباش اليه ، فقد ر ضيل جداً توصل اليه بالتخمين . بل ان اكثر ما نعرفه حتى بعد حصولها ، بل حتى القرن الثالث او الرابع عشر بعد المسيح ، ليس الانتفاً ولحات من بوارق الحقيقة الغارقة في بحور من أكفان الخرافة او عادات القبائل الباقية او الاثار الصامتة الناطقة . غير اننا نستطيع تقدير بمثل تلك الاحوال وتصورها من كون أغلب اهلها كانوا على مثل جميع البشر في اطوار بداوتهم . كانوا قبائل يمتازون عن قبائل آسيا واوروبا السابقين بالاجسام الخفيفة المقتولة ، والشعر الجعدي او السبط الفاحم ، والبشرة القائمة تتراوح بين السمرة الداكنة والسواد . كانوا يحبون في وضعية متأخرة . يسكنون كهوفاً ومضارب تدل على غاية من الفقر والاتضاع والجهل . يعبدون الانهار والطيور والجبال والاشجار ومختلف الحيوانات والثعابين والحجارة

والاجرام السماوية ، اولا يعبدون شيئاً على الاطلاق . كانوا يعيشون بالقنص اولا ، ثم بوسيلة جديدة الى جنب القنص هي تربية المواشي وزراعة الارض بالصورة الابتدائية واما الغزو فكان ديدنهم على كل الاحوال . وكثيرون من اهل تلك البلاد لا يزالون على هذه الاوضاع وما يرافقها من عادات وعقيلة وظروف حتى اليوم .

لما جاء العرب الاحباش الى بلاد تلك القبائل جلبوا معهم لقاح مدنية يمنية راقية في عصرها ، ذات فون وخبرة وتقاليد وعادات وآلات ومعارف جديدة مفيدة . ومنذ وقت هجرتهم تلك ، بل حتى من قبل ذلك ، الى هذا اليوم والاتصال وتنقل السكان بين جزيرة العرب وبين اقاليم افريقيا الشرقية والشبالية ، المعروفة الان بالحبشة والصومال والسودان والاريتريا وسواها ، قائم على قدم وساق في مجرى تاريخ الاقليمين . وكما كان التقارب العرقي وثيقاً بين العرب وسكان الحبشة ، كذلك كادت العادات والتقاليد والعقيلة والثقافة والعبادات تكون موحدة بينهما في اهم نواحيها . بل ان اللغة نفسها جمعت . فلسان الحبشة القديم كان لغة عربية الاصل اسمها « الجييزية » . واغلب لغات الحبشة اليوم هي

تطورات مختلفة لل لهجات مختلفة من اللغة العربية . غير ان اللغة الامهرية وهي بنت الجيئزية البكر واقرب اللهجات الحالية الى العربية بالفاظها ونحوها وصرفها واساليبها ، هي اليوم السائدة بين شعب الحبشة ، يعتبرونها لغتهم الرسمية في البلاط ودوائر الدولة ، بل وفي الكنيسة . وهكذا نجد ان لنا باهل الحبشة قرابة من كل وجه (فوق القرابة الانسانية ووحدة المصيبة والاعداء) ، حتى ان اسم بلادهم اسم عربي .

ومع هذا ، نجد ان بلاد الحبشة بالحدود التي نعرفها اليوم كانت مجهولة في الماضي البعيد . كانت في الماضي في انقطاع شبه مستمر عن بقية الشعوب ، فلا تخرج من سديم ابهامه الا كل دهر وآخر ، تلمس أثناءه الدنيا وتلمسها الدنيا . فتسري فيها عند ذاك رعشة تيقظ لفينة قصيرة ، ثم تعود تغط في نوم الاجيال المنسية . والسبب الالهم لهذا يعود الى وقوع معظمها في صقع نجد عالى ، بعيد ، موحش ، يمنعها على الفاتحين والتجار والزائرين والمبشرين ويمنع عليها المعرفة والاتصال ببقية بلدان العالم القديم المحيطة بها . وكان ذلك طبعياً في عصر لم تكن المواصلات فيه ودوافع التغلغل الاستيطاني او الاستكشافي او الاستعماري

قد صارت الى ماهي عليه اليوم.

ولكن رغم هذا الانقطاع ، ورغم ما سنجده فيما يلي من قلة معرفة العالم بالحبشة قديماً وحديثاً ، فإن بابها كان مطروحاً منذ اقدم الازمنة ، وشطوطها وحواشيتها مفتوحة امام روادها . وكان اوائك الرواد في الاغلب من صنفى التجار والفاحين . كانوا دائماً يستهدفونها وما حولها من المناطق طمعاً بما فيها من غنى ومحاصيل . نستشف خلال غيوم تاريخها المظلموس مدناً تجارية نامية ، منتشرة هنا وهناك منذ زمن مجهول على الساحل الغربي للبحر الاحمر . كان يعمر هذه المدن ، عدا الاحباش ، طوائف من التجار الاجانب واليهود .

تخرج تلك المرافىء الى الضوء في عهد بطليموس الثاني ، عاهل مصر الاغريقي ، (٢٨٥ - ٢٤٥ ق . م) . فقد ارسل اليها هذ الرجل بعثات الاستطلاع ، وسدد تربتها بالتجارة والاستغلال ، وطغت قوافل مصر في وقته حتى اقصى مدن البلاد الساحلية وبعض الداخلية منها . وقبل بطليموس الثاني لا يشك المؤرخون بان مصر ، على عهد الفراعنة ، كانت قوافلها تجتاز بلاد النوبة اليها لتحمل منها انواع منتوجاتها

وموادها الخام والعبيد ، كما ان اهل اليمن من عرب الجزيرة كانوا دائماً ينظرون اليها كمنبع ثروات . وبعد بطليموس الثاني جاء الثالث ، الذي اتبع خطة سلفه بالفتح التجاري في الحبشة وذهب بنفسه يرتاد سواحلها ، حيث جدد او اسس بناء مدينة « آدويس » التي بقيت الى اليوم في شكل بلدة حقيرة اسمها « زوللا » . ومنذ ذلك الوقت حتى اليوم والحبشة مطمح لانظار التجار والفاحين ، والتجار والفاحين لا ينون عن محاولة إختراقها ، عن مبادلتها البضائع ، وعن نهبتها . ولهذه الناحية سيرة طويلة لاتزال تتطور ، كما سنرى ، حتى تأخذ شكلها الاستعماري الحديث . فان التجار والماليين والفاحين المستعمرين اليوم يرون في الحبشة منجم كنوز لا ينضب ، ولقد مر عليهم حتى الساعة ثلاثة او اربعة قرون وهم يستعملون كل الطرق ، ويرسلون بالبعثة اثر البعثة والحملة اثر الحملة الى الحبشة لمحاولة الاستيلاء عليها واخضاعها بكل ما فيها من موارد ومن احياء ، الذين يعدون موارد ايضاً

كان المؤرخون والادباء اليونان والرومان يطلقون — بسبب غلبة جهلهم لما وراء اطراف سوريا ومصر — لفظة

« ايثيوبيا » على جميع الارض الممتدة من الهند الى حدود ليبيا الغربية . كانت الهند ومصر نفساهما تعتبران من ايثيوبيا هذه ، وكانوا يسمون جميع الشعوب السوداء او ذوي الجلود السمراء « ايثيوبيين » . وعلى مثل جهل اليونان والرومان لبلاد الحبشة نجد جهل بقية اهل الامم والمدنيات السابقة لهم . فانتا لانقع على ذكر واضح لها في المنقوشات الهيروغليفية المصرية او سواها ، او المسماة الاشورية او سواها . كذلك التوراة لاتذكرها ، بل تذكر « كوش » اي بلاد النوبة التي ترجعها ناقلا التوراة الى اليونانية بلفظة « ايثيوبيا » المشار اليها .

الا ان هذا الجهل ليس بغريب ، اذ ان الحبشة تكاد تكون غير معروفة من الجبهة البشرية الى الساعة هذه . ليس من يعلم الحقائق الراسخة عن تاريخها ودخائلها غير نفر قليل من المستشرقين الانكليز والفرنسيين والايطاليين والالمان وسواهم القائمين بوظائف الاستكشاف فيها لحساب الدول المستعمرة ، والذين يطلقون ظلماً على انفسهم لقب المؤرخين ، اعتداداً بما يحتسرونه من المعلومات الهامة وبما يمتازون به من مقدرة على ترصيع كتبهم الضخمة بالاكاذيب والحقائق المحرفة

او المغارة او المشوهة . انهم لذلك لتأثرهم بعقلية خدام الفاتحين .

ولكن جهل عامة الناس خارج حدود الحبشة قد لا يبدو لنا ايضاً كـثير الغرابة عند ما نعلم بان اهل الحبشة انفسهم لا يزالون يجهلون الكثير من امر بلادهم : ماضيها وحاضرها . فان ما يعتقدونه عن تاريخهم شبيه بما يحفظ بعض شيوخ الرجعية من الادباء والمؤرخين عندنا عن تاريخ الجاهلية الاولى انهم ، مثلاً ، يرجعون انساب ملوكهم الى سليمان الحكيم ونوح و آدم ، كما كان العرب يرجعون ملوكهم الى سلالات متصلة بامثال هذه الشخصيات الخرافية ، وما يروونه عنهم وعن اسمائهم وغرائب حياتهم وحكمهم وفتوحاتهم وقوة ايمانهم يجعل روايات نسابنا واخبارينا القديما شبيهة احياناً بالحقائق بالنسبة لمحفوظاتهم . واما بخصوص معرفة الاحباش لحاضرهم الراهن ، فهم احسن فهماً له مما كانوا عليه من فهم وادراك لامور حاضرهم منذ بضعة قرون . فان أحد « المؤرخين » الانكليز للحبشة ، هو السير ل. أ. واليس بودج (١) ، يذكر

(١) لقد اعتمدنا في الشيء الكثير من المعلومات عن تاريخ الحبشة وسيرة المستعمرين فيها على هذا المستشرق وامثال له . ذلك لانه لا يوجد الى الان كتب مكرسة للحقيقة والعلم والتقدم البشري مما درس فيها اصحابها هذه البلاد

في كتابه « تاريخ ايشويا » بان جميع الدول التي كانت حول الحبشة في عهد من عهودها الماضية كانت تنظر الى فتحها كل ساعة ، بينما ان الوحيدين الذين لم يخطر ذلـك ببالهم كانوا الاحباش . اما اليوم ، فان جميع الاحباش يعلمون تمام العلم بان الدول الاستعمارية المحيطة بهم تنوي استعبادهم .

بيد ان نقص المعرفة لاحوالهم الحاضرة تتجلى لنا في انهم لا يزالون غير مدركين مئة بالمئة بان السلاح الوحيد الذي يخلصهم من نوايا الشر عند اعدائهم هو العلم والثقافة الصحيحة والارتقاء التكنيكي الالي ، شريطة ان يكون هذا الارتقاء وطنياً شعبياً لمصلحة الاكثرية الكبرى من الاهالي ، لا ان تكون وسائله بيد الاجانب او بيد افراد منهم يخدمون الاجانب ويشتركون معهم على استعباد شعبهم . لا تزال معرفتهم ينقصها الادراك التام بان الطيارة لا تقاومها الا الطيارة ، لاعصبة الامم ، وبان شعباً بدوياً يعيش في حالة الاقطاع وغير متعلم مهما يكن باسلا كريماً ، قد يقع في اية دقيقة فريسة سهلة لظالمين خبثاء واسياد دمويين ، وبان على الارض اليوم جمهوراً كبيراً جداً من المخلصين ، ينتسبون الى جميع البلدان ، ويعتبرون انفسهم اخوان كل امة ضعيفة مغلوبة على امرها ، و يعملون

باقصى جهودهم وبكل انواع التضحية لتحريرها من ربة المستعمرين الاجانب . اجل ، الاحباش يجهلون بان هؤلاء الانسانيين المخلصين قد ساعدوا قبل اليوم على تحرير بلاد غيرهم كتركيا والعجم مثلاً ، وبانهم يشتركون اليوم مع اربعمئة وخمسين مليوناً صينياً شرقياً لتحريرهم من قبضة عصابة الرأسماليين الانكليز والفرنسيين والاطليان والالمان والاميركيين واليابانيين .



نرجع الى تاريخ البلاد فنجد بانه لا يوجد لها تاريخ علمي معروف بمعنى الكلمة قبل النصف الثاني من القرن الثالث عشر . اتدري لماذا ؟ لأن علماء الحبشيات يؤكدون لنا بانه لم يبق في البلاد الى هذا الوقت من الاثار او الكتب ما يدل عليها ويطبعها بهوية واضحة وبقاء الذكر الاكيد . فان الحروب والانتفاضات والفتوح — وهذه الاخيرة كانت كثيرة في حواشيها رغم ما اشرنا اليه من انقطاع الحبشة عن العالم — كانت تجتاح البلاد طولاً و عرضاً في حركة تدميرية دائمة . لقد كانت القبائل والمدن الصغيرة المستقلة وطبقات الاهالي المختلفة والمقاطعات والامراء والملوك ورجال الدين وفرق

المذاهب والشعوب المجاورة تتفاعل مع بعضها البعض تفاعل
تنازع وتقاتل لا يهدأ . كانت شعلة الدمار لا تنقطع عن احراقها
منذ اقدم عصورها ، ولا تلتهم الناس فقط بل تमित مواهبهم
وميراثهم الثقافي والادلة على وجودهم ومركزهم الانساني
تحت الشمس . ولما وافى القرن الثالث عشر وجد الحبشة
وهي لا يكاد يعمر فيها . لكثرة ما نهكت نفسها ، شي يروي
عنها شيئا .

لقد اقتلع منها إعصار التناوب والتعدي المتقابل المستمر جل
مبانيها الثابتة ، ولم يترك الا قليل مطموسات ودوارس ترقع
ثلثات التخمين للحقيقة المنطوية في اثواب تاريخ خرافي مهمل .
وجل المخطوطات والكتابات الشرحية والدينية والسيرية
والخاصة باعمال الملوك وعائلاتهم وغيرها ، من التي كانت
محفوظة في عاصمتها الشالية القديمة « اكسوم » او في مرفأها
البحري « آدويس » او اديرتها القديمة في الجنوب وامكنة
اخرى ، احرقها وأتلفها فوضى التنازع الاعشى عواصف
الزوات غير المربوطة ، بمامعها الاديرة والعاصمة والمرفأ وجملة
الامكنة الاخرى . دمرت الكوارث المتعاقبة قرى البلاد
ومزارعها ، وساعدت على استبقاء التعس والجهل والروح

البربرية ، وسهلت للملوك والرؤساء والكهنة ، الذين كانوا
العوامل الاولى في إزكائهم ، متابعة سبيلهم في ادامتها والاستفادة
منها في فترات اعمارهم القصيرة — لتعود فلتتهمهم بدورهم
وتقضي عليهم هم انفسهم قضاءً فظيعاً ابدياً في نهاية المأساة . واما
تجارة البلاد وصناعتها وآدابها وثقافتها ، التي كانت تتحرك
للحياة والانبعاث كلما سكنت نيران الاقتتال والفتح والتذابح
فينه لتأخذ نفساً قبل ان تعود فلتتهب وان ترجع تجرف
تراب الحياة امامها اشد من ذي قبل — واما هذه الاشياء
فقد تهزل حتى تصبح كعليل في حالة نزع وخور موتي ،
بل تسكن على حواشي حياة ابتدائية وتتغذى بما تمتاز به تلك
الحالة من تأخر وفقر وكثافة ذهن . هوذا ، ايها القاري العزيز ،
فصل مريع آخر يضاف الى سيرة النكبات في العالم .

ولكن من خلال ثنايا الدخان المتصاعد حول هذا
التخريب والافناء المتواصل ، نلمح هنا وهناك بصيصاً لقبس
ضعيف مرتجف ينور رسوماً مخنوفة من حياة الحبشة . ان مثل
هذه الاشعات الخجولة لتعلمنا بانه رغم كل ما اعتري الحبشة
(على مثل ما اعتري جميع الامم) من تشويش الابداء ،
ورغم انقطاعها الطبيعي عن العالم ووجودها في اواسط افريقيا ،

ورغم كل عقبة أو نقص آخر ، قد استطاعت ان تشكل لنفسها كياناتاً قوياً وغنياً من المدنية والترقي والبناء والانتاج في فترات الاستراحة المستمرة من تاريخها المضطرب . وفي هذا نتلقى درساً بليغاً عن مقدرة الإنسان ، عن اتجاهه الحقيقي والمرغوب منه لنفسه ومن الطبيعة له ، عن قوة الارادة فيه وقوة البقاء ، عن ذكائه وثباته واستعداداته ومقدرته الرائعة على التكيف ، عما يمكنه ان يحققه اينما كان وكيفما كان ومهما كان لونه ولغته وجنسه ، ومهما تعلقت به نواجز التقهر والارتجاعية لترده عن سبيل تقدمه ومجده الحقيقي ، عن مستقبله السعيد العظيم .

وأحرى بالانسانية ان يكون لها مثل هذا الأمل . اذ لولاه هل كان لنا الا ان نسبق الموت باراحة انفسنا ؟ تأمل ! خذ لك هذه الصورة السريعة من تاريخ الحبشة النكبي ، الذي هو في الحقيقة رمز لتاريخ العالم باجمعه :

حروب تستمر بين الملوك « والرؤوس » والاباء ، بين المدن والمقاطعات والقرى والقبائل . عائلات تقتتل على السلطة والثراء ، تتسلح باثارة الهستيريا الدينية وهي تمحق الشعب وتمحق بعضها بعضاً . الوالدون من الامراء يقتلون ابناءهم او

ينفونهم الى قمم الجبال . اخوة يدسون السم في طعام الاخوة ليرثوا المملكة من دون مزاحم ، فاي سم اذن هو الذي يلقمونه للهلاليين من عبيدهم الذين ليسوا اخوتهم ؟ المملكة والنبيلة تكيد للملك والنبيل والعكس بالعكس . والكاهن والشيخ والحاخام يدخلون بين الجميع مزبدين في فساد احوال الجميع ، مغذين الناس بحشيش او هام كثيراً ما يندفعون بمفعوله اندفاع اصحاب الحسن بن الصباح الى جنائهم عن طريق الاغتيال والتخريب والانصراف عن كل معقول . من تاثيرهم انه بينما الفاتحون يخترقون البلاد ويبيدون بها ينصرف الاهلون الى التقاتل فيما بينهم على اي يوم ينبغي ان يعيدوا فيه عيد الفصح !

اسياد يغطسون في الموبقات وحرقت المدن والقرى باهاليها وفي بناء الاديرة والكنائس والجوامع . ملك ينكح خلية ابيه واخته معاً ، وخلفاء له لا تحرم حياتهم ثانية من الاستراحة عن نحرهم لاعدائهم وحرقت بلدانهم ونحر اعدائهم لهم . معارك هي من الكثرة لدرجة ان امكنتها ، من ضياع ومدن وساحات امحت عن صفحة الخريطة ولم نعد نجد مواقع ظاهرة على وجه الارض . الملك « آمدسيون » يشبهه مؤرخو

ايامنا باسلاف سبقوه بثلاثة آلاف سنة ويزيد — بملوك
 النبوة وبرعمسيس الثاني وارباب بابل وآشور . اساليب
 هؤلاء في الفتك لاتزال اساليبه واسلافه وخلفائه . خمسمئة من
 رعايا الملك يلتجئون الى كنيسة هرباً من غضبه وظناً بانه يخاف
 الله ، ولكنه يحرقها وهم معاً قاتلاً انهم دنسوها نبلاء وعاهلون
 من شتى الدرجات والطاراز يذهبون الى العيد فيتلهون باصطياد
 الحيوانات واهل القبائل على السواء و « بابا » الكنيسة
 الحبشية الصغير « ابا سلامة » مثل طيب على بقية الباباوات ، اذ
 انه يغتصب نساء جيرانه كداود ، ويفضل عليهن الغلمان ،
 ويسره دمهم الكثر من جسمهم ، ومن لا يطاوع شهواته
 يكفره ويحرمه من رحمة الله او يقتله رأساً . مثل النازي
 والفاشست وعسكري اليابان ومستعمري الهند اليوم ، كان
 الاقوياء يخفون اعدائهم ، فيصمت الناس ولا يجسر احد ان
 يتسائل اين راح « فلان » ، لانهم يعرفون « فلاناً » اصبح من
 ضيوف عالم آخر . واثماً كل هذا يخرج الكاتب الحبشي
 من كوة صومعته عنقاً هزيراً عليه رأس صغير شائع تنقصه
 النظارات ، فيجعل نظرة « ميوية » تعباً في السهل ، ثم يعود
 ليكتب وقلبه يثز على جلد الشاة : « وجرى الدم كالماء ! »

يذهب الملك الى غزو سبع مدن يقتل جنوده كل انسان يلتقون به كما كان يفعل جنود الجنرال غاملان في الثورة السورية . ثم يعودون هاتفين فرحين ، فيكتب الكاتب مرة اخرى : « عاد الملك بسلام الله » ! ثم يذهب طاغية آخر الى غزوة ثانية ، فيظل يسير ويبيد ولا يترك خلفه من الاثار سوى الجثث والرسوم حتى يقطع النيل الازرق او الابيض . ولكن حزناً يدخل قلبه هناك حيث تضمحل المعمورة ، لانه ، كما يقول الراهب المؤرخ : « لم يجد امامه احداً ليقتله في تلك الاصقاع » ! وهكذا دواليك .

العبيد الارقاء اكثر من ثلث الشعب ، ولكن ليس لهم حتى الشرف بان يسموا « شعباً » وهو « القطيع » في عرف الملوك . غير ان الجماهير الجرارة التي تسمى شعباً ، التي تبلغ اكثر من ثلثي الثلثين الباقيين من السكان ، لا تفرق عن الثلث الاول الا بكونها واقعة في درجة ثانية من العبودية . اما ماعداهم فاقلية ضئيلة من الكسالى والمغامرين على حساب غيرهم ، وكلتهم « العناية » بان « يديروا » هذه الاحوال . اما القحط والوباء والمجاعة فتعاقب ابدأ . مع الحروب . والشقاء المتراكم منذ مئات السنين في روع بشرية منهوكة ينفجر عنها أسطورة

شجية. يخلقها الشعب ليقذف بهادماغه في غيبوبة كي يعدمه تماماً،
ولكنها مع ذلك لاتعدمه احساسه بالعذاب . هي اسطورة
تقول بان الملك تيودوسيوس بن داود الذي حكم ثلاث
سنوات فقط وقلت في عهده الحروب نوعاً ما سيبعث ليحكم
الحبشة الف عام طوال ، فلا تكون فيها معارك ولا يكون
فيها فقر ، بل يرتع اثناءها كل انسان في احضان سعادة بهيجة
ونعمة وسلام .

التناحر بين الكنيسة والدولة قائم على قدم وساق . هذا
بطريك لم يقطعه الملك ما أمل لقاء مساعدته له على اخضاع
الشعب لنزوته ، فيهبج الشعب عليه باسم الله وما يتبعه من .
القديسين والقديسات فيفنى في الهيجان بضع عشرات او مئات
الوف يغرقون في بحيرات من دماهم ، ولا ينتهون من
متابعة سبيل الموت حتى ولو تدرج رأس الملك عن كتفيه
وذلك امير يرمي بضع مئات او الوف من الاكليروس في
جرف سحيق او يشويهم بنيران وقودها من أديرتهم المحترقة ،
ومن ثم يتبعهم بمذبحة عامة للشعب ، لكي تفهم هذه السائخة
جيداً بان و كيل الله الوحيد على الارض وماسك دفاتره هو
الملك لاغيره . هذا هو معظم التاريخ .

بلى ، انه لتاريخ الحبشة وتاريخ العالم هذا الذي ينطق بذلك
الشعر وذلك الاسلوب الارجواني العميق . هو تاريخ البشرية
الظالمة المظلومة . صحيح ان الامير الحبشي جاء بعد رعمسيس
الثاني ببضعة آلاف سنة وهو ما كأنه إلا نسخة ثانية له ، ولكن
صحيح ايضاً بان هتلر وموسوليني في هذا الزمان نفسه جاء بعد
نيرون و آتيليا باقل قليلا من ألفي سنة . كانت ملوك الاحباش
وجميع الامم القديمة تحرق المدن والبشر ، ولكن المستعمرين
الفرنسيين منذ عشرة اعوام فقط احرقوا دمشق وحصدوا
اهلها على النمط التيمور لنكي . والمستعمرون جميعهم ، والانكليز
منهم في راس الدفتر ، لا يزالون في القرن العشرين يبيدون
ويحرقون القرى باهاليها على غرار ما أشعل هؤلاء قرية صرفند
في فلسطين ، وعلى غرار ما أبادوا الفلاحين المصريين في دنشواي ،
وعلى غرار ما فعلوا ويفعلون دائماً في الهند ، وما فعل ويفعل
قديسوهم من « كليف ، حتى غوردون وحتى رامسي ما كدونا لد .
ومع ذلك ، فان الاحباش والامم القديمة لم يستعملوا الطائرات
ليحطموا الشيوخ والاطفال والنساء بالقاهم من اعالي الجو ،
كما يفعل رجال موسوليني بالعرب وكما يريدون ان يفعلوا الان
بالاحباش وغيرهم ممن يجتهد الفاشست لتريغهم تحت نعال

وحشيتهم « المثقفة » ! كذلك أيضاً لم يعرف الاحباش وغيرهم من الامم القديمة كيف يستعملون الرشاشات كي يحصدوا بها اهل القرى التي يحرقونها ، كما وقع لاهالي صرند المذكورة مثلاً ولا لوف غيرها عندما تصف حول تلك القرى المغضوب عليها جنود الاستعمار ليضطادوا كل من يفلت من اللهب . للحبشة عذر التأخر او ما يسميه برابرة اوروبا الحاليون « بالبربرية » . ولكن ما عذر فرنسا وانكلترا وايطاليا واميركا واليابان ؟ العلة في ان نظامهم الاقتصادي لا يزال نظام الفرد يستغل الجماعة ، كما كان منذ ثلاثة آلاف سنة ؟ ام لعل عذرهم في انهم ارقى شكل تطورت اليه البربرية ؟ ،

والان أليس ان أفضع كارثة أضيفت الى قائمة النكبات في تاريخ الحبشة هي هذه النكبة الجديدة التي نقلنا تنفة من اعمالها ، التي حملها الى تلك البلاد والى سواها وكلاء رأسماليي انكلترا وفرنسا وايطاليا ودولهم ؟ هي وافدة الاستعمار ، القمة في جبل شقائها وشقاء جميع الشعوب ، هذه التي جاءت الحبشة اكليل شوك أخير قبل ان تدخل في انتفاضة العالم الكبرى . هي اروع واخبت جميع مصائب الاحباش ، ولم تجهم من البربرية القديمة بل من « مدنية » الرأسمالية .

نخرج من هذا الفصل التمهيدي وقد تجملت لنا الجوانب البارزة التي احاطت بماضي الحبشة، والتي لا تزال تتطور معها وتحيط بحاضرها. والاهمية الاولى لما عرفناه من هذه الجوانب هو فيما تقدمه لنا من الدروس التي يجب ان لا تضيع فوائدها لهذا اشد التنبيه اليها بتعدادها كما هو آت.

هذا، واعتقد بانه يحق لي كشرقي متعرض لعبودية الاستعمار وواقع مع قومي في نفس الفخ المنسوب لاخواتنا اهل الحبشة — نعم اعتقد بانه يحق ويجب علي وعلى غيري ان ننبه بعضنا بعضاً الى مثل هذه النقاط. ذلك لانها جوهرية بالنسبة اليهم والينا على السواء، وادراكها يعينهم ويعيننا على نوال الحرية والسير في معارج التمدن الاشتراكي الصادق والتنعيم بعدله وبحبوحته وهاك الان هذه الجوانب :

١ — ان معرفة الاحباش المعاصرين لتاريخهم تحتاج الى تصحيح منهم له. ذلك كي يفهموه علمياً، مبنياً على الحقائق الاساسية، على قواعد النضال الطبقي وعلى المحور الاقتصادي الذي دار ويدور عليه هذا النضال. وهذه الحقائق لا تظهر لنا الا على ضوء طريقة المادية التاريخية في البحث — الطريقة الوحيدة السليمة لفهم حوادث المجتمع ومعرفة اسباب تقدمه

وتقهقره ، ماضيه وحاضره ومستقبله ، من دون أفل تحريف
او تشويه ، دون اي تمايل نحو « اليمين او اليسار » كما يقول
ملكهم القديم النابه كلوريوس في مقالته « اعتراف الايمان » .
يجب ان يفهم شباب الاحباش المخلصون ومفكروهم المجددون
هذه النقطة واهميتها . اذ أن المعرفة الصحيحة للتاريخ تلعب
دوراً بـمـكان اولي . في رقي بلد ما ومناعته على الاستعمار .

٢ — ان ما تظهره لنا طريقة المادية التاريخية في درس
الماضي هو كونه لم يكن الا ماضياً من الملوك والبطاركة
والزعماء والسيوخ والوان النبلاء والكهنة يشكلون محوراً
لمصائب وتعاسات لا تنقطع ، يلغ فيها الشعب وهو يحمل
رؤساءه هؤلاء وصليب عذابه . وبكلمة : كان الماضي ماضي
نكبات الشعب المستثمر الخاضع لارادة ومطامع اسياده .

٣ — كان الماضي ، عدا ذلك ، انقطاعاً ثقيلاً ، شبه مستمر
بين الحبشة وبين بقية الدنيا ، الا ما حدث بينهما من اتصال
عن طريق التجارة والفتح والدين . وهذه طرق عمات ، في الواقع
على ازدياد انقطاع الشعب الحبشي وتنمية كرهه للعالم الخارجي ،
الذي بدا له وكأنه غول يفتر فاه ليتلعه فوق ما هو « مبلوع » .
وكان من اثر ذلك ان امتنع عليه ان يستفيد الاستفادة الثقافية

المشتركة بين الشعوب ، وعن اكتساب معارف الامم العلمية والادبية والفنية ومساهماتها في الاكتشاف والتقدم ، واخيراً عن السير مع التاريخ الى ابعد مراحل التطور التي وصل اليها في اوروبا واميركا وآسيا عموماً ، ثم فيما وصل اليه عند سكان الجمهوريات السوفياتية — ممثلة المرحلة الاخوية الجديدة في حياة الانسانية قاطبة .

٤ — ان الاحباش والعرب ليسوا فقط اقربين بالدم واللغة والاخلاق والعقلية ، وعلى اتصال دائم منذ اقدم العصور حتى اليوم ، بل انهم ايضاً شعبان نبيلان تجمعهما مصائب الماضي التي ولدت منها مصائب الحاضر . تجمعهما الحاجة الى السلام والتضامن في سبيل تكسير انياب الاستعمار المكشرة الزائدة قبل ان تعرق لحم الشعبين عظمهما تعريقاً كاملاً .

٥ — ان بلاد الحبشة غنية جداً . كانت كعبة يتوجه اليها الفاتحون والتجار منذ ايام الفراعنة ، مخترقين اليها اسوار بعدها وانقطاعها وحواجز البحر والغابات والنجود الشائخة والدكادك الفجة ، مخاطرين بانفسهم في اجتياز مناخات المناطق الاشوائية . والان ندرك ان هذا الغنى الذي جذب اليها برغم الاخطار . تجاراً وقواداً من الامم القديمة ، هو نفسه الذي

يجذب اليها اليوم قواداً وتجاراً من دول الاستعمار . كان اصحاب القوافل ياخذون من البلاد ذهباً ومسكاً وبخوراً وخشباً وعاجاً ابيض واسود (الاول) هو سن الفيل والثاني هو (العبيد) ومزروعات ومنتجات شتى ، ويجعلون منها سوقاً لبضاعتهم . واليوم ايضاً يرغب المستعمرون بهذه الاشياء ، وبما يزيد عليها كثيراً . هذه الزيادة هي في ان رجالهم كشفوا في الحبشة عن طبقات معدنية لا تثنى فهم يريدونها . وفي امكانهم استخدام تربتها الطيبة في انتاج ما لم تكن تعرفه في السابق من المزروعات بواسطة شركات استثمارية واسعة يكد على اراضيها ابناء البلاد انفسهم تحت شروط العبودية الاستعمارية — فهم يطعمون بذالك ولا يكادون ينكرونه ولكن يسمونه بلغتهم المعسولة المنافقة « تمدنا » . وهم يشعرون في بلادهم بضغط ملايين العمال البائسين والعطالين (وهذا يسمونه « بزيادة السكان ») ، الذين يسلبونهم كل شيء ويرمونهم للجوع — فهم يريدون ترقيع هذه الحالة بقذف اولئك العمال في بلاد الاحباش ليموت منهم قسم في البدن بمحاربة اهلها ، وليعيش القسم الباقي بالامتصاص من دم من يبقى من الاحباش اثناء ما يكدسون القناطير الذهبية لاسيادهم . كل هذا يجعل

الحبشة مطمئناً المستعمرين (وموسولين وفاشستية تمثلهم فيها اليوم)، ويجعل هؤلاء على استعداد لقتل كل ابن من ابنائها في سبيل الحصول عليها. هذا، والمهم في غنى الحبشة هو ليس الغنى في نفسه او الغنى لنهب وابادة يشبعان مطامع المستعمرين، بل هو في استطاعة استخدام الاحباش انفسهم له وترقية حالهم به. فان في البلاد من الموارد ما لو يعمد الاحباش الى استغلاله بالالات والتكنيك الراقى مع الطرق التعاونية الاشتراكية الحديثة، لوسع كل فرد منهم ان يعيش أرفه عيش وان يكون كل منهم في مستقبل غير بعيد سيداً قائماً بذاته، له بيته الخاص واوتومبيله وراديوه وما لا نعلمه الان من غرائب نعم المستقبل، لاعبداً لسيد اقطاعي اودودة تحت نعل الاستعماري.

٦- ان للاحباش ميزات وقابليات رائعة. ولهم ذكاء متوقد واستعداد لا ينقص عن استعداد أي شعب آخر للترقي والتحقيق، مما يجعلهم قادرين على السير في طليعة الامم الماشية الى تحررها، ويسهل لهم تقديم معونة ودفع قوين لموجب المدنية الاشتراكية الذي لا يتوقف ثانية عن السير. والدليل على قولي تجده فيما نراه خلال ظلمات تاريخ

البلاد من انبثاق أشعات متوهجة لمدينيات قوية قامت فيها . فان الحبشة قد عرفت في حدودها الشمالية مدينة النوبة ، وفي الشمال الغربي ازدهرت لها حضارة غنية عقب ايام البطالسة ، وظهر في اواسط القرن الرابع امبراطور في عاصمتها القديمة آكسوم اسمه « ايزانا » نستطيع ان نضعه في صف كبار رجال السياسة واذكيا القواد الذين عرفتهم الشعوب . وما يؤسف له أن الحروب المتتالية في الحبشة لم تبق على شيء كثير من الآثار ، اهمها معابد « لاليبا لا » الشيرة . لكن هذه المعابد كافية ، إذ أنها من الجلال والفخامة وروعة الصنعة ما يضعها في رأس قائمة عجائب اعمال الانسان البنائية في العالم . وفي الحقيقة ، اجد كثيراً من الحبشة كونه ظهر فيها قسم من ملوكها كتاباً ومغرمين بالمناظرات الفقهية والجدل النظري . فهذا محال له قيمته ودلالته التي لا تغيب عنا بالنسبة للزمان والمكان المتقهقرين اللذين وجد فيها هؤلاء الملوك ، وبالنسبة لمركزهم كأسياد في دسوت الحكم ، اذ لمن دلائل الخصوبة الكامنة في شعب ما ان نجد حتى ملوكه مولعين بالابحاث التصورية مهما كانت عليه من البلادة والعقم . وان شعباً يخرج ابا علاه المعري في شخص مفكر حر ، موهوب ، تضطهده الدولة

والكنيستان الرومانية والحبشية معاً ، واقصد به الكاتب زراى يعقوب ، كشعب يرقد فيه عدد لا يحصى من النوابع . حقاً لقد كان انقطاع الشعب الحبشي عن الاتصال الثقافي والحضاري بالعالم مانعاً عليه سبل تقدمه وانماؤه لمواهبه ، وواقعاً دون اخذه حقه واعطائه قسطه من محصول الفكر والاجتهاد البشري . غير ان منغوليا السوفياتية كانت مثلها قبل ان تخلع عنها نير قيصر الروس وتصبح جمهورية شعبية حرة ، آخذة في اظهار هبات فكرية ونتاجية واختراعية وفنية رائعة . ولذا ، فان رفع كابوس الاستعمار والتخلص من الرجعية الاقطاعية باقامة حكم شعبي لامور لا توثق صلة الحبشة بالعالم كند مع نده وحر مع أخ حر فحسب ، بل تخصب تربة الذكاء والانتاج الحبشي الثقافي ايما اخصاب ويدفعه الى اظهار البدائع والروائع خلافاً لافك المستعمرين .

٧ — مثلها ندين شرارت لامعة للعبقرية الحبشية الكامنة خلال تاريخ من الانعزال والنكبات ، كذلك ندين خلفه ان الحبشة استطاعت ان تكتسب رغماً مجموعة كبيرة من هبات الثقافة والمعرفة والتجارب التي كانت من محصول الامم الاخرى . كانت علاقة التجار بالبلاد علاقة مادية مبتذلة ،

وكانت علاقة الفاتحين نهباً وقرصنة وسيفاً بتاراً . غير ان قدراً كبيراً مما كانت تملكه الامم في هذه النواحي تسرب ، مع ذلك الى الحبشة ، فاستطاعت ان تستفيد منه حتى عبر اقبج صور تلك العلاقات . والتعليل الشامل لهذا التسرب انه حتمي الحدوث . يقع بمجرد وقوع الاحتكاك او الجيرة بين قومين . واذ كانت الامم التي اتصل اهل الحبشة باهلها ، دائماً متقدمة عليها ، بسبب ما كان لها من صلة أو ثق ببقية العالم ومدنياته ، فقد اصبح لا محيد عن اكتساب الاحباش حتى من لصوصها وفاتحيها وتجارها شيئاً مما امتازت به عليها . لا شك بان غزوات كغزوات جنكيز و تيمورلنك قضت على الشعوب التي اسهدهتها ، لان اهل هذه الفتوحات كانوا على قدم راسخة في البربرية الابتدائية بينما ان الصينيين والمسلمين الذين فاض عليهم مغول جنكيز وتيمورلنك كانوا ارقى منهم بكثير ، فكانت النتيجة ان اجهزت البربرية على التمدن ولم يستفد المستهدفون للفتح سوى الابادة . لكن احتكاك العرب باوروبا أفادها وقدمها . هذا ، ولا اقصد « بالاحتكاك » الفتح بمعنى الكلمة . واما الاستعمار ، فلا اقصده ابداً . لانه ، من جهة ، تيمورلنكي العقلية تماماً في انانيته

وغاية ودمويته وما يريد من محق الاقدام التي يجتاحها. ومن جهة اخرى يشكل الاستعمار ظاهرة قائمة بذاتها ، لامثيل لها في السابق ابدأ لكونها من مفرزات الرأسمالية التي تولدت من اقتران التطور التجاري والمالي الواسع الحديث بالثورة الصناعية التي لاتزال ولن تزال مستمرة الثورة ، ولكن التي ليس الاستعمار الا من ظاهرات الدور الاول منها فقط ، وهو دور وشك الانقضاء.

غير انه ينبغي ان يقال بان على اهل الحبشة في هذه الساعة مجابهة المواقع بكل فظاعته الرأسمالية والفاشستية . لذلك كان عليهم ان يعملوا بكل ما عندهم من جهد وحيوية ومناعة ، أثناء ما هم متعرضون له من أفكك الغزوات الاستعمارية التي تمثلها إيطاليا اليوم في بلادهم . عليهم ان يستفيدوا من احتكاكهم بها تجارب ودروس ومعارف جديدة . من أفضع عدو وأعدمه شرفاً وضميراً يجب ان تكتسب الحبشة معرفة صحيحة بمقدار ما يدعيه هذه العدو الكاذب من شرفه وضميره . يجب ان يحاربوهم بفتك كفتكه ، بنجث نجثه ، بتنظيم كتظيمه ، وان يتعلموا استعمال أحدث الآلات ووسائل المقاومة التي يستعملها ذلك المتعدي الاثيم .

كما ان قبائل الحبشة الاثول استفادوا من عرب اليمن تلقحاً بدم جديد، ومدنية أرقى، ولغة عربية ذات كتابة وقواعد، وكما ان هذا الشعب الجديد الذي خرج من ذلك الامتزاج تلقن عن التجار اليهود أصول البيع والشراء واستخراج الكنوز المخبأة، وكما انهم اقتبسوا من اهل النوبة كثيراً مما تلقاه هؤلاء عن فاتحيهم المصريين بخصوص الادارة وتدريب الجيوش وتدوين السير والاخبار، وكما عرفوا من التجار اليونانيين في آكسوم وآدوليس قواعدهم في الاعداد وكيف يطلبون الثقف الرفيع والاهتمام باعلام الناس لمستوى معيشتهم، وكما ان الصناعات السوريين والمصريين وسواهم افادوهم في ترقية استندوا قهرم للاعمال الفنية عندما ساعدوهم على نحت معابد « لا يبالا » وكما ان ترجمة السكتب - وان كانت في الاغلب سقيمة ولمؤلفين سقماء - عن القبطية والعربية، هيجت فيهم نواحي التفكير والمناقشة فيما يترجمون ويقرأون، وكما كان بوسعهم أن يتعلموا فن بناء الجسور القوية من الجنود البرتغاليين الذين ارسلوا الى بلادهم ليكونوا نواة للفتن - كما حصل لهم كل ذلك، يمكن لهم اليوم ايضاً، فيما اذ انتبهوا ونشطوا لحماية نسايتهم واطفالهم من همج الفاشست الايطاليين،

ان يكسبوا من الذين يسرون في طريق استعمارهم ما لا يريد هؤلاء ان ياخذوه عنهم . وقبل كل شيء يحسن الشعب الحبشي صنعاً فيما اذا تعلم من حقيقة مستعمره ما تنطوي عليهم جميع مظاهرهم التغريبية والارتشائية الحلوة من حقائق الاستعباد الناعم المتلاعب الذي لا يلبث ان يتلوه استعبادهم الحشن بكل مهالكه . نكرر القول دائماً بان على طليعة الاحباش المناضلة ومفكرهم واهرارهم ان يفهموا بان الشعب الحبشي بكامله ، مسلحاً بأسلحة مدنية ، متعلماً ، مستمراً في التعلم باقصى جهوده ، منشئاً لطفاله مدارس صحيحة التلقين واجبارية ومجانية ، مدركاً بان ما يعمل انما يعمل لترقية نفسه وتحريره الوطني والاجتماعي ، غير خاضع كالعوبة في يد الدول الاستعمارية ، هو اهم عناصر القوة التي تستطيع ان تحمي استقلال بلادهم وتكون اساساً لترقيتها وسعادة شعبها . عليهم (وهنا مخاطب العرب في الحقيقة اكثر من الاحباش) ان يشعروا بان تحرير المرأة وتعليمها واشتراكها في النضال مع الرجال يضاعف قوة البلاد ويشدهمتمها شداً عجيباً . ونكرر القول ايضاً بالاشارة الى ما في قلب الدول الاستعمارية نفسها من اناس يجدون في الاستعمار سبة الانسانية الكبرى والسبب

الاول لتعاسات العالم ، والى انهم يعملون ليل نهار في دك قلاعه
السوداء . اجل ، ان جميع المكافحين الثوريين ضد الاستعمار ،
المنتشرين في جميع البلدان ، من طبقات عاملة وفلاحين مظلومين
ومفكرين وقادة شعبيين مخلصين ، يمدون يدهم الى مصاحفة
الحبشة ويودون مساعدتها . وفي مقدمة الجميع اتحاد الجمهوريات
السوفياتية التي قدمت أطيب مثل في اعانتها الشعب التركي
اثناء ثورة تحريره الوطني ، وبعدها في مرحلة تقدمه الاجتماعي
الحالية ، ثم في مصاحفتها كل امة مظلومة اخرى .

بوسع الحبشة ان تقبّس وتفهم كثيراً من اصطدامها بهذه
المحنة التي لا بد منها ومن محاربتها حرباً لا رحمة فيها للتخلص
منها ، بهذه الوحشية المنظمة التي تشكل مرحلة محتومة في تطور
البشر ، والتي (كما نبين فيما يأتي) تشكل ابضاً في توصلها اليوم
بكل شدتها الى الحبشة آخر دور من ادوار الرأسمالية .
على الاحباش ان يعملوا على تحويل الميكروب الاستعماري
الى مصل يتطعمون به ضد فتكه الحوي الخبيث



الهجوم على الذهب

يلزمنا وصف قليل للبلاد التي نتخذها موضوعاً قبل المضي في الكلام عليها كهدف للهجمات في سبيل الذهب . كهدف للاستعمار . تبلغ مساحة الحبشة اليوم حوالى ٣٥٠,٠٠٠ ميلاً مربعاً ، مقسمة الى ثلاث ممالك هي : تيغراي في الشمال ، آمهرا في الوسط ، وشوا جنوباً . في كل مملكة منها أقطاعات ومناطق ومساكن قبائل . ولكل من هذه الاشياء ملك اورئيس او زعيم او رأس (لقب اقطاعي فيها) كانوا يعمهون ، كما اشرنا سابقاً ، في حالة كالحالة الحربية القبائلية ، بل كالحالة التنابذية الدائمة في اوروبا ، القائمة فيها منذ القدم حتى الان . (هذا ، مع حسابان الفارق في ان الحروب الحبشية والحروب الاوروبية تحصد من النفوس على قدر تمدنها . اذ ان حرباً واحدة وقعت في اوروبا بين سنتي ١٩١٤ و ١٩١٨ التهمت من شبابها فحسب ما يزيد على ضعفي عدد سكان الحبشة مع المقاطعات التي اقتطعتها منها انكلترا وفرنسا وايطاليا) .

معظم البلاد واقع في مثلث نجمدي يرتفع الى مستوى يقرب من ٨٠٠٠ قدماً عن البحر . هذا النجد محاط من جهاته باخاديد وعرة ، وديان حادة ، وجبال مسننة تكاد تكون في وقفاتها على انتصاب عمودي شاهق . ثم تعلو عنه جبال تلبس هاماتها قبعات ثلجية طوال العام ، فيسمو أعلاها في ارتفاعه على «مون بلان» ، ارفع قمم الالب رأساً . عند حواشي المثلث يأخذ النجد بالهبوط ، فيسقط الى الاريتريا نحو البحر الاحمر شرقاً ، والى بلاد الصومال وكينيا جنوباً ، وجهة الصحراء ومنخفضات النيل وما هنالك من القفر الناشف والاراضي الدغلية في السودان شمالاً وغرباً . هكذا نجد في الحبشة اقاليم يختلف فيها الطقس بين حمى الصحراء والمناخ الالبي البارد ، بين جو الغابات ولهات المستنقعات الاستوائية وحالة الاعتدال . وفي هذه الطبوغرافية الشاقة سبب لاقتحار الاحباش بانه رغم تعرضهم لغزوات المغيرين لم تستطع اية مملكة طول تاريخها ان تخضعها ليرها . اما عدد سكان هذه المساحة الغريبة من الارض ، فيختلف فيهم الرأي اختلافاً يتباعد كثيراً . وذلك يعود الى الجهل الذي لا يزال يحيط بكثير من امثال هذه الحقائق الاحصائية البسيطة عن الحبشة ، والى محاولة

« علماء » المستعمرين اخفائها او تشويهها ريثما يتم لاسيادهم تمكين القبضة من عنقها . ولكننا نستطيع على كل ان نقدر عدد السكان بما يتراوح بين الثمانية والعشرة ملايين .

بخصوص ثراء البلاد الطبيعي واستعدادها الانتاجي ، فحسبنا ان نعرف بانها من اخصب المناطق في افريقيا ، كما ان هذه ، رغم الوعورة والصفة الصحراوية التي تسود القسم العظيم منها ، لتحتوي قسطاً لا يقدر من الكنوز المعدنية المدفونة فيها وقابليات زراعية وصناعية هائلة . ومن يراجع خرائط الخصوبة الارضية في العالم ليجد بان الحبشة تأتي في بلدان الصف الاول . وحسبنا الان ان نعرف من اهم اشكال ثراء الحبشة الحاضرة النفقات التالية . فان فيها من المعادن : حديد ونحاس بغزارة ، ذهب ، بلاتين ، فضة ، ملح حجري ، كبريت ، ماغنيزيوم ، حجر مماتي ، رخام اسود (باسالت) صخر « التراخيت » فحم خشبي (ليجنايت) وحجارة كريمة من مختلف الالوان الخ... وفيها من الحبوب : القمح والشعير والذرة والعدس والدخن الخ... وفيها من انواع المحاصيل والغلال : القهوة ، القطن ، السكر ، الشمع ، الفلفل ، العسل (وصفت الحبشة بانها « ارض الحليب والعسل ») ، الجلود

الفرو ، العاج ، الصمغ ، النيلة ، السمن المسلي ، الشحم ، حب الهال ، المسك ، البخور (ومن هذا المر واللبان والفسوخ) الخ . . . وفيها من الفواكه والخضار (وتربة البلاد على غاية من الخصب والتنوع ، ويكفي ان نعلم ان خصوبة وادي النيل في مصر ترجع الى ما يجلبه هذا النهر من تربة الحبشة) : العنب ، البرتقال ، الليمون ، البنزهير ، التفاح ، المشمش ، الموز ، البلح ، الشمندر ، الخس ، الملفوف ، البندورة ، وهلم جراً . وفيها من الماشية : آلاف القطعان من الابقار والغنم والخيول والماعز . وفيها من الخشب أحراج غنية بكل نوع ثمين من الشجر ، اهمها شجر المطاط — وهذه الاحراج كثيفة برغم الحروب المتواصلة التي ابادت معظمها .

ثم فيها ، عدا كل هذا ، مقدار كبير من « الفحم الابيض » اي الانهار والشلالات التي تستطيع ان تولد من الكهرباء ما يكفي لنصف القارة الافريقية على الاقل . يكفي ان نعلم ان منابع الحبشة وانهارها تقدم اكثر من ثمانين في المئة من ماء النيل المصري السوداني ، واهم هذه المنابع بحيرة تسانا ونهر العطبره في شمالي الحبشة (١) .

(١) راجع ما كتبه بهذا الخصوص السرها ولد ما كيكل في كتابه - السودان

ثم نستطيع ان نكون فكرة عن اهمية هذه المياه في شرقي شمالي افريقيا من انها شكلت في عقول اهل هذه المناطق فيما مضى نظرية شعبية (فولكلور)، قد تكون من اروع الخرافات التي عرفها التاريخ . اقصد بهذا ذلك الاعتقال والتخوف من إمكان قطعها عن مجرى النيل الذي يعيش عليه ملايين من البشر ، والتحدث الساذج الدائم بهذا القطع واهواله . حتى اننا نرى ملوكاً عدة من الاحباش قد هددوا حكام مصر ، عند الاختلاف معهم، بتحويل مجاريه عنها، وان الخليفة الفاطمي المستزيد بالله لما حصل في ايامه نضوب في النهر ظن ان الاحباش قد حولوه ، فارسل يستعطف النجاشي لارجاعه الى سابق حاله !.. هذا ، والانكليز لم يهدأ لهم بال من هذه الناحية حتى نشروا سلطتهم المطلقة على المنطقة التي تحيط ببحيرة « تسانا » .

ليس مجالنا أن نستطرد في درس هذه الموارد ، ولا في درس شيء سواها من احوال البلاد الجغرافية او القبائلية او الادارية او عادات اهلها . كل موضوع من هذه يستحق القدر الكبير من الاعتناء وزائد الاهتمام ، ولسكننا الان نتركها لتتقدم الى استكمال مقدمات البحث من وجهة

استهداف الحبشة للغلبة الاستعمارية، ومن جهة استخراج الامثولات لاهلها ولنا، بل للشرق المضطهد كله، من اشكال وتطورات العراك القائم في سبيل ابتلاعها. ويكفي الان ان نشدد في التنويه الى ان تهالك القادمين الى افتتاح الحبشة، سواء بالصورة الغزوية والتجارية القديمة او بالصورة الاستعمارية الحديثة، كان دائماً طمعاً بشي من، او بكل. ما وصفنا وما لم نصف من ثراء البلاد. كان ذلك التهالك ولا يزال، هجوماً حيوانياً على الذهب. بكل كل دولة قوية توجه عينها الى أية دولة ضعيفة ومسدها مصوب الى راسها او سمها مدسوس في صحنها ليست سوى هاجمة على الذهب، لا كما تدعي بنفاق بليغ من انها رسولة تمدين. وفيما يلي من هذا الفصل وما يليه ملخص سريع بسيط لبدايات وتطورات واساليب وتفسير هذا الهجوم، بصفته متمثلاً في الاتجاه ضد الحبشة ومستهدفاً اياها.

لما كان بحثنا الاتي في الحقيقة بحثاً للهجوم الاستعماري على الذهب، فقد وجب ان نسبق الكلام بتعريف يحدد الاستعمار تحديداً تاريخياً علمياً وتحديداً آخر مقترناً بمفهومه

العام في أذهان الشعوب المستعمرة وكلاهما في الواقع تحديدان مؤتلفان يشيران الى مشكلة أصلية واحدة — مشكلة طغيان القوي على الضعيف واستعباد الغني للفقير .

أما علياً وتاريخياً فغير ما يعين الاستعمار تعيناً مضبوطاً هو ما جاء في إحدى تعاريف عدوه الأكبر لينين — في إحدى تلك التعاريف المختصرة ، المفيدة ، البديعة الدقة ، والتي امتاز بها زعيم المظلومين الخالدة قال : « الاستعمار يعني الرأسمالية الاحتكارية التي لم تبلغ نضوجها الكامل الا في القرن العشرين » . (١)

ان المظهر السياسي الاقتصادي المحدود الشكل الذي تتخذه لنفسها هذه الرأسمالية الاحتكارية هو نموها المستمر في البلاد التي تنشأ فيها وتوسعها المستمر في خارجها . ويتجلى هذا التوسع نحو الخارج في صنفين من الدول او البلدان : في البلدان الضعيفة اولا ، ثم في الدول القوية التي تكون هي ايضاً ذات رأسمالية احتكارية مائلة الى الاستعمار . مثلاً : يستهدف توسع دولة من الدول الاستعمارية بلداناً ضعيفة ، عاملاً على إرضائها وجعلها من جملة مشاريعه الاستثمارية الاحتكارية .

(١) كتاب (الثورة البروليتارية) - ص ١٩ - الطبعة الفرنسية لمكتبة

(الانسانية) عام ١٩٢٥

ثم يتنافس هذا الاستعمار مع استعمار الدول القوية الاخرى على ما يدها من الاحتكارات ومن البلدان الضعيفة. وبهذا تصبح هذه الدول القوية متنافسة ايضاً على غلبة بعضها بعضاً، على تحويل بعضها بعضاً دولاً ضعيفة راضخة لرأسمالية ولاستعمار بعضها بعضاً المباشر. ثم ان هناك مظهراً ثالثاً للاستعمار، هو التحالف بدل التنافس، وهو تحالف يقوم بين رأسماليات دوله المختلفة على الاشتراك في ابتلاع بلد من البلدان الضعيفة بسبب قوة هذا البلد وتماسكها النسبي وكبرها، كموقفها السابق من الصين مثلاً، او بسبب المصلحة المشتركة الفائضة على المصلحة المتنافسة، كموقفها من تركيا عقب الحرب العامة ومن روسيا اثر قيام ثورة العمال والفلاحين فيها.

ذلكم هو تعريف الاستعمار كما جاء للنين (وهو التعريف الصائب)، وتلكم حدود مظاهره الشكلية كما تستخرج من ذلك التعريف ومن الواقع. وهو — اي الاستعمار — في حالة نزوجه يؤلف، كما بين لنين، ظاهرة من ظواهر القرن العشرين.

غير ان هذا التوسع المعاصر من قبل الدول القوية تجاه الضعيفة وتجاه بعضها بعضاً له سوابق ترجع الى ما قبل القرن

العشرين ، كما ان للرأسمالية سوابقها من رأسمالية صناعية ومن تجارية بسيطة ، ومن اقطاعية او ملوكية مطلقة فاتحة كانت من قبل الرأسمالية البسيطة . والمعنى الذي تتخذه لفظة « الاستعمار » في أذهان اهالي « المستوطنات » الشرقية (اي في « السكولونيات » حسب التعبير الغربي ، او البلدان المستعمرة حسب المقصود السياسي الحديث) هو معنى يكاد يضم تسلط الدول على بعضها البعض في جميع قواوله من قديمة وسطية (١) ، فاتحة بسيطة ، ومن حديثة توسعية ، معقدة . ان الاستعمار بالمفهوم العامي اصبح يرادف الاستعباد والاستبداد من كل شكل ، ويعني حركة الاجنبي كيفما تحرك ومهما ظهرت عليه سيما البراءة . وبذلك يتخذ الاستعمار شكلا اضخم واكثر شمولا وأبعد في القدم من تعريفه العلمي الدقيق ، فيبت معناه بعد ذلك جامعاً لكل نوع ودرجة من انواع ودرجات تغلغل السيطرة الاوروية ، ويمتد الى أبعد من هذا القرن . يمتد الى اول محاولة يقوم بها الغرب في القرون الحديثة لمد نفوذه على الشرق ، لسلبه اراضيه وامواله واهله .

(١) الوسطية هي عندنا نسبة الى القرون الوسطى

الآن نجمع بين معنيي الاستعمار هذين لنستخلص تعريفاً شاملاً لها وجامعاً لببحثنا الذي يتناول هجوم الغرب على ذهب الحبشة منذ أوائل بوابده ، منذ كان فتحاً بسيطاً مستنداً الى توسع ملك او بابا او جماعة من التجار او وكلاء إحدى القوى الدولية ، وهو فتح كان باباً ومقدمة للتوسع الرأسمالي الحديث ، فتطور مع تطور النظام الطبقي حتى وصل اليه . وبمقتضى مزجنا بين مفهومى الاستعمار نجد التعريف المستخلص يقرر : ان الاستعمار هو الاشكال المختلفة والدرجات المتعاقبة

لتوسع الدولة القوية (وتكون في الغالب الواقع غربية) في اراضي الدولة المفككة الضعيفة (اي في الغالب شرقية) ، توسعاً سياسياً واقتصادياً يرمي الى اخضاعها او استثمارها لمصلحة الطبقات الحاكمة في الدول القوية ، من الاقطاعية حتى الطبقة التجارية . وحتى اخيراً الرأسمالية الاحتكارية .

اذن ، الاستعمار بالمفهوم الواسع هو العملية المزدوجة من نشر الدولة القوية سيطرتها الاقتصادية على مرافق الثروة والموارد في الدولة التي هي أضعف منها ، ومن تحكيم سلطتها

السياسية الديكتاتورية المباشرة او غير المباشرة في رقاب اهلها. وتعد جماهير الاهالي بنظر المستعمرين في البلاد الضعيفة من جملة مرافقها. لهذا يصبحون ، حال استتباب سلطة الدولة القوية في وطنهم ، راضخين لا رضوخاً سياسياً جبرياً فحسب، بل استثمارياً استعبادياً ، لارادة الحكام المنصوبين عليهم من قبل الدولة القوية. أما هؤلاء الحكام فيكونوا مزودين بأوامر تقول بعدم احترام أي شيء ، عدم الاقتصاد بأي قدر من الارواح ، عدم احلال أي شعور ضميري او اعتبار انساني في سبيل تنفيذ الاستعمار والاستعباد في الاهالي. وهكذا تكون النتيجة ان الدولة القوية تحكم البلاد الضعيفة من اجل استغلال اهلها وأرضها سواء بسواء ، باعتبار أن الارض والناس الذين ليسوا سوى موارد ثروات للطبقة الحاكمة في تلك الدولة ، اي الطبقة التي اقامت الدولة او استلمت جهازها لتكون منظمة وكل اليها خدمة مطاعمها الخاصة ، لا خدمة عموم شعبها كما يوهم البعض وكما يتوهم آخرون .

قديمًا كان التسلط السياسي على وجه عام يتقدم الاقتصادي، واليوم يتقدم الاقتصادي في الغالب على السياسي، ولكنهما على كل حال دائماً وابدأً يترافقان ويلحق الواحد الاخر كيفما توجه.

قديمًا كان التوسع بسيطاً ، يستند الى بيئة متأخرة ، جاهلة ، الى امداد مطالب طبقتها الحاكمة غير المتقدمة من ملوك وامراء ورجال دين ورجال حرب . كان توسعا اقرب الى الغزو ، كان فتحاً اصطدامياً مفاجئاً ، بعكس التوسع الاستعماري الحديث ، هذا التوغل المالي والنفوذ والعسكري المطرد ، هذا التغلغل التدريجي ، الدقيق ، المنظم ، التسميمي ، البارد القساوة ، الدموي الخلاوة ، المدني الوحشية .

ولقد اخذ ذلك التوسع بالتحول من شكله الغزوي الساذج الى قالبه الاستعماري المعاصر منذما ابتدأت طبقة جديدة في اوروبا بالظهور والنهوض . هي الطبقة المعروفة باسم « البورجوازية » التي خرجت الرأسمالية الاستعمارية في اوروبا واميركا واليابان منها ، والتي لا تزال الى اليوم الطبقة الحاكمة في اكثر من اربعة أخماس الارض . (١) ونستطيع ان نقول ، ونحن

(١) الرأسمالية الاحتكارية لاتحكم بلاد السوفيات البالغ سدس مساحه الكرة الارضية حيث استلم الحكم عمال البلاد وفلاحوها وعلماءهم ومفكرهم الثوريون كذلك نجدها لا تحكم اقساماً واسعة من الصين حيث يسيطر العمال والفلاحون والشعب الصيني الذين اقاموا حكومة وطنية على الطراز السوفيتي وكما وان بلاداً شرقية اخرى مثل تركيا ويران تملصان اكثر فاكث من ريقه الرأسمالية الغربية .

قريبون من الدقة ، بانه منذ أوائل القرن الخامس عشر ، عقب التراجع الصليبي وامتداد التجدد الرينسانسي ، اخذت طلائع توسع هذه الطبقة الناشئة في اوروبا نبذوا في امتداد اكتشافات وتجاري واسع . كانت تقوم به دول اوروبا الاخذة بالنهوض في بلدان الشرق الضعيفة او الاخذة بالانحلال ، ثم في القارتين الاميركيتين المتأخرتين . وفي اوائل القرن السادس عشر وصلت الطلائع الى بلاد الحبشة .



شرعت الطلائع تظهر على المسرح الحبشي مع تسرب المبشرين اليسوعيين والكبوشيين والفرنسيسكانيين وسواهم اليها . أجل ، لقد كان رجال الدين دائماً يعجون عجباً في الحبشة كحالهم في بقية العالم الخاضع لنظام الطبقات . لقد كانوا دائماً يتوافدون اليها من الاسكندرية والقدس ، لمشاركة من فيها منهم بالجدل واضاعة وقت الامة ، لسلب عقلها واثارة الفن والمذابح بينها . غير ان هذا الطراز الجديد من القسس الاوروبيين ، الذي اخذ يفد اليها ممهداً سبيل الاستعمار ، كان وبأ جديداً لم تعرف الحبشة أشد منه قتلاً وتسميماً في كل وجودها .

منذ اواسط القرن الخامس عشر بدأت عينا البابا تدوران في وقيهما وتتجهان بشراة نحو الحبشة، اذ تأمل « ملك » الكاثوليكية بانه يستطيع ازدرادها دفعة واحدة بمجرد اقناع ملكها بأصوية الايمان الروماني، وجعله بذلك يضم نفسه ونظام دولته الكنسي تحت لواء البابوية . ولقد كان وقتئذ من سذاجة ملك البلاد، واسمه زراى يعقوب، انه ظن في استطاعته ان يستعين بدولة اوروية على اعدائه في الداخل، فارسل بعثتين الى روما واخرى الى مجمع فلورنسا . ولقد جذبت هذه البعثات انتباه البابا ومن ورائه بعض دول اوروبا القوية وقتئذ الى ما في الحبشة من ذهب، فبادر الى الترحيب بها باسم المسيحية . ثم اظهر تسامحاً ملائكياً لم يكن من عادات الكنيسة، اذ اعلن لها قبوله بانضمام المسيحية الحبشية الغربية الى مسيحية روما دون ان تغير من تقاليدها وطقوسها، رغم ان شقة الخلاف بين الكشلكة ودين الاحباش كانت اوسع بكثير منها بينها وبين الارثوذكسية او البروتستانتية. كانت مسيحية الاحباش ممتزجة بشي كثير من الوثنية الافريقية واليهودية والاسلامية، وكانوا يختنون اولادهم ويعطلون السبت، يسمحون بتعدد الزوجات ويتساهلون بالطلاق

ولا يميلون الى تزيين معابدهم بالرسوم والتماثيل ، ثم يجمعون الى كل ذلك كمية كبيرة من الطقوس والمعتقدات التعويذية الوثنية المتباينة . لهذا نجد في محاولة البابا ما يسمونه « بالنعومة السياسية » ، او بالاصح التدليس على الخد قبل انزال اللطمة .

في اواخر العقد الثامن من القرن الخامس عشر ارسل حنا الثاني ، ملك البرتغال ، بعثة مؤلفة من ملاحين شهيرين ، احدهما « آفونسو ده بايغا » والاخر « بيدرو ده كوفيلهام » ، فقتل الاول في عدن ووصل الثاني الى بلاط الحبشة حيث استطاع بدهائه ان يحصل على اكرام الملك ويكتسب نفوذاً عليه . ثم استطاع ان يكون على اتصال مع ملك البرتغال ، يوافيه بالمعلومات ويقترح عليه ارسال بعثة اخرى وجوقة من المبشرين . وعلى اثر هذه الحركة ، اي في العقد الثاني من القرن السادس عشر ، تبين ظهور العوارض الاولى لتطاحن دول الاستعمار الناشئة حول الحبشة فان البرتغال كانت قد بسطت سيطرتها على شواطئ الهند وجزيرة جوا والمحيط الهندي في عام ١٥١٦ كان رجالها قد وصلوا الى امتلاك « زيلع » الواقعة شرقي الحبشة على خليج عدن ، والى احراقها بنصف سكانها .

في ذلك الوقت ايضاً كان السلطان سليم الاول قد دحر

الجيش المصري بقرب حلب . ومن هناك سار الى القاهرة . ثم ارسل قائده سنان باشا في حملة استتسحت اقساماً من بلاد العرب ، فأنشأت الحاميات على طول شواطئ البحر الاحمر وما لبست ان طردت البرتغاليين من زيلع المذكورة .

هكذا نشأ نفوذان استعماريان يتطاحنان على ابواب الحبشة ، فما عثم أن امتد تناحرهما التوسعي الى البلاد نفسها ، خلال مجار من اهل البلاد انفسهم . وهذا افطع ، ما في طبائع الاستعمار : انه يستعمل البلاد التي يستهدفها لفتح ذاتها امامه . جاءها ذلك العراك العثماني البرتغالي وهو يجلب معه وسيلتين جديدتين من وسائل التوسع وغاية جديدة من غاياته مما نقل معناه بضع خطوات من الفتح البسيط الى الاستعمار ، في قاموس الاستعباد اما الوسيلتان فكانتا : استغلال النعرة الدينية ورجالها في البلاد المقصودة من جهة (البرتغال يستعملون المسيحية والاتراك يستعملون الاسلامية) ، واستخدام البارود والبنادق والمدفعية في القتال من جهة اما الغاية الجديدة فقد ظهرت في عدة امور : ١ - قيام الدولة الفاتحة بانشاء المدن ، الاساكل ، المحطات البحرية والبرية ، المخافر المرتبة ، لا بقصد تمجيد ذكر الفاتح وتعظيم اسمه وتخليد

معاركه فقط ، كما كان المرمى الغالب على شأن الفاتحين السابقين من الاسكندر حتى تيمورلنك ، بل بقصد سحب المدخول من تسهيل التجارة للدولة الفاتحة وايجاد قواعد ثابتة للتوسع الدائم المستمر بحسب مبدأ الامير نخر الدين المعني اللبباني القائل في تلك الايام بان « السلطنة تخم منتقلة » ، أي اراضي تؤخذ لتستعمل مراكزها والقوى المكتسبة منها لاختد سواها ايضاً .

٢- في وضع طرق النهب القديم واصوله ضمن قوالب قواعد ولوائح واتفاقات وعادات مقننة بقصد الديمومة ، وذلك لاجل التوفير في الصرف والتكثير في الايراد واطهار الاغصاب في لباس من النظام .

٣- الامعان الشديد في الاستثمار والتفنن فيه . فمن استغلال موارد المناطق المحتلة وسبل التجارة المارة بها في صورة الضرائب ورسوم المرور والمكوس ، الى ترتيب القرصنة في بحارها وترتيب تسخير الاهالي بالجملة وحشد المغانم منهم ، واخيراً الى فتح ابواب البلاد الملحقة امام تجار الدولة الفاتحة بحيث تصبح المناطق المكتسبة سوقاً لهم ، محصوراً بهم اكثر ما يمكنهم الحصر .

كانت هذه الحوادث تمثل ظاهرة جديدة في الحياة الحبشية

العامه ، غريبة عن مجراها السابق العادي . فانه لأول مرة في تاريخ البلاد حدث تحارب بين قسمين من الاهالي وهم منساقون بنفوذين اجنبيين ، مغلفين بصبغتين دينيتين صليبيتى (١) الصفات . ولقد كان تقاتل الاهالي هذا عبارة عن تحارب طويل مضى فيما بينهم ، عن تذابيح مستمر عجيب الحركة في مجيئه وذهوبه الهستيرى الدموي ، ولم تعرف البلاد مثله ابدأ في حدة الفتك والتدمير . كان اكبر مثل لجانب النفوذ التركي في هذا التطاحن رجل اسمه محمد جراني ، وعرف « بالاعسر » دفعه العثمانيون و سلحوه ، فظل يصول ويحول ، ميّداً مهشماً ، حتى أحرق عاصمة آكسوم القديمة . اما الجانب الاخر ، فقد امتازت بتمثيله سلسلة طويلة جاهمة من وفود المبشرين الاوروبيين ، الذين لم يكونوا ليشيروا المسيحيين على المسلمين فحسب . بل يدفعوا المسيحيين الى التهام بعضهم بعضاً . إن هذه سيرة التوسع الاستعماري ، لا تزال تتتابع في كل بلاد يرغب أسيااد الدول انظالمه « وباباواتها » ان يضعوها تحت مكبس نعالهم . هي حالة قائمة حتى اليوم على أروع صورة في الصين والهند وسواها ، حيث ان لكل دولة

مستعمرة عصابة من رؤساء المبشرين وكبارهم تعتمد عليهم .
تجد هؤلاء يقيمون فيها تحت رايات الكتب المقدسة ، ولكن
وظائفهم هي في انهم وكلاء شركات رأسمالية ، وجواسيس
لدول نهاية ، ومثيرو قلاقل ومذابح همهم فيها ان يأكل الاهالي
المساكين بعضهم بعضاً لكي يعود اسيادهم الذين ارسلوهم
للتبشير باسماء المسيح والقديسين فيلتهمون جميع من يبقى ،
ولكي «يجبحوا» لهم من بعد اجرة مقبولة من ذهب المعدن
او ذهب التبجيل والابجاد الوهمية على ما ابدوه كمبشرين من
عبقرية الافساد . اجل ، الى الان لاتزال كل بلاد مستعمرة
تعج بجلادي الشعوب الطاهرين هؤلاء ، الذين لا يغفرون
ويستعملون الاهلين فقط بل رهطاً عظيماً من صغار القساوسة
المستثمرين هم ايضاً لتحقيق مطامع اسيادهم واسياد اسيادهم
بينما كان محمد جرائي المذكور لا يترك حجراً على حجر
ولا روحاً في جسم انسان مما ومن يلقى في طريقه : كان المبشرون
يعملون على قلب الملك كاثوليكياً ، على اقناعه بتحويل
جميع الاهالي عن معتقداتهم باستعمال السيف والنار معهم ،
والاهالي من جراء هذا غارقون في جدل واضطهاد لبعضهم
البعض من اجل اليوم الذي يروونه حقيقة باحياء عيد

الفصح فيه ! ومن نتائج كل هذا القتل والابادة ، المنبعثين عن تطاحن استعماري ، ان الاثوباء والمجاعات كانت ترقص رقصتها المقهقهة على اكوام الجثث بينما الملك ساع حثيث السعي الى تقرير رأيه بان العيد المذكور يجب ان يجري بحسب الطقس الروماني . لقد هاله المبشرون الكاثوليكيون بما اخبروه عن فظاعة قيامة الهمم وحرارة نيران جحيمه ، فعمي عن ان يرى شيئاً من هذا الجحيم في بلاده ! بل تهالك في الخضوع لاثوثك المبشرين على حساب شعبه ، واطلق العنان لولع اصبح عنده في مبادلة السفارات مع الفاتيكان . الذي لا يقبل سفارته الا كشرط وبرهان على دخول الحبشة في الطاعة ، ومع ملك البرتغال الجديد الذي بعث لعامله في « جوا » يأمره بارسال الجنود والمراكب حالاً الى الحبشة ، لاجل ان يوطدوا فيها ، ما يسميه ورثاؤه الطبيعيون اليوم « بالامن العام » ، ولاجل ان يستطيع ملك الحبشة تمجيد اسم المسيح تحت رعايتهم .

لم تات الضربة الكبرى الا ساعة جاء « الجزويت » . جاؤوا يفتحون امام اسيادهم طريقاً مذهبة سوداء الى بلاد العاج والذهب . لقد انتهت المساعي « الفسيحة » السابقة الى الفشل لعوامل لا مجال لها هنا . غير انه في اواسط القرن

السادس عشر عاد البابا (وهو الان جوليوس الثالث) ، الى التفكير بتخليص ارواح اهل الحبشة من قبضة ابليس ، فسلط عليهم رهطاً من ابالسته . لقد ذكره بالاحباش اغناطيوس لويولا ، مؤسس « جمعية يسوع » ، مظهراً له استعداد رجاله لخدمته ، مقترحاً ارسال قبضة منهم . فذهبت ارسالية منهم في قيادة برتغالي اسمه « كونسالي رودريغيز » ، تحمل الى النجاشي كلوديوس كتاباً من عاهل الفاتيكان ، وكتاباً آخر من حنا الثالث ، وهدايا مع طلب الطاعة . ثم على الاثر عين البابا للحبشة بطريركاً يدعى « نونيز باريتو » . الا ان كلوديوس كان على شيء من الذكاء فلم يقع في حبال هذه الحملة ورفض طلباتهم . لقد تسامح معهم باثارة مناقشات من الجدل والتبشير الديني ، لكنه غم كثيراً عندما علم منهم بان ملك البرتغال سيتبعهم في العام التالي ببعثة أخرى واكبر من البعثة الراهنة .

ولما جاءت البعثة لم تهدأ ثانية عن التعكير بدس أوهاهما الجديدة ، فاضطر كلوديوس الى كتابة مقالته « اعتراف الايمان » تثبيتاً للاوهام العتيقة ، الاثخف ضرراً ، الاقل تسبباً بالتعرفة . لقد سمى كلوديوس شعبه في هذه المقالة « بالقطيع » ولسكنه كان ينوي لقطيعه تذييحاً أقل مما ينوي

اسياد القطعان الاوروبية . واخيراً ، لما وجدت البعثة بانها لم تنجح في إخضاع الملك عن طريق التسلط على خياله بتعاليمها المخيفة ، رجعت بسرعة الى عادة حلیمه المعروفة ، اخذت تنظم العصابات من اتباعها فتشير بواسطتهم الفتن الدامية وفي النهاية انضمت الى هذه العصابات علناً ومنذ اول ما وصى قدمها أرض الحبشة كانت لا تني عن الالحاح على رؤسائها في اوروبا بارسال الجيوش لاختضاع الاهالي بسيطرتهم . في هذه الاثناء كان الاتراك لا يزالون يحتلون مدينة بعد اخرى على السواحل الحبشية . وقعت سوا كن يدهم ، فمضوا فاركيكو وديبارو وسواها . وعلى حاشية هذه الاحداث كانت المجاعات ووافدات الارباب والقحط والجفاف لا تزال تطبع وشمها ولا تنقطع لها زيارة .

علم الاحباش من اتصالهم بالاوروبيين ان لديهم اشياء ارقى مما عندهم ، أفيدوا اكثر ضرراً معاً . فصار ملوكهم بعد التجارب الاولى يحاولون كشف احتكاكهم باوروبا لا لاجل الحصول على إرساليات تبشيرية ، بل على عمال وعلماء وصنائعيين منتجين ممن يستطيعون الاستفادة منهم . لذلك طالب « ملك مسجد » الى فيليب الثاني ان يرسل اليه من يفهمون بصب

المدافع وصنع البارود والبندقيات وما شابه هذه اللعنات
 الأوروبية التي لا بد منها لمحاربة الاعداء . غير ان فيليب لم
 يتحف ملك سجد بهؤلاء العاملين ، بل ارسل بدلهم كمية أخرى
 من اليسوعيين ! لكن الاحباش لم يهضموا هذا التلاعب ، فقتلوا
 ممن بدأ من اولئك الاباء بالمشاغبة حال وصولهم قدراً لا بأس
 به ، وطرّدوا البقية . الا انهم كانوا كأسنان التنين الاغريقي ،
 كلما قطع من نبتها تضاعف النبت ، او « كشمبان الهيدرا » كلما
 جز لها راس خرج مكانه رأسان . عند ذلك عمد الاحباش
 الى استعمال اساليب الاوروبيين مع الاوروبيين . . .

من هذه الاساليب البراعة في اظهار أمر واضمار أمر .
 ومن ذلك ان الملك ارسل الى البابا كليمان الثامن والى فيليب
 الثالث الاسباني يعدهما بالاعتراف بالسيطرة الروحية للاول
 وبسوى ذلك مما كان يظنه ثانوياً ، ويطلب في نفس الوقت ان
 يرسلوا اليه طائفة من المبشرين شريطة ان تصحبهم ايضاً
 طائفة أخرى من الصنائعيين الماهرين ليعلموا « قطيعه » . انما
 مقابلته خبث الاوروبيين بتدليسه هذا وصل به حدّاً ربما جعله
 لا يتبين معه مبلغ الضرر الذي ينطوي عليه ، او انه كان من
 الحق بحيث يطلب التشرف بتوثيق اتصاله الشخصي معهم على

حساب شعبه . ذلك أنه تكرم فرجا ملك اسبانيا السفاكة
الاستعماري كي يبعث الى بلاده مع القافلة جنوداً ايضاً واقترح
عليه تزويج ابنه من ابنته ، ودعاه الى ايفاد ثلاث بوارج
اسبانية ليخلص واياها مرفأ مصوع من الاتراك ولتحويلها الى
مستوطنة اسبانية . قد يكون ان الملك الحبشي كان حسن النية
بعيد النظرة بحيث اعتقد باستطاعته ان يجتذب الاسبان عن
طريق هذه الاعطيات الى التصادم مع الاتراك ، فيضربهم
ببعضهم البعض ، متخلصاً منهم كلهم مرة واحدة اذ يصيب
عصفورين بحجر . الا ان شيئاً من امثال هذه الحسابات لم
يصدق ، بل جاءه بدل مجموعة طلبياته قسم منها لا غير . جاءته
مرة اخرى بصفة طرود من اليسوعيين ! قدموا وفي فكرهم ان
يؤسسوا في الحبشة اشياء شبيهة دواوين تفتيشهم الجهنمية !
كانوا يمحسون أحسن خطة تجعل البلاد تبعد وتفتح نفسها امام
اسيادهم من دون ان تكبدهم حتى مصاريف الفتح . ألا انه
ليس لملك حبشي ان يفوق جهابذة التلاعب الاوروبي ! .
ظل الحال على هذا المنوال زمناً طويلاً . وطوال هذا
الزمن كانت تجري روايات الاستعمار ، والاستعمار في ذلك
الوقت ليس بعد غير طفل وديع . كانت دول اوروبا لاهم لها

الا تشجيع كل ما ومن يعمل على نحو الاحباش من الوجود .
كان ارباب تلك الدول يسخون ببذل حق الاتجاء والايواء
للخونة من الاحباش المدفوعين منهم ويسرفون في الصرف
عليهم وفتح قصور الدعارة لهم على مثال ما اجرى السكاردينال
ريشليو مع أحد امرائهم اسمه « ساغا كريستوس » . فكان
حال اولئك المستعمرين الناشئين في ذلك حال احفادهم اليوم ،
الذين يضيفون خونة الشعوب المضطهدة ويبذلون لهم اللذات
ويمجدون اسماءهم ريثما يستعملوها في التغرير باهالي بلدانهم ،
على مثال ما تهب ايطاليا الان لقسم من الامراء العرب في
طرابلس شظايا جماجم ابناء بلادهم العرب ودماء نسائهم
واعطفالهم في كوؤس مترعة بأجود الخمر واجسام يتذوقون
بينها أطيب فنون الفسق ، وعلى امثال ما تؤدي دول الاستعمار
المتباينة جماعات الروس البيض وتحضرهم للغزوات الالية ضد
الشعوب المظلومة او الحرة المسالمة . وكان مبشرو اولئك
المستعمرين الناشئين يتوصلون احيانا الى شبه استيلاء على البلاد ،
اذ امكنهم ان يسطوا عدة مرات على عدة ملوك ، فاغروهم على
ارتكاب أغرب أنواع التعذيب ضد شعبيهم . من الأمثلة على
ذلك انهم دفعوا بملك الى ان يقطع لسان اخيه والسنة جميع من

لا يدين بالكثرة . من ثم جعلوه يرمي الناس في جرف هار من قمة عالية ليس بينها وبين الوادي السحيق من تحتها سوى الهواء وشي كالخائط ، فلا يقف المغضوب عليهم عن السقوط حتى يتلقاهم قعر الوادي . غير اننا ، نحن ابناء هذا الزمان « المتمدن » ، قد لا نشعر بالاقشعرار من ذلك ، لان الفاشست الطليان مثلاً يرمون العرب من الطيارات ولا يكاد يشعر احد بما يفعلون ! (الا من كان ذا احساس لطيف كالأمير شكيب أرسلان طبعاً !) .

لم يكتف اليسوعيون بهذا الجزء الصغير مما صورناه من اعمالهم ، بل هيجوا في يوم ما الملك سوسنيوس حتى جعلوه يطرد جميع اليهود من البلاد ، فقضوا بذلك على تجارتها لان القسم الاعظم منها كان يدهم . وعندما كانوا يصنفون مؤلفاتهم عن الحبشة ، كانوا ينهلون عليها بالاقذاع الفني يحيطونه بنسيج من التلفيق هو مثال الوقاحة ، اذ لاشييه له في الافتراء والتشويه ، مما جعل ان ينحت من اثلتهم عليهما حتى العالم والرحالة الاستعماري « جايمس بروس اوف كينارد » . وكأن همهم الوحيد كان في أن يستحشوا ، دون استراحة ، حكام « جوا » وملوك اسبانيا على القدوم بحافل تفتح البلاد مرة

واحدة مثل ذلك الفتح المريع الذي يحدثنا عنه التاريخ عندما يسرد علينا اخبار توسع اسبانيا والبرتغال في القارة الاميركية وسواها .

وقد كان من سوء اليسوعيين وبقية المبشرين ان أصبح شعب طيب كالاجباش يكرههم ويرى فيهم عنوان الموت . ارتعبوا منهم . لم يعودوا اذ يرون اليسوعي أو يتذكرونه يتصورون غير عصابات نهب وقرصان ، تنصب من خلفها وحدات جيوش برتغالية تنيد باللات نارية لم يكن لهم عهد بها . انهم خبروا شيئاً من فعل تلك الجيوش وتسرب اليهم الكثير عن طرقها الانتقامية . بل أصبح الاجباش اخيراً ، من جراء كيد المبشرين ، يكرهون حتى رؤية وجه الاجنبي الابيض . وكل هذا انتهى بهم الى تفضيل الاتراك الذين على غير دينهم على من يفنيهم باسم دينهم . لقد شعروا بان على الاتراك الف صلاة وسلام بالنسبة الى اليسوعيين . اذ ذاك اخذ الشعب في اصطیادهم صيد الفئران . وصار ملوكهم يفتشون عليهم تفتيشاً ، ويخرجونهم من البلاد خفية كلما مسكوا بهم لئلا يذهبون ضحية اعمالهم . ثم اتفقوا مع حكام مصوع وسوا كن الاتراك على اغلاق ابواب ثغورهم في وجه كل وأي مبشر يحاول دخول البلاد

بعد طرد اليسوعيين حزن اسيا د اوروبا ، ولا موهم بحجة
 اساءة التصرف السياسي . ثم ارسلوا اجناساً أخرى من
 السائمة الكهنوتية ، وكانوا في اغلب الاحيان من رهبان
 الكبوشيين . فاتفق الاحباش وحكام مصوع وسواكن أيضاً
 على هذه الهجمة الجديدة وقضوا عليها من قبل ان تقضي على
 البلاد كلها . وفي هذه الاثناء كان ارتياح اهالي الحبشة من هؤلاء
 الوافدين قد بلغ الى درجة انهم غرسوا في المدن الساحلية ، حتى
 وفي ثغر سخا اليمني ايضاً ، عيوناً تراقب كل مركب يمر بالمرافئ
 لئلا يكون من حاملات هذه الوافدة . لقد لاحظ الملك
 كذلك ضرورة الاتفاق مع قوات شرقية ضد هجمة القوات
 الغربية التي لا بد من ان يكون قد أدرك بان ما رأى منها لم يكن
 بعد سوى طلائع . فارسل السفراء يحملون الهدايا الى
 السلطان في القسطنطينية ، والمغول الكبير في الهند ، وسعى الى
 التحالف مع عاهل « آضال » (مقاطعة على البحر الاحمر)
 الذي كان قد خانته قبلاً ، ولكن الذي شعر النجاشي بانه مهما
 يكن من لؤمه فلا يبلغ عشر معشار المستعمرين البيض . هكذا
 تعلم الاحباش من هذه الدروس الاولى مبدءاً سياسياً يقول :
 « الحبشة للاحباش »

ومع هذا ، لم تقف جهود الاستعمار الناشئ محاولة
اختراق اسوار الحبشة . بل كانت الارساليات الكبوشية
تسارق اليها بمختلف الحجج ، متخفية في شتى الازياء . وكان
الفرنسيون وسواهم يتبعون خطاهم ، فلم ينقص الاحباش
الا ان يعرفوا ضروب المبشرين البروتستانتين ، الذين لم تكن
تدرناتهم قد نمت او توصل بها التضخم بعد الى حد اجتياح
الحبشة . ومن حسن ظن الحبشة ايضاً ان مختلف منظمات
الاستعمار الاكليريكي التي كانت تزورها لم تكن تشاغب على
البلاد فحسب ، بل كانت كذلك تدس وتكيد وتفي بعضها
بعضاً . ذلك ان كل فرقة منهم كانت تمثل دولة في اوروبا
تدس وتكيد وتعمل على افناء دولة الفرقة الاخرى !

في هذا الوقت اخذت عيون دول جديدة تنجه الى الحبشة .
فان حاكم المستوطنات الهولندية في الهند استطاع اختراق
السدود وارسال هدية من الاجراس العظيمة الى الملك .
وكانت تجارة البلاد قد قويت مع مصر وعن طريقها ، لان
الأتراك ما عتموا أن سدوا أبواب التجارة على شطوط البحر
الاحمر ، فاعتنم « دوماييه » ، القنصل الفرنسي في القاهرة
(وقع هذا في اواخر سني القرن السابع عشر واولائل الثامن

عشر) ، هذه الفرصة لتمهيد فتح الحبشة لمصلحة دولته . ولقد راحت هذه الدول الجديدة ، التي اخذت تحاول الظهور على المسرح الحبشي ، تستعمل كل وسيلة وحيلة لاكتساب طريقها اليه . ترسل أطباء لتطبيب الملك واهل بلاطه ، ومنجمين لينظروا في طوالعه ، ومشعوذين ليضحكوا على ذقنه ، وتجاراً مصريين يرشونه او يرشون سواه من لهم كلمة ونفوذ . ووبرفق كل هذا كانوا يرسلون نفس البضاعة العتيقة — وانما مهربة : أعني اليسوعيين والضروب الاخرى من الغربان الدينيين ، يأتون في لباس اولئك التجار والاطباء والمشعوذين والمنجمين وما شابه .

لكن هذا التفنن وهذه الالاعاب افادت كثيراً ، وذلك لثلاثة اسباب دائمة . الاول ، ان الاحباش اصبحوا يتوجسون خوفاً من كل اوروبي ، فلم يعودوا يؤخذون باحاييلهم وأرغموا ملوكهم على طردهم إن رأوهم يبدون تساهلاً تجاههم . ثانياً ، ظلت البعثات تدس وتوشي ببعضها البعض مما خفف شرها كثيراً . ثالثاً ، كان اسم البابا ، وقد اصبح يمثل في روع الاهالي صورة الشيطان بعينه ، مقروناً دائماً باسم تلك البعثات وتصرفاتها ، بل وبكل الاجانب البيض تقريباً . هذا وآخر

تجربة من هذا القبيل وقعت حوالي ١٧٥٢ ، حينما أرسل ثلاث رهبان فرنسيين ، فاختفوا فيما سعوا اليه وطوتهم الرمال ذكراً ضائعاً ومحت آثار مواطلي اقدمهم .

بينما كان المبشرون يعيشون لغايات دول الاستعمار ويخفقون كان يأتي من هذه الدول ايضاً ، كل فترة واخرى ، رجال مدنيون . وعلى العموم كان ما يلقاه المدنيون من النجاح اكثر من نصيب زملائهم عارضي الصليب ، اذ لم يكن الاحباش قد خبروا بعد كل شرهم ومبلغ دهائهم . لذلك كثيراً ما استطاعوا بذكائهم وخبثهم وعدم ادعائهم الاتصال مع الله ان يكتسبوا عطف الاهالي ونفوذاً قوياً على الملوك .

كان اولئك المدنيون إما يتوخون المغامرة اشباعاً لرغبات فردية كما يظهر في امر فرنسي اسمه «فيرميل» ، وقد جاء الحبشة في أواخر القرن السادس عشر فاكسب عطف الملك لمعرفته بمسائل الحرب والمدفوعات ، وتوصل الى تسنم قيادة جيوشه بانتصاراته ، واما لا يطلبون الا جمع المعلومات ودرس البلاد ، وإن امكن توثيق علاقة التجارة بهم ، لادراكهم بان وقت رضوخ الحبشة لوطأة نعل دولهم لم يحن بعد . من هذا النوع بعثة « دورول » الفرنسي في أوائل القرن الثامن عشر ، التي

أرسلتها فرنسا ولقيت طلائعها ترحاباً من الحبشة ، لكن فثيت قبل الوصول اليها اذكاد لها الرهبان الفرنسيكان ومات اغلب من في ركبها . ومنه ايضاً رجل بارع من كشافة الاستعمار ، رجل من الذين يعجب بهم ، اذ هو ذكي ، شجاع ، وليس كالعاديين . هو « جابمس بروس اوف كينارد » ، الانكليزي المذكور آنفاً . جاء هذا الداهية الى الحبشة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، فاستطاع وحده ، بفضل اعاجيب مزاياه الخلقية والعلمية وانسانيته ، عدى عميق حيله السلسة ، ان يوثق صداقة قوية بينه وبين بعض امراء البلاد واميراتها وبواسطة هذه الصداقة امكنه ان يستحصل على ادق وافيد مجموعة من المعلومات . فعل ذلك بهدوء ودون لغط ، فلم يحس الا وقد عاد الى بلاده وفي جعبته ما يزود دولته بكل ما يلزمها للقيام بأسهل تساط ممكن على بلاد الحبشة . لقد تغافل في اقاليم تلك البلاد المجهولة وفيما حولها من المناطق طوال خمس سنوات (١٧٦٨ — ١٧٧٣) ، ووضع حين رجوعه كتاباً في ستة اجزاء كبار ، هو غاية في القيمة العلمية وانطرافه لوقته ، وسماه اسماً يدل عليه هو : « اسفار لاكتشاف منبع النيل » .

مثل هذا الرجل ينطوي على اخطر قوة استعمارية . مثله
يجب الحسبان له كل حساب . ومثله ليس الانتاجاً طبعياً
للخبرة الاستعمارية التي كانت لانكلترة دون غيرها . هذا ،
وكما ان عهد الاستعمار في تاريخ البشرية لا ينقضي ليقوم على
انقاضه عالم الاشتراكية الكاملة الا بتحطيم الامبراطورية
البريطانية كذلك يتحقق هذا العالم الجديد بان يخدم قضيته اليوم
رجال افذاذ كبروس المذكور ، رجال لا يجب ان يظلوا
ناصبين انفسهم خدماً صغاراً لنظام اجتماعي ظالم ، لديومة
العذاب البشري .

من بعد جايمس بروس ظلت الحبشة في حالة غيبوبة
داخلية ، منقطعاً عنها نوعاً سبيل التدخل الاجنبي الناعم ، الى
ان وافت ايام محمد علي والي مصر . ومنذ تلك الايام نستطيع
ان نبدأ الكلام عن سير الاستعمار على تقرب من تشكله
الحديث في ميدان الحبشة ، عن نظامه وروحه وحججه
ومؤامراته وحملاته واغتيالاته فيها . ان هذه المظاهر التي
يتحلى بها قد تعاضمت وترقت ، وهي تتبع خطوة خطوة ذلك
النحو السريع الذي يظهر في ادوار الرأسمالية الغربية الثلاث :
التجارية ، فالصناعية ، فال مالية الواسعة . ثم ان هذه المظاهر

اليوم تزداد في الاستعمار بروزاً كلما دنا اجل تلك الراسمالية ،
 التي تتعارض توسعاتها اكثر فاكثر ، التي تنسد في وجهها
 سبل النمو ، التي تزداد فتكاً كلما هرمت وقرب اجلها ، التي
 تهجم على موتها وتحفر قبرها كلما هجمت على الذهب وحفرت
 الارضين من اجله . لقد اكتسحت الراسمالية العالم . وضعت
 الاسياد على رؤوس الاهرامات المالية . ركبت الملايين
 والملايين بعبوديتها . لم يعد امامها مكان تضرب فيه غير
 الحبشة . هي ضربتها الاخيرة — كما ستري . ثم ينسدل
 الستار على رواية الاجيال ، رواية الهجوم على الذهب ...



المستعمرون في بلاد غيرهم (١)

الان — بعد ان اطلعنا ، بصورة بسيطة ومستعجلة ، على شي* من بدايات الاستعمار كتوسع طغياني تجاه الحبشة ، على اعماله واساليبه الفتحية والاعتدائية والاندسائية السابقة — الان ، فلنمض الى متابعة سيرته وهو ينمو ويحاول اختراق الحبشة ، متخذاً لنفسه شيئاً فشيئاً الشكل والصفات في التوسع الرأسمالي الحديث الذي ادركه وحده لينين . انها لسيرة طريقة !

لم يأت اواخر القرن الماضي حتى كانت بريطانيا ، ملكة الشطرنج الاستعماري ، قد نشرت شمسها في كل مكان ،

(١) وضع مؤرخاً كومسيونجي ، سياسي حالي كان وزيراً مصرياً سابقاً هو حافظ غيفي باشا كتاباً سماه : الانكلز في بلادهم ، يقصد من ذلك الى تصنيفهم بحسب البلدان التي يسكنونها لا بحسب طبقاتهم كما يجب ان يكون التصنيف الواقعي الحالي من الغش العلمي ، اما نحن فتكلم عن المستعمرين في غير بلادهم ، الذين يتابعون في غير بلادهم عرض الفصول الاخيرة من الروايات التي يمثلونها في بلادهم نفسها ...

لا تخلو قارة غير أوروبا من مستعمرات ومستوطنات ومحميات ودوائر نفوذ وامتيازات لها فيها . بل كانت بلدان كثيرة في أوروبا أيضاً خاضعة من نواح عديدة لنفوذ بريطانيا السياسي غير المباشر والاقتصادي المباشر . إلا أن أفريقيا كانت بعد الاتزال في أغلبها قارة مقفلة في وجهها . لم تمتد فيها شعلة المدنية الاستعمارية، بريطانيا كانت أوسواها، إلى غير حواش مذرورة حولها، شطوط لم يثبت فيها القدم كل الثبوت . هذه الحواشي وما يليها من الداخل القريب كانت لا تزال تمر في الدور الذي تستهدفها الهجمات التهديدية . هجمات يقوم بها المكتشفون، المبشرون (والعياذ بالله!)، القناصل والمبعوثون، الجواسيس، التجار، الجاليات العصابات والقرصان والمغامرون والمجرمون الهاربون الذين يرقون درجات البطولة بقدر ما يقتلون من أهالي البلاد المقصودة وما ينهبون ويخلقون من المشاكل، وأخيراً الحملات العسكرية الصغيرة الأولى، يقصد منها جس النبض، أن لم يكن تأسيس الحكم . كل هذا كان يتخمر ويظهر في شغب متواصل وبثور «إخلاقية» متفجرة . كانت تفتح هنا وهناك، تختفي وتنبثق، تنتشر وتقتصر، فما كانها إلا عوارض مرض مفاجيء على غاية من الخبث والتغلغل .

في غضون هذه الفترة قام احد المبشرين الانكليز ، احد خلفاء
 اليسوعيين في كل اخلاقهم وطبائعهم الا في تفوقه النفاقي
 عليهم ، برحلة لاكتشاف مجاهل الاعماق الافريقية . هو
 قديس الاستعمار البريطاني هذا الرحالة المستر دايفد ليفينغسون
 الذي مات في سنة ١٨٣٣ ، فجعلت سيرته قدوة الصلاح تلقن للناس
 واطفانهم كأنها مثل الجمال المسيحي الاعملى . ثم على اثر
 ليفينغسون جاء افريقيا قديس ثان من مشاهير هذا الصنف ،
 كي يدرس افضل طريقة لتمدين شعوبها بتطبيق كلمة مار بولس
 الماثورة عليهم : « ايها العبيد اطيعوا اسياذكم ؟ » وهو يقصد :
 « اطيعوا حكومة جلالته البريطانية (او حكومة جلالة سواه)
 — والا محققناكم كديدان لا تنعم بهبة الروح » . ثم هذا
 الثاني هنري ستانلي ، اكتشف بحري الكونغو وصحنه ، وقص
 اخبار مخاطراته ومكتشفاته (وكثير منها قيمة ايضاً ، وانما
 غاياتها الاستثمارية غير قيمة) في كتابه « عبر القارة المظلمة » ،
 مع صدور هذا الكتاب ، بدأت الغارات الاكتساحية ، غارات
 تنوير الخلك الافريقي بحرق اهلها في « قبيلات » الرأسمالية
 الغربية المشمشعة . فبرهن القديسان ورهطهما بذلك على ان
 ما ادعوه من الرغبة في نشر مدنية صوروها كالكسر والعمل

لإسعاد الهمج ، ما كان في الحقيقة إلا خدمة مظالم قبضات
من رجال الأموال المتضخمة ، من المتحكمين بدول همجية
التمدن . وانهم — أي القديسان ورهطهما ومجديهم — ما
كانوا إلا مسخرين للإبادة والنهب الفظيع والاجاعة والتقتيل
أو مساهمين في استثمار قارة برمتها واستعباد جميع من فيها
أنها حقاً لعقيلة وحشية مغموسة بالدبس ، عقلية هؤلاء
« المتمدنين والمشتغلين بالتجارة المسيحية ! »

قال أحد المؤرخين العامين في سنة ١٩٠٦ ، وهو من النوع
الاعور بن المؤرخين : « كانت مكتشفات ستانلي ... إشارة
لبدء التنافس بين الدول الأوروبية في السباق من أجل أرض
أفريقيا (انه لا يذكر أهلها فوق أرضها ، لان له عيناً واحدة
فقط) (١) . كانت انكلترا ، فرنسا ، وألمانيا أشد المتزاحمت ،
وحصلن على حصص ضخمة . وفي المدة القصيرة التي تبلغ
خمس عشرة عاماً أصبحت أفريقيا تحكمها أوروبا . لم يبق من
بلدانها محتفظاً باستقلاله عند نهاية القرن التاسع عشر سوى
الحبشة ، مراکش وجمهورية العبدان في ليبيريا » . ثم في سنة
١٩٣٤ قال مؤرخ سياسي هو هامبدن جاكسون ، الذي يكثر

(١) الكلام التعليقي الذي يورد بين الهلالين أثناء الكلام المستشهد
به يكون للولف اما العبرة المستشهد بها فمن « التاريخ العام » ، لمايرس — ص ٧٢٧

الغمر والاعراض بعينه ولسانه ، في كتابه « الدنيا عقب الحرب » :
 « لم تنقبه امم اوروبا الصناعية ، الى قابليات القارة (الافريقية)
 كنسج لمواد خام الا في الحقبة الاخيرة من القرن التاسع عشر .
 وعند ذاك ابتدأت هجمة انتهاش افريقيا ، التي انتهت باخضاع
 كل اقليم فيها من مراكش حتى الرأس للحكم الابيض —
 باستثنائين تافهين هما ليبيريا والحبشة اللتين بقيتا مستغلتين
 بالاسم . لقد حصلت كمية كبيرة من الكلام حول عبء
 الرجل الابيض ومسؤوليته في جلب اللطف والنور الى افريقيا
 الخالكة ، لكن المحرك الواقعي كان طلب استثمار رجال افريقيا
 وموادها الخام من اجل المصالح الاوروبية . »

أما رجال السياسة فقد اظهروا ضمائرهم بقوالب قوية
 أقوى من قوالب المبشرين والمؤرخين وأقرب الى مفهوم لينين
 مع الفارق في النية وطريقة التعبير طبعاً . . . يقول المسيو
 سارو ، الوزير الفرنسي وصاحب المشاريع الاستعمارية
 الواسعة ، من تصريح له : « فرنسا (١) . . . انها يجب ان
 تطلب من مستعمراتها ومحمياتها رجالاً للجيش ، اموالاً لتخفيف
 عبء المصاريف عن ميزانيتها ، مواداً خاماً ومنتجات
 لصناعتها وتجارتها ، طعاماً ومبادلة » (١) . وقد نفذ ارباب

(١) المقصود من لفظه فرنسا ، الواردة على لسان حضرة الوزير هو طبعاً الطبقة

الصناعة والتجارة الفرنسيين جميع مقترحات وزيرهم هذه ، وكانت رعايتهم للبند الاول في القائمة عظيمة ، اذ جمعوا مليوني جندي (حسب تقارير دولتهم) من المستعمرات وقذفوا بهم في اتون الحرب الكبرى . ومن هذا القبيل ايضاً ان الحاكم العام للكونغو البلجيكي اصدر في سنة ١٩٠٦ منشوراً صرح فيه بما يلي : « انه بواسطة كسر التأثير والنفوذ اللذين يتمتع بهما الزعيم من الاهلين ، تنتهي بنا هذه السياسة الى وقوف الدولة وجهاً لوجه امام شعب قطعت كل صلته الاجتماعية ، ولم تعد له اية علاقة بالارض » . اي ان تلك الوساطة الجميلة — كما اراد الحاكم منها — تقدم كل انسان في

الرسالة الحاكمة في فرنسا لا شعبها ان امثال حضرة الوزير يستعملون اللفظة عادة بمعنيين معنى علني يخاطبون به الشعب ويوهمونه انه هو المقصود منها ومعنى ضمني واقعي تفاهم به الطبقة المالية الحاكمة وتترك منه انها هي المقصود الحقيقي بها لان الاعمال والمشاريع والمصالح المعلقة باللفظة تخص تلك الطبقة وتعود اليها لا الى الشعب الذي يريدون ان يعتقد بانها تعود اليه ليسهل اقتياده الى استعمارهم . ان هذا الاسلوب الاحتيالي « المبطن » المتناقض في التعبير « البروجوازي » ، يدل على مبلغ الاحتيال والتناقض الذي يقوم عليه نظامهم الاجتماعي البالي الكاذب المعلوم من اثر حقيقي لاي خلق شريف صريح ولاية خطه واضحه مستقيم .

المستعمرات عبداً مملوكاً لأصحاب الدولة البلجيكية . والان
هاك قرار عبقرى افصح من كل ما تقدم : اعلى المؤتمر
الاستعماري الالماني المنعقد في غضون سنة ١٩٠٢ المادة التالية
بخصوص السياسة الافريقية : « يعتقد المؤتمر الاستعماري
الالماني بان من الضروري ، وذلك في سبيل مصالح الوطن (١)
الاقتصادية، جعل الوطن مستقلاً عن الاجانب في استيراد
المواد الخام وخلق اسواق مضمونة على اكثر ما يمكن لتصرف
المصنوعات الالمانية فيها . ان المستعمرات الالمانية في المستقبل
يجب ان تقوم بهذا الدور المزدوج حتى ولو سخر الاهالي
للعمل في المنشآت العامة والمشاريع الزراعية ... » (١) .
مثل هذه التصريحات التي يسفر فيها المستعمرون عن نياتهم
الحقيقية، عن ما يضمرون من استحلال كل شي، من فصح كل
الروابط الانسانية ، من القضاء المبرم على كل شعب تناوله
يدهم الناعمة ، من عدم التربص امام ما او فكرة واحدة
من فكرات الضمير الاجتماعي او شعرة واحدة من احساس
احترام الحياة والكرامة والعمل البشري — مثلها لكثير لا
مكان هنا لجمع وعد ازيد مما تقدم منها ، او لتحليل فظاعات

(١) كل هذه الاقوال مأخوذة من كتاب « الدنيا عقب الحرب » — ص ٣٥٨

منطوياتها ومرمياتها بتفصيل وتدقيق . ألا ان روائحها تفوح بما يكفي مؤونة التحليل والتفسير! هذا ، ولكل دولة مستعمرة تصریحاتها التي تقولب فيها نواياها ومطالبها وقواعدها « النظرية » في اجراء استعمارها . للطلليان والاميركيين والهولانديين مثلاً للفرنسيين والبلجيكيين والالمان قدر غريب من هذا النباح الاستثماري المتكالب . غير ان الانكليز اكثرهم وأبرعهم جميعاً تخطيطاً لسبل استعبادهم الشعوب ، وهم على العموم أقل عواءً واكلب عضات كلبة — على حد تشبيه احدهم . إلا ان هناك مفكراً نزيهاً يجمع لك الحاصل من هذا الكلام — حاسل فتوحات المبشرين واخبار المؤرخين وخطابات السياسيين المبجلين — هو الاستاذ جوليان هكسلي البيولوجي ، ابن العلامة توماس هكسلي الكبير ، الذي جاء في مؤلفه « منظر افريقيا » ما يلي من حاصل الجمع البسيط : « في مدة اربع سنوات فقط قتل من الالهالي الافريقيين او مات منهم بالامراض بسبب حرب البيض اكثر مما كان يقع من ذلك في اربعين سنة — وربما في قرن — من حروب العبدان الابتدائية القديمة » ! فتأمل . . .

وهكذا نشاهد في هذا الايجاز المتسرع للتحرك الاستعماري

في قارة واحدة عبر نصف قرن فقط ، يمتد من ليفنغستون حتى هكسلي فصلاً واحداً فقط ايضاً من فصول الهجوم على الذهب في شكله الحديث . هي لمحة عامة من اسباب ونتائج الدخول الاستعماري الى افريقيا . واما كيف تم هذا الدخول كما تم من قبل في آسيا وسواها ، وكيف كان يتلوى الداخولون بين اراضيها واهاليها كالديدان الفاتكة ، مبرئين ، مسممين ، مشققين ، فهذا ما سنرى مثلاً عليه ونحن ندرس الطرق العلمية التي يتبعها في دخوله الى الحبشة . ان مسيرنا مع الاستعمار في الحبشة كاف لا عطاءنا فكرة بمجملته عن مسيره في كل مكان . هذا ، مع العلم بانه في مرحلته الحبشية لا يلعب غير دوره التهديدي الحلو ، الدور الذي يمثله رجل كليفنغستون اوستانلي ، واحدهما يلاعب سلسلة ساعته البراقه امام شيوخ قبائل العبدان ، او يوزع عليهم بدرأ من الخرز الملون ، مكشراً اثناء ذلك عن بسمة صفراوية لقسيس من المولعين بذكر الروح وشرب الوسي . والان اطل التأمل قليلاً :



تركنا خبر الفتوحات الحبشية في نهاية الفصل الثاني عند ذكر محمد علي . لقد جهر اليها هذا « الاثرناووطي » القاسي

الذي حملتين لبسط السيطرة العثمانية المصرية عليها ، فانكسرتا جميعاً . كانت معاكسات الدول الاوروبية الخفية من جملة اسباب فشله . اراد الحاق الحبشة بممتلكاته ذلك اللاحاق الفريد ، ذي الاساليب المركبة من روح جنكيزخانية ومن نوع الهمجية المزوقة في فتوحات الامبراطورية البريطانية ، الذي سبق واجراه على السودان . لكن الدول الاوروبية لم تبغ ما اراد ، واللقمات تهاجم عليها الذئاب !

دحرحمة محمد علي الثانية فتي حبشي شجاع من ابناء الشعب كان يدعى « كاسا » . لقد كان هذا الفتى على كثير من الاخلاق القبائنية التي تحلت باصباغ عزيزية شرسة اثناء حكمه فيما بعد ، ولكنه كان بطلاً جميلاً نبيلاً اذا ما قيس برجال الاستعمار . فانه ليس من رأسمالي انكليزي مثلاً ، او جنرال افرنسي مثلاً ، او دكتاتور الماني او ايطالي مثلاً ثالثاً ، يستطيع ان يظهر جزءاً من الشهامة الفطرية الساذجة التي تحل بها هذا الطاغية البدوي . بل ليس لاولئك السميكي الجماجم حتى نعمة ان يحلوا حلاً بمثلها من شهامة . واذا ما صدف وسمعوا بقصة « كاسا » « وطاواباتش » وهم على موائد خمارهم او موائد تقسيم العالم فيما بينهم ، لا يمكنهم ان ياتوا غير ضحكات حصانية خشنة ،

يعذب امامها صوت النهيق . اما القصة التي تخرج من صدورهم « المحسة » مثل هذه القهقهات ، فهي ان موسى باشا ابن محمد علي وقائد حملته الثانية كسر احد جيوس الحبشة ، واسر قائدها الاميرة الحساء طاووباتش ، وقد كان عمرها وقتذاك خمسة عشر عاماً ، عازماً على اضاقها الى حريمه . غير ان « كاسا » المذكور ما لبث ان ظهر بفرقه ، فدحر جيش موسى باشا وخلص الاميرة . كانت في ساعة المعركة والانذار تحت حراسة رجلين غليظين يراودانها عن نفسها بعنف محاولين الافتعال فيها ، فقلبت من بينهما واستلت من صدرها خنجراً مسموماً طعنت به نفسها . اذ ذاك ظهر كاسا منتصراً ، فرآها ، عشقها لاول مرة ، وانكب على صدرها يمتص من جرحها فيه ما يغيض في جسمها من المسموم ، مخلصاً بذلك جوهرة انسانية رائعة من الموت . وكانت له فيما بعد خير زوجة يمكن ان تكون .

في ايام كاسا هذا ابتداء الاستعمار يغرز ابره في الحبشة غرزاً جديداً . قبل ذلك ، وبعد رحلات بروس السابق الذكر ، اخذ السياح والكشافة من رجال الدين والسياسة والمشاغبة يترددون على البلاد بكثرة . كان اهمهم المطران « جوبات »

الذي جاءها في اواسط القرن الماضي ومعه جوقه من المبشرين
الالمان الذين ما لبث الاحباش حتى طردوهم ، ثم الفيكونت
فالانتيا وهنري سالت اللذين وحدا جهود الدول الاستعمارية
تحت قيادة بريطانيا . كذلك استطاعت جماعة من الفرنسيين
ان تؤسس لها ارسالية في البلاد بمساعدة احد الامراء الجهلاء
وجاء البلاد ايضاً اناس في « ما كياج » العلماء والباحثين :
منهم الماني اسمه روبل ، وبعض الفرنسيين ، وسواهم .

لكن رؤوس الخبائث كانوا المبعوثين الرسميين ، امثال
فالانتيا وسالت المذكورين ورجل اسمه « هاريس » أرسل في
سنة ١٨٤١ كسفير من قبل جلاتها البريطانية ، وانكليزي
آخر اسمه « و . شيشيلي بلودن » بقي في الحبشة خمسة اعوام
وجلب معه الى انكلترا في نهايتها تقارير وافية ، كان همه فيها
توجيه نظر اللورد بالمرستون بالحاح الى وجوب الاهتمام
بجعل الحبشة سوقاً للبضائع الانكليزية « الفبركية » . استطاع
بلون هذا ان يجعل من امراء الحبشة احزاباً متطاحنة ، فعين
لمقدرته الافادية هذه ، التي ما لبثت ان ظهرت بشكل أبرع ،
قنصلاً في مصوع ، ومن ثم في الحبشة . اما تجلي مقدرته
المشار اليها ، فقد كان في تغريه باقوى امراء البلاد وقتئذ ، هو

« الرأس علي » : للتوقيع على معاهدة تجارية ما عتمت ان استعملتها حكومة جلالتها الجاليلة لشد حملة سياسية وعسكرية على البلاد ، فظلت تفتك بها طوال اعوام وتعيد تمثيل جميع القذائع القديمة التي مرت على رأس الحبشة ، حتى انتهى الامر الى حصار ما كدالا ووقوعها في يد الانكليز . ان هذه الحملة هي الهجمة الاستعمارية الناضجة الاولى « التي خبرتها الحبشة » . انها كانت اول مذنبحة مخططة ومنظمة لاجل ترويج بضائع اصحاب المصانع وايجاد ميادين استثمارية جديدة لهم في مملكة النجاشي .

عام ١٨٥٥ اعلى كاسا العرش باسم « تيوادروس الثاني » . وحالما سمع بلودن ، القنصل البريطاني في مصوع ، بذلك ، ترك مركزه في الحال باذن من « المكتب الاجنبي » ملتحقاً بمعسكر كاسا ، حيث وجد بانه قد سبقه الى « خدمة » الملك صديق له من عمال الامبراطورية اسمه ج . ب . بل . ولم يكن بل قد سبقه في المهمة فحسب ، بل وزاد عليه بان تزوج من سيدة حبشية نبيلة ، مظهرأ كل تودد وتحبب لبلاد امرأته على نفس ما يظهر الحاج عبدالله فلي اليوم من كل اخلاص عميق لدينه الوهابي الجديد ، ومثل ما تبدي المس سلايد ايضاً من غرامها

المشعشع المحرق بتعاليم غاندي ، آخر انبياء الهند والعالم .
 في عهد تيوادروس هذا عاد المبشرون الدينيون من كل
 صنف يتقاطرون على الحبشة ، فانتشروا في كل مكان ، كانما كل
 ما وقع لهم طوال قرون لم يردعهم عن التفشي والسرقات .
 وتفسير ذلك انهم كانوا افرازا طبيعيا لحقبة التطور الرأسمالي ،
 كما كانوا افرازا طبعيا ايضا لحقبة الفتوحات الملوكية والبابوية .
 واذ كانت الحقبة الرأسمالية عهد نظام اقتصادي تاريخي ،
 وبالتالي لابد من مجيئه وسيوره ومرور البشرية فيه ، كذلك
 كانت افرازاته ضربات لا تجتنب ولا تستأصل الا مع نضوج
 التطور بموافاة الحقبة التي ترثها وتمحي آثارها . مثال تصويري
 على ذلك : ان داء الجدري لم يكن للانسان مفر منه . ولكن لما
 وصل التطور العلمي الى زمن اكتشاف فيه مصل التطعيم ضده
 عند ذلك استطاع الناس ان يتخلصوا من هذا الداء . كذلك
 المبشرون كانوا وباء وبيلا ولما يائست الوقت الذي اخترع فيه مصل
 يبيد ميكروبهم ومولده ، لان النظام الذي بفرزهم كان في
 ابان حياته ولم ينتج ضده بعد . لم يكن نظام الفوضوية الفردية
 من اقطاعية ورأسمالية ، قد توصل الى حدوده القصوى . لم
 يكن كارل ماركس وفردريخ انجلز قد نطقا بحكم التاريخ وعينا

الحدود بين اقليمه العتيق واقليمه الجديد بعد . لم يكن اينين قد جاء باكتشافه طعاماً عملياً فتاكاً يجعل النظام الفاسد بقتله فساداً حتماً ، ولم يكن اتحاد الجمهوريات السوفياتية قد ظهر بعد كنتيجة اجتماعية واجبة لكل هذا التفاعل ، كبرهان ساطع فاتن على حينونة وقت الانتقال من حقبة الى حقبة ، من حقبة مبشري وعمال الرأسماليين المفسدين الى زمن المعلمين الاشتراكيين الشعبيين المطهرين ، من الاستعمار والفتح الى تحرير الشعوب والتعاون .

وفي عهد تيودوروس صعد الى المسرح نوع جديد من المبشرين . ان تغيرات البيئة وحاجات التطور تظهر دائماً تشكيلات جديدة وفئات غريبة في اجناس الحيوان . اما هذا النوع او الفلثة الجديدة في «الانسان المستعمر» فاسمه «المبشرون المدنيون» . لقد رأت الدول كراهة الاحباش لاصحاب الطيالس السوداء والملونة من الناعقين باديانها والعاملين على بسط سيادتها ، وبان الالهيين لا يرضون ملكهم محاطاً بهذه الاسراب ، فلفقت تلك الدول هذا النوع المدني الجديد الذي لا يلبس الطيالس ، وارسلتهم ليحيطوا بالسلطان وبالشيوخ والزعماء وهم خالعون ستورهم . ان الدول الاستعمارية تتمسك

جداً بمن يستعملون الالهة في مصلحة اربابها، حتى ولو استعملوهم بدون الازياء الضرورية . خذ مثلاً على هذا التعلق الشديد بهم ما حصل مؤخراً في تركيا . فان هذه البلاد الناهضة امرت حكومتها القوية كل الرجال الدينين بعدم استعمال ملابسهم ، مما يضعف من نفوذهم كثيراً اذ ان للملابس تأثيراً لا ينكر على العقول . وعلى اثر هذا المنع امتعض غربان الاستعمار ، لانهم اصبحوا وكأنهم قد قصت جوانحهم ، فقام بعضهم يشدون على الرحيل عن البلاد التي لم يضمنهم . غير ان قسوس انكلترا واميركا وسواهما من متصني البروتستانتية وفروعها أرخوا أذيالهم اتباعاً لنص الحكمة بان « ما لا يدرك كله لا يترك جله » . اما الكاثوليك من المبشرين ، فقد احتاروا بامرهم وكان اغلب الراحلين منهم ، اذ انهم شعروا بان الضربة قضت عليهم . غير ان مستخدمتهم الكبرى ، اي فرنسا ، وسعت عقلها لدرجة ان جاءت برقيات آخر ساعة تقول : « اذاعت سفارة فرنسا على الصحف بلاغاً مؤداه ان معظم « راهبات المحبة » (!!!) ، اللاتي كن سيغادرن تركيا بسبب « قانون الملابس الدينية » ، قررن بناء على تدخلها البقاء في البلاد ، وان يخضعن للقانون المشار اليه الخ . . . » هذا المثل نضربه على تعلق الدول المستعمرة

بخدمتها كيفما كان امر لباسهم ، دينياً او مدنياً . وبعد التأمل يجد الانسان بان الاستعمار يمكن ان يجري بدون بزات كهنوتية .

وفي عهد تيوداروس اخذت كل اصناف هذه الفواتك الاستعمارية التي عددناها تتحرك كالايون والايليكثرون . تسربوا الى كل ناحية من حياة الحبشة . كانوا يتوغلون في درجات الدولة العليا ودرجات الاعمال الصغرى . حقاً كانوا يعملون وينتجون ، والعمل والانتاج اسمى ما تتوصل اليه ميزات الانسان . لكن العمل والانتاج للغاية التي كان يرمي اليها من ورائهم ، غاية قتل شعب آمن برمته ، جعلتهم وعملهم واتاجهم شيئاً ابشع من الموت وتمثالا للحقارة . كانوا يفتحون الطرق ، لكن تمهيداً لمرور جيوش الاستعمار الاتية خلفهم لاخدمة للاحباش ولا حتى لملكهم كما قد يكون في الامكان ان يتوهم . كانوا « يفبركون » السلاح ، لكن ليبيد الاحباش بعضهم بعضاً به لا ليتخلصوا من المستعمرين . كانوا يتاجرون ، لكن لمصلحة شركات اجنبية استثمارية لا لمصلحة شعب مظلوم . كانوا يعلمون ، يعلمون الكذب والخرافة المسممة بكل وقاحة ونفاق لثيم . كانوا يمثلون عنصر الفخ في كل دولة جشعة ، حتى

ان امارة دوق « سا كس - كوبرج » أرسلت له وكيلين من المبشرين المدنيين ليجمعاه له عرق ودم شعب منهوك بحجة انهما لا يجمعان له سوى الطيور الغريبة ! وكانوا ، اولئك الحمائم الثعبانية ، يتعدون عن الاهالي ويحتقرونهم . يسكنون مع عائلاتهم في مستوطنات متصرفة ، مرفهة ، تقي تكبراً وامتهاناً لا حساسات شعب يعيشون عليه بالامتصاص . انهم لا يزالون يعيشون كذلك في الشرق المستعبد جميعاً — لا في الحبشة وحدها يعيشون طفليات من الحرام ان تبقى آفة حية تنخر في اجسام الشعوب المظلومة .

وفي غضون هذا العهد ايضاً كان رجال انكلترا الكثيرون ممن على الشاكلة التي اصبحتنا نعرفها ، ومن ابرعهم المايجور « ريس » المسبوق الذكر ، مندسين هنا وهناك بين القبائل وحاشيات الامراء يمدونهم بالسلاح والاعتدة والاموال ليحاربوا بعضهم بعضاً . وفي هذا نجد ان سياسة الانكليز اختلفت عن سابقهم ، الذين ما كانوا يمدون الاحباش في غالب الامر بغير المبشرين ، دون شي آخر . كنت ترى القنصل البريطاني ، والمكتب الاجنبي في لندن ، او حكومة الهند ، او غير هذه من الهيئات والشخصيات القائمة ببث سموم الاستعمار

البريطاني، ترسل كل منها رجلا من عمالها الى ناحية من النواحي .
 هنا امير يتحرك في بطائه انكليزي لطيف ، متواضع ، حبوب .
 يخدم الامير بأمانة ويحمله على مقاتلة امير ثاب . وعند
 هذا الثاني انكليزي آخر مزدان بنفس الشئائل الحلوة ، ويخدمه
 على نفس الاسلوب . وعلى الغالب نجد ان كل فتان من اولئك
 العقارب يمثل شركة او شركات ويروج لتجارة معينة ، وقد
 يكون غيره ايضا يمثل عين الشركة ويروج ذات التجارة . فضلا
 عن سواهما . وكانت تصاحب كل هذه الاشياء امدادات
 بالاموال والتعليمات من دولة جلالها الجليلة .

وبين جوقة « المايسترو » (كلمة طليانية تعني رئيس الفرقة
 الموسيقية) البريطاني كان يعج مطباون ومزمرين ، دقاو
 دفوف وصنوج ، « فيولونشيليون » « وكنجاتيون » تابعون
 لدول اخرى ، فيدقون له ولا أنفسهم حسب جميع « نوبات »
 الاستعمار . من ذلك انه حوالي ١٨٦٠ تسبب القسم الفرنسي
 من اولئك الموسيقيين باجراء اول تدخل ايجابي وعلي من قبل
 فرنسا في شوؤن البلاد الداخلية . جعلت هذه الدولة عمالها
 ورهبانها يدفعون باحق اسمه « آجاو » الى التمرد ، ومدوه
 بالسلاح والملقنين . أعلنوه ملكاً على الحبشة ، وأعلن هو من

جانبه اعتناقه الكثيرة و صداقته لفرنسا ولامبراطورها ،
« الجتلمان » الطويل الشنات . ثم جعلوا آجاو هذا بهيم
مدينة « زولا » (هي « أدوليس » القديمة) و جزيرة « ديسي »
عند مدخل خليج آنسلي ، وغير ذلك من الجزر والاراضي
والامتيازات . كان المفتون يوجد على فرنسا مثلما يوجد
الشيخ تاج الدين الحسيني السوري عليها اليوم . ثم لم يلبث
ان استطار شر آجاو هذا ، وعظمت فنتته في البلاد .
ارسل الى نابليون الثالث بعثة تحمل اليه الهدايا ، وتطلب
منه المعونة والتحالف على اخضاع جميع الحبشة لحكمها معاً فقبل
الفرنسيون هذا الاقتراح الكريم ، ولكنهم لم يرسلوا سوى
بارجة واحدة ، وذلك لحماية الاملاك التي سلبوها باستعمال
الشيقي آجاو وجدها ، تمتنعين عن ارسال ما عداها لعدم ثبوتهم من
ان مغامرة صاحبهم رابحة في نهاية المرحلة . غير انهم بعد
ارسال البارجة اخذوا يساومونه على اراضي اخرى ، واعدينه
وايديهم على قلوبهم كعنوان على صدقهم ، بانهم سيمدون هذه
المرّة بافضل من ذي قبل ! لكن نهاية الرواية كانت في ان
الملك مسك باجاو وقتله شر قتلة ، انما ، وللأسف ! بعد ان
بلعت فرنسا غنيمتها .

هذه الرواية الفرنسية تصح ان تكون عنوان السذاجة فيما اذا قابلناها بالمهزلة الثالثة التي مثلتها بريطانيا، وهي « مايسترو » المستعمرين كما تقدم . انها لمهزلة اشبه بمأساة « عطيل » الخالدة لا تكاد تفرق عنها الا ببعض التحريف القليل . اما الادوار ، فهناك توزيعها : يقوم بدور « عطيل » الملك توادروس ، وبدور « ديدمونة » الملكة فيكتوريا ، وبدور العذول الواشي حكومة جلاتها بقرصانها العصريين . اما التحريف ، فهو في ان المسكينة ديدمونة شكسبير الحقيقية ، ديدمونة الحب والاخلاص ، راحت ضحية و كانت عفيفة بريئة من التهمة ، وهذا شيء من الحرام ان يقال عن الديدمونة الثانية ، ديدمونة السياسة الاستعمار . والان تعال نقرأ هذه الدراما الرهيبة .

امتازت مدة حكم توادروس بتقوي النفوذ الاجنبي في الحبشة . لقد كان الاستعمار يقبض اكثر فاكثر على ابوابها ومرافقها الحيوية . يلتسح البحر الاحمر مدينة بعد مدينة ، منطقة بعد منطقة . يطرد منها الاتراك ، يغلق أقفاله ويشد برغي انياره على رقاب الاهالي . وكان خديويو مصر الافذاذ يضمون اقاليم السودان واحداً اثر آخر ببذل اموال وارواح الشعب المصري ، وذلك لكي يقدموا تلك الاقاليم هدايا

سلطانية الى ممتلكات التاج البريطاني كدرر لترصيعه . كان
الاصبع البريطاني في جيوشهم يستلم ما يفتحون من الامصار
بموجب عقود المسحورة « وقصاصات من ورق » ، ثم يظل
يحشمهم على متابعة الهجوم والمذبحة ، حتى وصل بهم اخيراً الى
الحبشة ، حيث لم يدع ابناً لمحمد علي يرتاحون او يقطعون عنها
غارات العساكر التي تمشي باسمهم السامي ، منذ تلك الايام حتى
اليوم . وكان اللون الغالب على هذا المنظر الذي يخرج ملوك
مصر لحساب الامبراطورية البريطانية رمادياً احمر ، دماً ودخاناً ،
لوناً متبدلاً بين لهب وقتام ، تنمقه في جانب رؤوس مجهولة
تدحرج على رؤوس ، واكياس تنكدس على اكياس في جانب
آخر . هنا ملايين بشر يحترقون ، وهناك ملايين ليرات
« يتجمعون » ! وبين الكل تقاطيع وجوه « كركوزية » ، وجوه
ملوك وملكات واهالي بلاطات ، نهز هاماتها اليابسة طلوغاً
ونزولاً كأنها لا تريد الا ان تقول : نعم لا لا نعم ، لا نعم
نعم لا ! امام هذه « البردايات » المسرحية جرت حوادث
الرواية .

ابتدأ ذلك يوم عين الكابتين « كامرون » قنصلاً في مصوع
وجميع الحبشة من بعد بلودن المشار اليه آنفاً . جاء كامرون

الى توادروس (عطيل) ليقدم تشكرات الملكة فيكتوريا (ديدمونة) ، على ما بذله من جهود وشهادة ودرهم للاستحصال على جثة بلودن ، الذي كان قد قتله بعض المتمردين . فاستقبل النجاشي الكابتن كامرون بالتأهيل ، وتلطف معه ، ووثق به . ثم انتهت به سذاجته الى ان كشف له عن اسراره وخططه . وهذا اكبر خطأ يرتكبه عاقل نجاه نفسه ، ومسؤول تجاه شعبه . ولكن ملكاً حبشياً في القرن الماضي كزعيم بسيط ونبيل . أما داسوس انكلترا فانه كذكي خبيث .

جاء كامرون ، فوجد طوع استعماله سواعد يمنية كثيرة ممن سبق لنا تعدادهم من كشافة المستعمرين فاخذ يشغلهم في كل زاوية ، يرتب بهم خطة مخفية على ما يظهر . وظل فوق ذلك يستغل سذاجة توادروس حتى دفعه في ١٨٦٢ الى ارسال كتاب الى الملكة فيكتوريا ، يسالها فيه ان تقبل سفارة له . ولكن حكومة صاحبة الجلالة سكتت . لم تجب بهس او هسيس ، لئلا إن رفضت سؤال توادروس نصاً تفقد ما يسهل لها من اختراق وما يقدمه لها من مساعدات ، أو ان قبلت ان يكون تصرفها من قبيل اقامة عرقله صغيرة في طريقها الى ابتلاع البلاد برمتها ، اذ يكون قبولها بمثابة الاعتراف باستقلال الحبشة

وسيادتها . ان بريطانيا تحسب حساب كل صغيرة .
 في هذا الوقت كانت بريطانيا تحرك لعبة تحضيرية . تهيب
 ضربتها لتقع على رأس فريسة ضعيفة . وكيف يتهيأ لها ذلك
 الا باثارة وإدامة الفتن الداخلية في البلاد وحوّلها ، الا بانهاك
 قوى الحبشة بمنازعات متواصلة عليها بين الدول المستعمرة ،
 وبين تلك الدول وبين الحبشة ، وبين هذه وبين نفسها ، وبينها
 وبين اهالي البلدان المتاخمة الخاضعة لاستعمارها ؟ هاأنذا
 أقدم لك فيما يلي خطافات مقتطفة من هذه الشبكات التي نشرها
 الرتيلاء البريطانية حول فريستها الحبشية :

الاب ستيل ايطالي أسكن نفسه بين قبائل « البوغوس »
 منذ ١٨٥٣ كلف نفسه هذه المشقة ليعمدهم باسم الاب والابن
 والروح القدس ، لينشي بينهم الكنائس ، ليثيرهم على الفتن ،
 وليطلبوا في النهاية حماية ايطاليا ! لكن قنصل انكلترا لا يحلم
 بحماية ايطاليا ، ويحتذّب اليه قنصل فرنسا ، الذي يخالف
 احلامه آنفاً ما يراه الاب ستيل ثم يدفع القنصل الاول
 بالقنصل الثاني الى ان يلعب الدور الظاهر في اثارة القبائل
 الاسلامية على اقوام هذا الـاب . عند ذلك أمعن الطرفان
 (اقصد الاتباع من الاهالي طبعاً) في اباداة بعضهما حتى انهزم

الاب ستيلانهازم جماعته . ثم عاد القنصل البريطاني ،
الراكب القنصل الفرنسي ، الى التخلص من القبائل الاسلامية
التي كانت في يده بان جعلها تقتل زعيمها الذي كانوا يدفعون
له . ومن ثم ، بعد مقتل الزعيم ، جعلوا قومه يلتهمون بقتل
بعضهم البعض ومثل هذه الحاشية الصغيرة على الرواية الرئيسية
كانت تحصل وقتذاك في كل البلاد ، وكان الملقنون الرئيسيون
فيها دائماً وكلاء صاحبة الجلالة الامبراطورية . ألا انه ليس
من مهارة كهارتهم في غزل شباك الفتن واعداد جو المؤامرة
والاستيلاء .

حاشية اخرى — كمثل آخر على هذه الحواشي الشبكية
التحضيرية — نجدها في كون الانكليز (وهم يتحينون وقتئذ
مقتلا من « الرجل المريض » الدولة العثمانية ، ومقضباً مكيناً
من عنق مصر والسودان ، في نفس الوقت الذي يرمون الى
انهاك الحبشة بالاستيلاء عليها) كانوا يدفعون بتركيا ومصر
الى القيام بغارات متواصلة على الحبشة ، حاسبين بان الاربعة
معاً سيقعون غنيمتهم بعد انتهائهم من مصارعاتهم فيما بينهم .
وفي كلمة : كان الانكليز يلغمون اساسات المملكة الحبشية
بتأليب كل القوى والنعرات على بعضها البعض ، وبإثارة الفتن

الأهلية وبذر بذور خفية لئيمة تنبت التذابح المتقابل جرياً على ما هو معروف من امرهم حيثما يحطون رحلهم المبروك !

وعندما رأت بريطانيا، بعد الطبخ الطويل على الشكل المتقدم، بان الوقت قد جاء، عادت فذكرت نفسها بكتاب توادروس . ارسلت له جواباً وقحاً مهيناً بواسطة قنصلها «كامرون»، وأمرت هذا بان يخلي الحبشة ويرجع الى مصوع حالاً فجاء القنصل الى توادروس حزناً لورانس على مأساة العرب، يكشف له عن جواب حكومة صاحبة الجلالة، وملحاً له بان عملها لا يليق به السكوت عنه، قاصد بذلك تحريك الملك الى عمل يكون حجة بيد مستأجريه . لقد استفز بغيرته المتصنعة حده توادروس، فثارت في هذا نزوات اهتياجه الفطرية . لم يدع كامرون يفلت منه . بل سجنه مع الرسول الذي حمل الكتاب وطائفة من رجاله، بينهم كاتب (اقصد كويتياً من ناشري الاكاذيب) كان همه ان يذيع عن الحبشة وملكها قصصاً بروغنيدية مشينة تهيج الانكليز في بلادهم، على قوم مسلمين في غير بلادهم . وفي سجن هؤلاء الانفار رأت بريطانيا سنوح فرصتها . قامت في الحال بتجهيز حملة شديدة لتستغل بها دفعة واحدة حجتها فيها دفعت النجاشي اليه

من حبس رعاياها وفيما اوصلت اليه البلاد من اضطراب وخور ، عازمة على ان تثبت في قلب الحبشة قدماً لا تنزعج .
 في ٣ يناير ، ١٨٦٨ كانت الحملة معدة من قائدها السر « روبرت نابيير » ومن جيش يؤلفه ٣٢،٠٠٠ محارب ليس بينهم سوى ٤،٠٠٠ بريطاني ، وبقية من الاهالي . فتأمل !...
 اما جيش تيوادروس فقد كان ٣،٠٠٠ جندياً رديئ التسلح والتأهب للغاية ، وبضعة آلاف آخرين من رجال القبائل لا يحملون سوى الرماح ! ثم وقعت بين الطرفين معركة « آدوجي » ، التي يصف انكسار الاحباش فيها السر « بودج » المتصنع الحياء بقوله : كان هؤلاء (اي الاحباش) تحصدهم النيران البريطانية صفوفاً صفوفاً ، الا ان من لم يقض عليهم كانوا بعيدون الكر مرة بعد اخرى . ولما وافي الليل كانت فلول تيوادروس الباقية من جهود رجاله الشجعان الرائعين تتراجع بنظام حسن ، هازجين في تقهقرهم . (تاريخ ايثيوبيا — ص ٥١١ ، ٥١٢) .

أرسل « نابيير » الى تيوادروس بعد المعركة يطلب منه الاستسلام الى ادارة الملكة فيكتوريا (ديدمونة لا تنسى) !
 فاجابه هذا برسالة ولد كبير ، مؤثرة للغاية وردت فيها

هذه الحقيقة الهائلة : « لقد تغلب علي بواسطة أناس أرضخوا
 لحالة من الطاعة المنظمة ! » وبقدر ما اظهر هذا العطيل العصري ،
 شبه الهمجي بطباعه وعقليته ، من النبل تجاه الفاتحين ، ما اظهر
 رجال ديدمونة من الغدر ، من الاساليب الاستفزازية الخائنة ،
 من التامر الاستعماري حتى ان رجلهم « نايبير » لم يتأخر عن
 الاعلان لقبائل « الكالا » بانه يدفع جائزة ٥٠,٠٠٠ ريال
 لأي كان منهم يجلب له تيوادروس بذاته ، او يجلب رأسه
 كوكيل عن المسكين يثبت لديهم وجوده ! وفي ١٣ ابريل
 ١٨٦٨ كان علم بريطانيا ، مندبل ديدمونه الحزينة ، المغمس
 بالدموع المألحة ، يرفرف على « ماكدالا » ، عاصمة تيوادروس .
 وبعد أن قتل رجال الغانية اتباع « عطيل » ، في الحرب
 وخارج الحرب ، دفعوه هو ايضاً الى ان يقتل نفسه . ثم
 أحرقوا العاصمة وشردوا جميع من فيها ، بعد ان نهبوا كل ما فيها
 من كنوز واموال ، ومن آثار ارسلوا أثمنها الى متاحف إنجلترا
 وجعلوا الثانوي منها نهباً مقسماً بين رجال ديدمونه الامناء ..
 هكذا انتهت مأساة هذه المهزلة بان نحر العاشق نفسه ليقى
 لعذاله ورجال معشوقته مجال تمثيل روايات اخرى كهذه مع
 « عطيلين » آخرين ! .. وفي هذا تختلف « درامة التاريخ

كثيراً عن مسرحية الشاعر .

لاول مرة في تاريخ الحبشة استطاع جيش اجنبي اخضاعها في عقر دارها . غير ان الاحباش ما لبثوا بمقاومتهم وروحهم الاستقلالية القوية ان اجبروا الانكليز على الرجوع من حيث جاؤا ، وبذلك عاد الاخيريون الى اعداد العدة لاجراج روايات شكسبيرية رائعة أخرى . لقد اخطأهم حدسهم بنضوج الوقت لضرب ضربتهم ، فعليهم اذن ان يحضروا ضربة ثانية . والان انظر كيف فعلوا ذلك :

بعد تيوادروس قام في الحبشة ثلاثة زعماء أقوياء ، أحدهم اسمه « كاسا » والثاني « كوباز » ، والثالث « منيليك » ملك « شوا » الذي اصبح فيما بعد منيليك الثاني الشهير . وفي وجود هؤلاء الثلاثة كان للانكليز مجالهم الاول للعب . لقد جذب انتباههم الاولان اكثر مما جذبه منيليك ، الذي كان يشعر بخرج موقف بلاده باستفحال تدخل حكومة صاحبة الجلالة في امورها وازدياد نفوذ الاستعمار الاجنبي عموماً يوماً عن يوم ، والذي أظهر براعة سياسية في عدم الاكثار من التظاهر بقوته وفي تربعه ساكناً لاصطياد الفرصة السانحة .

اما رجال انكلترا ، فقد توجهوا نحو الاثولين ، وسلاحوا كلا
 منهما ، ومدوا كلا منهما بمستشاريهم ، ودفعاهم الى ساحة النزال
 ليقطع كل منهما رأس زميله هدية لديمومة الاستعمار .
 اما مجاهلهم الثاني ، فكان في مصر والسودان . كانوا يستعملون
 السودان ضد مصر والحبشة ، وضد نفسها في وقت واحد .
 لقد خلقوا ، هم لاسواهم ، حركة المهدي وما تبعها من حروب
 الدراويش الشهيرة ، ووسعوها جميعاً حتى شملت كل المناطق
 الافريقية الشمالية الشرقية ، فكانت تلك الحركة والحروب وما
 تسحب الى دوامتها الفاتكة من ملايين بشر وشتى أقاليم كحجري
 رحي عظيمة ، تطحنان مصر والسودان والحبشة الى دقيق
 نفيس تخبزه انكلترا لاسيادها مطبياً بطحن من جماجم ابنائها .
 في هذا المجال جعلوا مصر تقوم بحملة لفتح الحبشة من
 الشمال تحت قيادة رجل من عمالهم اسمه « مونزينجر باشا » .
 احتلت الحملة « كيرين » عاصمة « البوغوس » ، لكن فجأة
 خرجت عليها من شوأ ، مقاطعة مينليك ، هجمة دحرتها وقتلت
 قائدها . في نفس الوقت كان الخديوي اسماعيل ، الذي اخرجه
 الانكليز من قبضة الاتراك الاسمية الى قبضتهم الفعلية ، قد
 استعمل نفوذ خديويته على الشعب المصري بارسال حملة أخرى

الى هررت تحت قيادة رؤوف باشا . نخلع هذا حاكمها وشنقه
 وضم المقاطعة الى الاملاك المصرية التي هي في الحقيقة وفي
 المستقبل الذي يراه لها الانكليز املاك بريطانية . ولما سمع
 اسماعيل بانكسار « مونزينجر » ارسل الانكليز عن يد الاول
 جيشاً آخر الى « مصوع » ، بقيادة « آهر ندروب باشا » .
 فاحتلت « كودا » في مقاطعة تيغراي ، وتابعت المسير نحو
 « آدوى » (عدوى) ، حيث خرج عليها الاحباش من
 كائن مخفية وعلى راسهم كلسا (وقد اصبح ملكهم تحت اسم
 حنا الرابع) ، فابادوهم تقريباً عن بكرة ابيهم .

ثم مرة أخرى يدفع الانكليز باسمايل ، فيسير حملة رابعة
 كبيرة تبلغ العشرين الفاً تحت قيادة ابنه الاسمية وقيادة
 الكولونيل « لورينغ » الفعلية وقد قوى الانكليز عصب هذه
 الحملة بشرائهم احد امراء البلاد ، هو « والدا ميشايل » ، تحت
 اسم حليف للمصريين . لكن هذه المرة ايضاً انقض حنا عليها ،
 وقطعها ارباً واسر قوادها ، من الجملة ابن الخديوي . ثم طلب
 الملك حنا فدية عنهم تبلغ ٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠ ريال ، فجمعها له
 اسماعيل وأداها عن يد صاغراً . لكن من أين جمع هذا المبلغ
 الهائل ؟ هنا النكتة ، نكتة عذال ديدمونة ! طبعاً استحصل

على قسم من نهب الشعب المصري واحتلابه اياه كل فلس يصل يد الجاني ، بحيث اوصل هذا الشعب التاعس الى الحد الاخير من انحلال « الحيل » ولكنه اذ لم يستطع حتى بذلك سد مبلغ خمس وعشرين مليون ، خصوصاً بعد الذي امتصته الحروب الاستعمارية المتواصلة من دم شعبه وامواله ، تقدم منه الانكليز بسيماء نبل وجود وعرضوا عليه تقديم البقية . فاضيفت بذلك ديونهم عنده على ديون ليعودوا بعد بضعة اعوام الى احتلال مصر بحجتها ، بحجة ان اسماعيل لم يستطع ان يفيا . فتأمل كيف يخرجون من تخريب جملة الهنأة البشرية بمخصص شيلوخ المرابي ! تأمل ، انهادروس بليغة نصرف وقتنا عليها ايها الرفيق الشرقي العزيز ، ايها الحبشي والعربي والهندي والمصري ، لكي تتعلم من طرق حكومة اصحاب الجلالة كيف يتقى شرها ، كيف تكسر الايدي المحزنة مرة واحدة ، كيف يتحرر العالم قاطبة من اصفادها اللؤلؤية ، من زرينخها العذب الطعم .

نعود الى اسماعيل ، فانه بعد ان باع بلادته وبلاد غيره برقاعة وقلة عقل سيد اقطاعي ، عاد يعان على شعبه بان نتيجة حروبه كانت مصالحة شعرية ، إذ أهده الاحباش مقاطعة « البوغوس » لقاء هدية سنوية يقدمها هولهم ، ولا تبلغ هذه

الهدية على زعمه أكثر من القدر الضئيل جداً الذي هو ثمانية آلاف ريال .

وفي هذا المجال مجال إثارة الحروب بين الجيران من الشعوب ، لعب قديس من قديسي بريطانيا ، حول رأسه عشرون هالة روحية بخارية ، دوراً فعالاً عبقرياً . هو قديس كان من سلواته ان يكثر من شرب الويسكي وان يقبر اهل افريقيا امواتاً وأحياء بالالوف عندما لا ينفذون له رغباته . وذلك يفعله تحت ستار تحرير العبيد او عبادة الله . هذا الولي الصالح هو الشهير باسم « الجنرال غوردون باشا » ، الذي نصبه البريطانيون حاكماً عاماً على السودان باسم مصر . الذي يلقبه الاستعمار البريطاني « شهيداً » ، ولكن الذي اتى نصيبه عندما قتله اهل السودان جزاء ونقمة . لقد كان هذا الانسان روح القلاقل السودانية المهدوية . كان روح التناحر القبائلي المستديم ذلك الوقت في شمالي الحبشة ، وكان — اسكي تكمل المهزلة ، والجمال في الكمال — واسطة عقد الصلح بين اسماعيل وحنان ! لقد لبست حكومة صاحبة الجلالة بواسطته فستان رسول سلام ملائكي ! ..

في هذا المجال ايضاً لم يتم للانكليز الا قسم من برنامجهم ،

وان كانوا قد توصلوا الى انهاك الحبشة . غير انهم كانوا قد تعلموا شيئاً جديداً . ذلك ان منيليك اخذ يجذب نحوه انظار عيون الشعبان المغروسة في رؤوسهم . ولما جذب تلك الانظار تحولوا اليه . فكان اول ما فعلوه انهم نفخوا زرينخهم بينه وبين امرأته ذاتها ، فتوجهت الى اثاره الفتنة عليه ، ثم تقدموا من حنا ودفعوه الى استغلال اعمال امرأة زميله ، الى التناحر معه بعد اذ خلى الميدان من « كوباز » . ولم يستعمل الانكليز حنا ضد منيليك فحسب ، بل كانوا في طوال الحروب مع مصر يستخدمونه ضدها كما يستخدمونها ضده . فتأمل وتأمل . ولولا ان ظهر منيليك كقوة يحسب لها حساب ، لما كان حنا بقي على عرشه طويلا . لكن الانكليز رأوا فيه آلة لاتزال تستعمل . غير ان حنا ومنيليك فهما اخيراً بأن مصلحتهما في التحالف ، فتحالفا ، وزوجت ابنة الثاني بأبن الاول .

اما مجال الانكليز الثالث ، فكان في لعبتهم مع دول الاستعمار الاخرى . كانت هذه الدول قد شد في جذب انتباهها الى الحبشة قيام الانكليز بحملتهم الفجائية على « ما كدالا » ، فاخذت تلك الدول منذ هذا الوقت تعمل باندفاع مستزيد على التعارك في سبيل امتلاك ما بقي من مرافئ البحر الاحمر المصرية

التركية امتلاكاً نهائياً ، وعلى التغلغل أكثر فأكثر في الحبشة ، وعلى الاحاطة بالاراضي الافريقية المتباينة التي افتتحتها اكتشافات ايفينغستون وستانلي جنوبي السودان وغربها . وفي عام ١٨٨٥ كانت جميع السلطات الاوروبية الكبرى قد وقعت على عهدة برلين الاستعمارية التي عقدت — حسب ما جاء في عبارتها الملفقة — « بشأن إنماء التجارة والمدنية في افريقيا ... » ومن الحملة على « ما كدالا » وظهور الدول الاخرى في هذا الشكل من الطموح الاستعماري رأت حكومة الجلالة البريطانية انها تجاه امرين واقعين : الاول ان الحبشة صعبة المنال عليها وحدها ، والثاني ان رأسمالي بقية الدول ان يتركوا مائدة الاطايب الافريقية لرأسماليها وحدهم . وهنا ايضا تبدو عبقريتها الاستعمارية في التوفيق بين هذين الامرين الواقعين . هذا هو مجاها الثالث ، تتكلم عليه في الفصل التالي .

لكن قبل ان نودع هذا الفصل اود ان اقدم صورة حية مصغرة لنتائج هذه البهلوانيات الانكليزية . لقد علمنا من هكسلي ما فعله الاستعمار بافريقيا في اربع سنوات الحرب ، بما يعادل ما كان يقع قبلا من اجتياح الحروب والاباء الاقليمية لاهلها في مدة قرن — اي ان ضربة الاستعمار على المجتمع

الذي يسمى « همجي » تساوي خمسة وعشرين ضعفاً من جميع مصائب الحياة التي تصيب اهله وهم على حالتهم الهمجية ، غير متمتعين بنعم المدنية الاستعمارية . لكن هاك الان تلك الصورة الصغيرة لتحس بانك ترى قطعة من التفاصيل المخبأة في مصائب الاستعمار هذه ، في تصرفات المستعمرين ببلاد غيرهم :

يروى كاتب انكليزي من الكتاب الفوق الاستعماريين ، من الذين يكاد الانسان الطيب القلب لا يشك بانه قد تكون لهم اذنان لشدة انضمامهم على جميع الصفات الارتجاعية — أجل ، يروي حتى احد هؤلاء ، هو السر هارولد ماكميكل في مؤلفه الصفراوي : « السودان الانكليزي المصري » ، الحادثة التالية : « انفجرت بجماعة مربعة في سنة ١٨٨٩ ، وظلت تصكتسح ، فيموت الوف من الجوع والمرض ... وفي ١٩٠٦ ، على الطريق بين عبيد ونهود ، التقى الكاتب برجل معمر كان يبدو منه كأن قسماً من راسه مفقود . وعند الاستفهام منه اخبر بانه في غضون تلك المدة كان يسافر وطفله في « كوردفان » عندما مسك به رهط من الجياع . ثم اضرموا ناراً وربطوه الى شجرة قريبة بينما كانوا يطبخون ابنه وياكلونه . اما الاب

فانهم عفوا عنه (لانهم شعبوا) ، وراحوا في سبيلهم تاركينه ،
وراسه منغرس بين الجمرات المتفحمة (١) .

هذا حاصل جزئي ، ايها القارى العزيز ، حاصل لا يكاد
يبين من الصغر ، لاعمال وتايج نيات القديسين من امثال
ليفينغستون وغوردن . وكما ان المبشرين الاستعماريين هم افراز
طبيعي للجمع الرسمالي ، كذلك فان مثل هذه الحوادث
« التافهة » لتكون افرازا طبيعيا لوجودهم . غير ان كل هذا
لا قيمة له عندهم ومن ارسلوهم للتبشير . ليس كله الاحداث
صغيرة مبتذلة بالنسبة لرواية عاطفية رائعة كتلك التي من
ابطالها ديدمونة الانكليز وعطيل الحبشة .

والتاريخ والعلم ، كما يسطرهما كتاب الدواوين والوكالات ،
لا يابهان البتة ولا يريان غرابة في ان يأكل الناس بعضهم البعض
انهما في رأي هؤلاء الاكارم مجموعات روايات مسلية واخبار
مزينة عن الامبراطرة والملوك والشركات واذكيا الدرهم . عن
مختلف العاهم والعاب اذناهم ، عن حسابات ارباحهم وارباح
ارباحهم ، مع قليل من الحواشي الضئيلة السوداء تدب متسربة
تحت السطور وضمنها ، لتقص قصة عن « توافه الناس » .

تاريخهم ، مثلاً ، يهتم بتنويرنا عن « الانكليز في بلادهم » ، اي عن الحياة كما يعيشها ويراهالوردانهم ومدراء مشاريعهم ، وعلمهم يجمعهم حول ما يراه السائح من مناظر أكل البشر . فيا نرى ، اذا كانوا غير موفقين الى تصوير المستعمرين في بلادهم ، ولاهم يحزنون لما آتيهم في غير بلادهم ، هل اذن يجب على التاريخ ان يهتم والعلم ان يحزن ؟ وبالتالي ، لماذا نبالي كثيراً اذا رأينا الرؤوس المشوية على الطريق التي داستها ارجل جيوش الفاتحين ؟ بل لتقتني ارجلنا آثارهم ونحن نجوب مفتشين عن ذهب المقتولين .

لكن كفى ايها القلم ! كفى تهكماً والمشهد يمثل الموت عارياً . يمثل بريطانيا — وهي في رأس قائمة اخواتها المستعمرات — حكماً من احكام الشقاء البشري . ويمثلها بعد كل حساب جميلة طاهرة ايضاً . يصورها ويعلقها رسماً في « جمعية الشبان المسيحية » في القدس (١) ، فتتخذ لها جسم ملكة شابة ، حلوة ، تقدم التوراة والمسيحية لعبد مظالم الهامة . لقد قتل رجالها ذلك

(١) إشارة الى رسم فتوغرافي باهت معلق في غرفة ذكرى مؤسس « جمعية الشبان المسيحية » ، ببنائة الجمعية المذكورة في القدس . والرسم يمثل النجاشي توادروس ساجداً امام الملكة فيكتوريا ليسألها : « كيف انتصرت على ؟ » فتقدم له نسخة من التوراة وتجييب : « انتصرت لانني مسيحية ! ... »

العبد قبل ان يرسموه ذليلاً . استعبدوا بلاده وكل بلاد من حولها . واما المسيحية ، فيصح له على همجيته ان يكون معلماً لها فيها . قف يا قلم ! هل عندك من التهم ما يفوق بلاغة الواقع؟ .



الكاثالايزر

يسخر السر هارولد ما كيكل ، « الداعية » الاستعماري السابق الذكر ، من موقف الحكومة المصرية وتلكوتها في سحب الجنود الذين يحملون اسمها من السودان عقب مقتل السردار لي ستاك . ووجه تهكمه انه يشبه تلك الحكومة بشي يسمى في الكيمياء « بكاثالايزر » (صفحة ١٦٠ من « السودان الانكليزي المصري ») . اما هذه المادة ، فهي ، كما اورد ما كيكل عن استاذ اسمه « جريجوري » : فاعل كيمياوي يولد رد فعل وهيجان بين مركبات المزيج الواحد بينما هو نفسه لا يتأثر مما يحدثه ويبقى كالشاهد المحايد الذي لا يقوم بأي دور مباشر في العملية !

نعم سيدي ! لقد اراد المتحذلق الاستعماري ، القصير النظر على براعته ، ان يظهر توافقاً بين هذه المادة ، التي اكاد اعتقد بانها ليست الا من عنصر السياسة البريطانية ، وبين العوبة مسرحية كالحكومة المصرية . غير ان « الحقيقة » تريد ان يكون التشبيه موافقاً لاحوال واعمال جلالة الحكومة البريطانية

التي تمتطي حضراته لخدمة اسيادها على حساب من يدفعونهم الى اكل بعضهم البعض . اجل ، ان بريطانيا العظمى هي « الكاتالايزر » البشري بعينه . تندس بين الشعوب وتحركها على بعضها البعض . ثم تبقى وهي ضمن العملية ، وهي سببها ورأس كل التشويش ، متخذة وضع الشاهد البري وسيام المحسن الحزين . هذه هي براعتها الكبرى !

وبراعتها التالية هي في انها تنهم غيرها بما فيها لتوجه النظر عنها ، لتلصق عارها بسواها ، كالفاجرة التي تنهم رفيقاتها بقبائحها . غير ان جميع كتاب الامبراطورية وعمالها وفجارها من امثال صاحبنا ما كميكل ، من ذوي الالسنه المتهكمة ، المحمضة ، الملفقة ، المداورة ، لا يستطيعون مهما صمتوا عن اشياء او ثرثروا حول اشياء ان يخفوا اما لا يقبل الخفاء . بل انهم ينهوننا اكثر مما كنا منتبهين الى عيوب وعاهات الامبراطورية التي يطلونها بدهانهم اللامع . وبالتالي نفهم جيداً بان « الكاتالايزر » الاكبر هو تلك الامبراطورية . وهذا دليل يورده التاريخ على صدق قول زهير الحكيم :

ومهما يكن عند امرى من نقيصة وإن خالها تخفى على الناس تعلم !..
في جميع حوادث العالم السياسية والاسعمارية يلعب الاصبع

البريطاني الصغير ، الطاهر ، اللدن ، لعبته « الحياذية » . والان
اذ ندرس حركته في الحبشة ، نرى ان امره عجب عجاب ،
وخطر يزيد على ما يمكن ان يكون لعشر ديكتاتوريين
كموسوليني من مخالف وحناجر مصوطة وانياب . ألم نر ما فعل
في مجاله الاول بين اهالي البلاد الواحدة ، ثم ما فعله في مجاله
الثاني بين شعوب الاقاليم الواحدة ؟ ألم نره رهو محايد ، مصلح ،
وسيط متبرع ، مندساً كالذئب من دون صوت لوطه اظلافه ،
ويخلق من الفتن والفساد والمشاكل والتعس ما يبعث الانسان
العاقل الى اطالة التفكير في كيف السبيل الى التخلص من هذه
الداهية الدهياء ، المسلطة كسيف من نار فوق رأس البشر .
أليست انكثرا ، هذا الكاتالايزر البري المسكين ، هي اليوم
العقبة الكأداء في سبيل تقدم البشر وتمدّنهم ، سلامهم وراحتهم
المشتركة ، بما تتقنه وتغوص فيه من فعالية التفريق ، التهيج ،
العرقلة ، استعمال البعض ضد البعض ، وسيادة الجميع واستثمارهم بعد
ذلك باسم التقدم والتدّن والسلام وما شابه ؟ بلى ، ان
بريطانيا الرأسمالية لكذلك في الامس واليوم ، وفيما يلي من
الصفحات سنتعرض الى شي من فعالية هذه « المادة » البشرية
المؤذية في مجال ثالث لها كان ولا يزال يدور حول الحبشة ،

كما كان ولا يزال منتشرًا في كل مكان يوجد فيه رجل واحد أو وكيل واحد من جمعية مستعمرها .

هذا المجال الثالث في بحثنا الحبشي يؤلفه المزيج الكبير المتباين من أهالي الحبشة وشعوب إفريقيا الشرقية ودول أوروبا المستعمرة جميعاً . لقد كانت الحبشة تعيش فيه منذ نصف قرن كما لا تزال تعيش فيه اليوم . كان الخطر الأول على وجودها كما أنه أساس مشكلتها الحاضرة مع إيطاليا الفاشستية هذه المشكلة التي تهدد العالم بكارثة مروعة لاحاجة لأحد بها إلا أسياد المال المستعمرين ، والتي لم يكن النظام الرأسمالي ومديروه رجال الاستعمار الانكليزي الكاتالانيزريون ، ودكتاتوريوه وملوكه وامراؤه ومجالسه السخيفة في جميع قارات الأرض ، موجودين لما كانت بالتالي هي المشكلة التاعسة موجودة . والان ، لنروي سيرة الكاتالانز واصحابه في اوسع مجالاته هذا ، الذي يشمل ممثلين واتجاهات وقوى من كل صنف حاصل في نطاق الحقبة الاستعمارية في عصرنا الحديث .



لما رأت بريطانيا — وهي المساهم الأكبر والمدير المدبر

لجوة نظام الاستعمار — لما رأت (وهذا حوالي ١٨٨٥ — ١٩٠٠) من اختباراتها في حملتها على « ما كدالا » صعوبة فتح الحبشة عليها وحدها من جهة ، ثم لما شعرت من جهة ثانية بان ثورة اتباع المهدي ودراويش السودان التي كانت تستثمرها غدت أضخم مما يعجبها فاحتاجت في هذه الناحية الى معظم جهودها لتخرج بغنيمتها ، ولما وجدت من جهة ثالثة ان دول الاستعمار الاخرى فتحت عيونها واخذت تلحق بها الى الحبشة وتهافت وتهاجم على بقية الاراضي الافريقية لتؤمن لانفسها حصصاً منها ، سارعت الى التسوية بين هذه الحالات والتناقضات ، مكثفة بان تظفر بحصة الاسد طالما ان ابتلاع الكل يستحيل حصوله . ثم انها كانت ، فوق كل ما تقدم ، قد علقّت او اصطدمت بعقبات ومشاكل في معظم انحاء قارات العالم القديم من جراء توسعها السريع ، اهمها كمثال حادثة « بنجدة » التي وقعت بينها وبين الامبراطورية الروسية في معرض نزاعها على افغانستان ، والتي كانت تهدد باندلاع حرب اخرى بينهما .

على ذلك أمسكت بريطانيا بكل قوتها وحيلها الاراضي التي استطاعت أن تركز فيها قدمها : مصر ، السودان ،

الصومال الخ... وغضت الطرف عن سواها برهة . وقد كانت هذه الاراضي أيسر حصولاً عليها من الحبشة وأقل تكليفاً لاستثمار رأسماليها . أما ما بقي ، فقد كان صعباً وموحشاً ، متماسكاً نوعاً ويحتاج تمهيداً مضميناً ، ومن هذا الذي بقي كانت الحبشة . فما عاد لبريطانيا إلا ان تخاطب الدول الهاجة (وقلها يتفطر حزناً ويلغي تصرفات لسانها) بما يقال في المعنى التالي : « دونكم ودونها من لقمة سائغة ، فافعلوا ما تشاؤون وتشاء » المروءة ، « الاحسان » ، و « المدنية » ! وهذه الالفاظ ، كما تذكر ، هي دائماً بهار الكلام عند جماعتنا . هي السكر الذي يمزجون به شربة ملحم لتخفيف حدة طعمه ! يكون كل منهم ناوياً اغتيال صاحبه اثناء ما يتخاطبون بقولهم : لولانا لما سادت الارض المحبة !... »

كانت بداية أو نتيجة ذلك الاتجاه السياسي الحادث في طريق بريطانيا « عهدة برلين » التي سبق ذكرها في الفصل الماضي . ثم تبعها طلق رشاشي من ملفات المعاهدات ، الاتفاقات ، البروتوكولات ، المراسلات ، ومعها طبعاً طلق مقابل لها من المنازعات والاختلافات حول الاتفاقات وتفسير الاتفاقات . الا ان انكثرتا كانت دائماً تحاول الابتلاع

بالمهادنة في هذا الوقت ، وتساهم على ما لم تمتلك من الاراضي كالصياد الماهر الذي يصيد الشارين لبيعهم السمك في بحره !
والنكتة ان كثيرين كانوا يشترون منها !..

في يوليو ١٨٩٠ انتهت شبكة المناورات والمصارعات بين المانيا وانكلترا على الاراضي شرق افريقيا بتراض واتفاق على تحديد مناطق النفوذ وتقسيم السلائب . كان من جملة مكتسبات الاخيرة منطقة « اوجاندا » التي بادرت « الشركة الامبراطورية البريطانية للشرق الافريقي » في الحال الى استلامها ، والدولة وكيلة الشركات كما لا يخفك . ثم ان اتفاقات كهذا ، وفي مثل نتائجه ، عقدت بينها وبين بلجيكا ، وبينها وبين فرنسا بخصوص الاراضي الواقعة حوالي الحبشة جنوباً ، جهة منابع النيل الابيض ، وغيرها مما هو نواح اخرى من افريقيا . وكنتيجة لتراشق لطيف ، قام في ذلك الزمان بين انكلترا وفرنسا . استطاعت الاخيرة ان تضيف ، برضى الاولى ، الى ممتلكاتها الصغيرة التي اخذتها من المرحوم « آجاو » وسواها مما على الساحل قبالة عدن ، عدة جزر اخرى وقطع اراضي حبشية انتهت بان دخلها ثغر جيبوتي وتلاحمت تحت اسم « الصومال الفرنسي » . ولما جاءت نهاية القرن الماضي كانت انكلترا قد استطاعت

توجيهه فرنسا من مزاحمتها لها في مناطق النيلين الى القيام بمغامرات طفيفة جهة ساحل البحر على حساب الحبشة . بيد ان ذلك الكرم من بريطانيا لم يصدر الا بعد حادثة بسيطة كادت الحرب تشتعل بينهما بسببها لتقلب عالمية قبل « العالمية » بعقدين من السنين .

هذه الحادثة هي مشكلة « فاشودا » (كودوك) الشهيرة، التي حصلت على النيل الابيض يوم التقى فيها كل من سعادة السردار كتشتر ، الذي كانت اوامره في ان يضم الى بريطانيا كل ما تصل اليه يده ، وحضرة المسيو « مارشاند » الذي كان مزوداً بتعليمات تقول « بمد النفوذ الفرنسي حتى النيل » . لقد تنازعا كديكين في من يرفع العلم على فاشودا ، لكنهما تصالحا ان ترفعه بريطانيا وتأخذ فرنسا بضع شرات حبشية اخرى كعطل وضرر .

كان الكاتالايزر البريطاني اكثر ما يخشى ويحسب له الحسابات العميقة مزاحمة زميله الاستعمار الالماني . ولذلك نجده ، وهو يخبر بيوتات الدول في شأن الحبشة او يغمض عنها قليلا ، يعمل على سد جميع السبل اليها ، امام المانيا ، بل الى اية منطقة اخرى لم يكن قد وضع يده عليها ورسخ فيها .

كانت المانيا « حتى » الاستعمار في قلوب ماليي الامبراطورية
 وساستها في ذلك الوقت . لقد أزعجها بسمارك ، والوف
 المعامل والمصارف ومئات الوف الجنود « البروسيين »
 ينبتون بسرعة عجيبة تحت ظله الوحشي المديد . ولذلك ، فان
 ما قلناه عن دعوة « السكاتالايز » لبقية دول الاستعمار الى
 الوليحه الحبشية ، قد يصح على كل دولة الا المانيا . حتى فرنسا
 في جيوتي ، على طريق الهند ، الى جانبه ، لم تكن في وساوس
 حدسه شيئاً هاماً بالنسبة لخيال المانيا التي شرعت لاتنطق بغير
 « الحديد والنار والدم » ، ناسية ان هناك الفاظ « السلام
 والمحبة والرقى الخ . » التي تستعملها بريطانيا وتحب ان تشنف
 اذان الجميع بها وتملا جيوبها من درها !

ومع ذلك ، ففرنسا لا يجب ان تأخذ اكثر مما قبضت
 عليه ، لانها هي الاخرى ليست بالتي تقبض وتعود فتعطي .
 انها لم تمهد ولن تمهد ارض الحبشة لبريطانيا . ذلك واضح ،
 لانها لا تمهد الارض لغير رأسماليها واصحاب القروض والمال
 الموظف فيها . اكن الحبشة لا يجب ان تبقى على طول حصناً
 حصيناً . ان فيها ذهباً يهجم عليه وإن فيها دولة قد تبعث حية ،
 حية رابضة في كمين خطر بين دروب الامبراطورية التي لا

تغيب عنها الشمس . اذن ، ما العمل ؟ ان مصر والهاب
نيران الفتن الداخلية واستعمال الدراويش والقيام بالحملات
المباشرة — ان جميع ذلك لم يأت بنتيجة حاسمة . ما العمل ؟
هذا هو السؤال !

هناك « الرجل المريض » . انه مريض ولا خوف منه .
لقد خدم بريطانيا كثيراً ، وكان يدفع لبريطانيا اجور خدماته
لها ! لكن المريض ، البعيد ، المنهوك ، المسلوب ، الذي لا يكاد
يستطيع دفاعاً عن نفسه وحياته ، الذي لا يعيش إلا منه ، بل
الا لانه يفيد سواه — هذا « الرجل » هل يستطيع عملاً ؟ هل
يمكنه ان يطفي جذوة الدراويش في السودان بعد خروجها
عما يفيد بريطانيا ، ويعبد الطريق الى قلب الحبشة بعد امتناعها
عليها ، ويلاشي نفسه اكثر مما هو ملاشي ليكون هو
والدراويش والسودان والحبشة وكل شيء في النهاية لحي
« مجتمعة » في قبضة الكاتالانيزر ؟ كلا ، انه لا يستطيع .
فمنذ خمسين سنة ، في اول مايو عام ١٨٨٥ ، قال سياسي تركي
في حديث له مع مكاتب « التيمس » الباريزي : « لقد طلبت منا
انكلترا ان نذهب الى السودان » . ثم في ١٨ منه قالت « الاهرام »
المصرية : « يؤكدون ان الدولة العلية أبت احتلال سواكن

(بلدة على الساحل السوداني ، وهي من مفاتيح شرقي افريقيا)
لما وجدته في شروط انكلترا من امور ياباها شرف الدولة
العسكري والمدني الخ ... » (« والشرف » معناه في لغة
السياسة عدم المقدرة على الاستعمار بسبب التأخر الصناعي
ووضعية القرون الوسطى الاقتصادية والاجتماعية التي كانت
سائدة وقتئذ في حياة الدولة العثمانية) . وهكذا « فالرجل »
الذي لا يمكنه الذهاب الى السودان لا يمكنه بالتالي ان يغامر
في الحبشة .

لكن قبل ١٨ منه بثلاثة ايام كانت نفس الجريدة قد
نشرت ما يلي : « يؤكدون ان الدولة العثمانية أثبت ان تحتل
سواكن ... » وانه بناء على ذلك ستحتل ايطاليا هذا الثغر !
ثم قبل ذلك باسبوعين او ثلاثة أصدرت ايطاليا اوامرها ، بناء
على سابق مخبرات مع بريطانيا ورضى منها ، الى الكولونيل
ساليا باحتلال « جميع المواقع الحربية بين مصوع وعصب ،
والمواقع الداخلية التي لا تبعد اكثر من خمسة كيلو مترات عن
البحر او عن النقط التي تحتلها الجنود الايطالية ! ... »

نعم سيدي ، ان ايطاليا قد دخلت الميدان الذي ابتدأت
فيه « بعدوى » وانتهت منه الى « وال وال » . ان الكانا لا يزر

رضي عنها ووجد فيها آلة من آلات مشاريعه . انها افضل وآمن من يوكل اليه القيام بعمل مزعج ، مكلف ، زلج ، كفتح الحبشة . لماذا ؟ لان الدولة والاستعمار الايطاليين اخذا يولدان في النصف الاخير من القرن الماضي كمرافق خاص للاستعمار البريطاني . كانا كالمرفاق الموكل بخدمة سيده ، المتعرض لتذبذب جرياته حسب تذبذب السوق الاستعماري والدولي والحاجة اليه ، فيه المستهدف لهدايا هذا السيد ، الكاتالانيزري ، وصفعاته على السواء .

كانت ايطاليا وليدة حديثة في اوروبا ، قامت تجاهها انكلترا بوظيفة القابلة القانونية لتوازن بها سياستها الاوروبية . وكانت — لحداثتها كدولة موحدة — لاتزال ضعيفة ، ناقصة الخبرة ، لا يخاف شرها بقدر سواها من القويات المحنكات ، ولا يخاف الخسران معها ايضاً بقدر ما ينتظر من فوائد التلاعب بها واستعمالها من كل جانب ومنفذ في كيانها الناعم . لهذا افسح لها الكاتالانيزر ميداناً وسيعاً في الحبشة . كان ميداناً تتكلف ايطاليا بتسهيله بالمال والرجال ، لتأتي مرييتها البريطانية عند نهاية الطبخة وتلتهم اطيب ما فيه واعظم شطر منه بارخص ثمن : هو التشجيع وفتح مصكات ابواب المرور فحسب . . .

وهكذا نجد من كل ما تقدم اذا ما اعترضت الاستعمار الواحد أكلة صعبة الهضم ، شارك فيها استعمارات اخرى في ذات الوقت الذي يتزاحم واياها عليها . تقوم دائماً بين هذه الاستعمارات اتفاقات جديدة ، دائماً مساومات جديدة ، دائماً منازعات جديدة ، تتلو الواحدة الاخرى الى ان يتم هضم البلاد المستهدفة جميعاً . عند ذلك لا يعود من مجال لاكتساب الزيادة الابان تحارب بعضها بعضاً على ما في بطن كل منها وفمه . هكذا ابتدأت وانتهت الحوادث والمطامع المتطاحنة التي ولدت الحرب الكبرى . هكذا ابتدأت انكلترا وايطاليا في العقد الاخير من القرن الماضي ، وهكذا يوشكان ان ينتهيا اليوم . انها اليوم دول ناهشة ، لا يسد بطونها شيء ، اساسها نظام يفترض البشر حيوانات ناهشة ! والذي ينكي أبرد الصابرين من كل هذه الفوضى وهذا التذابح ، هو ان ارباب النظام يريدون ان يخلقوا الانسان على صورتهم خلقاً ابدياً !

* * *

أول الامر وضعت شركة ايطالية يدها على مرفأ عصب في الطريق الشمالي من مضيق باب المندب . ثم اشترته الحكومة الايطالية من الشركة ، فكأنما الحكومة اشترت من

نفسها أو كأنما الشركة باعت الى نفسها — ولكن من مال غير مالها ! من عرق مساكين ايطاليا . بعد ذلك اخذت ايطاليا تتوسع حول هذه النواة بان تلحق بها المناطق التي تسكت عنها انكلترا لها . وكان ذلك على النحو التالي :

كانت بريطانيا قد وضعت يدها ، بصفتها صاحبة الحماية في مصر ، بعد ١٨٨٢ ، على جميع الممتلكات التركية — المصرية التي على ساحل البحر الاحمر . ثم بعد حوادث الدراويش في السودان ، واستخدامها لجنود من مصر على اخضاعهم ، عادت فأجبرت هؤلاء بالقوة وبالحيلة وبمجازبة الرؤساء على اخلاء السودان والساحل المذكور . وكما استخدم « الداتانيزر » المصريين ضد المهدي وخلفائه ، وهؤلاء ضد المصريين ، كذلك استخدم الملك حنا الحبشي ، هذه المرة ، على طرد المصريين من اماكنهم . وفي النهاية تبرع بمساعدة الطليان على رفس من بقي منهم ، وعلى امتلاك ذلك القسم من من الساحل الواقع في شمالي غرب الحبشة ، المبتدي من قبل عصب قليلا جنوباً ، الداخلة فيه « بالول » و « مصوع » و « اسمره » و « زولا » ومدينت وأساكن اخرى ، والمضموم جميعاً في باقة عمدت باسم « شعري » هو : الاريتريا !

لكن في عام الخير ١٨٩١ قال الكاتالايذر لايطاليا «قني!»
 لقد أراد التربص ليضع خططه بدقة، «فشد الفرام» على
 صاحبه. عقد معها بروتوكولات تعين مناطق نفوذها
 وحدود مستعمراتها الجديدة. لكنه مالبث، على اثر اشتداد
 جديد في حدة الانتفاضات السودانية (وقد كان احتياج
 الاهالي التمسك هذه المرة ضد فظائع وتشويش ومظالم بريطانية
 مباشرة، لاضد دروعها ومجناتها الا لا عيب) ان عاد يهمس
 في قلب «السنورا» معشوقته بان لها ان تنوغل الى ما بعد
 حدودها «الاريترية»، داخل المناطق السودانية المتاخمة.
 قصد الكاتالايذر بذلك تأديب «العصاة» من الاهالي بنحجر
 دولة الناشئين من الرأسماليين الايطاليين الرعن. وهذه طبيعة
 الكاتالايذر.

منذ ذلك الوقت اصبح واضحاً ان ايطاليا اخذت تعجل
 في غزل مطامعها. راحت تحاول بكل جهودها ان تقولب
 توسعها في شكل استعماري اكبر واسرع، ان تؤمن مطالب
 صناعتها وتجارتها وماليتها الاخذة في النمو والالحوق بسابقاتها.
 اخذت تكد وتفلق نفسها من شدة الكد لاستعمال ممتلكاتها
 الجديدة كقاعدة تنشر منها امبراطورية واسعة في شرق افريقيا.

لقد تضخمت احلامها ، احلام ساداتها ، مع تصخم ثرواتهم الجديدة . ولما كان قد خاب أملهم في ابتلاع تونس ، اذ سبقت فرنسا الى تحقيق هذه العملية ، فقد حصرت دولتهم همها في الحبشة ، متوقعة بسط ظل قياصرها الصغار عليها .

خففت ايطاليا الظن كثيراً بمناعة الحبشة . ظنتها برغشة سهلة العلوق بعنكبها . اما الكاتالانيزر ، فقد كان يدرك تماماً ان تنتهي ايطاليا واهن تبتدى غريماتها . ومن نحس ايطاليا ان هدية ذلك الخبيث لها ، الا ريتريا ، كانت شعيرة الاسم ، غير شعيرة الجسم . ذلك ان الساحل الاريتري لهاب الحرارة ، قتال الصحة ، استوائي المناخ بكل معنى الكلمة وأعدى أعداء المزاج الاوروبي . تكبدت فيه ايطاليا خسارات عظيمة من مال ومن ارواح اشباه الارقاء . من ابنائها بسبب الامراض الكثيرة والحروب مع أهاليه الاشواوس المضطهدين . لقد كانت الامراض الاقليمية تختلط بالابواب المريعة ، المنبعثة من تهري الكوام جثث الاهلين الذين لم تكن بنادق المستعمرين ومدافعهم ترتاح من حصدهم عن وجه أرضهم ، وكان هذا المزيج من مرض ووباء يرتد على المستعمرين لتجديد الحصاد منهم . لكن كل هذا لم يردع الظالم عن طغيانه ، بل هيج قابليته

وحسب رغبته الاكتساحية . حبيب اليه جداً ما تمتاز به الحبشة من مناخ النجود و ثروات الجبال والبطاح . ان ايطاليا أخمرت فتحها سابقاً ، انما الان ، تجاه كل هذه العوامل واهمها عطف الكاتالانيزر ، وطدت العزم واعلنته .

لكن من زيادة النحس في حظ ايطاليا انه كان هناك عامل هام لم نحسبه ، مع ان سلوك انكلترا كان قيناً بان يفتح عينها عليه . ذلك ان الحبشة ، كما يقول مؤرخ في تلك الايام ، « لم تكن تنظر الى نفسها كاحدى المقاطعات غير المتمدنة او او المحشجة في نزعها ، ولا كونه من الضرورة ان يبسط الاوروبيون حمايتهم عليها ! » والان ، هاك بعض التفاصيل لهذه « الالياذة » الجديدة

اخذت ايطاليا تنظم حملاتها نحو الداخل واحدة تلو الاخرى ، فيعقب كلا منها الحاق شرحة من الحبشة بالاريتريا . في كل من هذه الحملات كانت « السنيورا » تكنس الاهالي كناسة الهواء الاصفر ، تحرق عدداً كبيراً من المدن والقرى ، تقتل عدداً بعد اكبر من الزعماء ، تنفي من لا خوف منهم ، وتسخو بالريالات والعاشرات وفاسق العيش على الخونة البياعين . ذلك دائماً يدين المستعمرين ، اتقنته « السنيورا » بسرعة .

لكن في هذه الاثناء كان الملك منليك يشهد ساعده يوماً بعد يوم ، يثبت سلطته داخلياً بادخال الرؤوس والنبلاء المتمردين ، الفوضوي النزعات ، العميق الاقطاعية في الاوضاع والنفسية ، تحت سلطته القوية وسياسته الحكيمة بالنسبة لبلاده ودرجة تطورها . كان زمن حكمه اول محاولة تقوم في الحبشة لادخالها في الطور القومي بالمعنى الحديث ، اي في دور النشوء البورجوازي الوطني ، المتجسد في سيادة واحدة ضمن دولة موحدة ذات قوة عسكرية وتنظيم اداري وديواني (١) محبوك الحلقات . كان عصر منليك بداية عصر نهضة يعقب الانحطاط والفوضى والتلاشي الذي كانت الحبشة تسير اليه في اواخر عهد توادروس وبعد موته .

لكن منليك صدمته انكلترا بايطاليا . رأى بلاده معرض كل تلك التحولات التي كان يستهدفها الكاتالانيزر بها . فكان يجد انه يبني جداراً ليهدم له الاستعمار جدارين . كان تخوفه على بنائه وبلاده يستفحل مع مر تلك الحوادث التي قدمنا صورة ساذجة لها . وإذا رأى ان ايطاليا لن تتوقف ، إن

(١) ترجمة لكلمة Bureaucratique ويصح استعمالها في العربية بلفظها الفرنسي لدوليتها من جهة ، ولانها شاعت في اوساط كثيرة حيث يقال : بروقراطي ، وبروقراطية الخ . . . من جهة

استطاعت ، عن ازدراد البلاد كلها ، وان لا بد من حرب آتية بينهما ، اخذ يعد عدته بتنظيم جنوده واكثر التسلح برغم لانهاية من العراقيين تقام في طريقه . في اوائل ١٨٨٧ بدأت المناوشات الجديدة .

في تلك الايام ايضاً ارسل الايطاليون الى الحبشة عصابة جواسيس بقيادة كونت مغامر يدعى « ساليميني » . كان اللقب « الرسمي » لهذه العصابة : « بعثة علمية » ، وفي ذلك دليل على ان الايطاليين اخذوا يقتفون باتقان خطوات استاذهم الكاتالانيزر ، خصوصاً من جهة تسمية الامور بمعكوساتها . إلا ان عصابة « البعثة » وقعت بيد منليك ، اي انه لم يتورع عن القاء القبض عليها . وبعد ذلك اسرع يشد الشدات على الفلول الايطالية التي كانت تتقدم في اراضيه ، فدحرها واجبرها على اخلاء كثير من المدن والقرى التي كانت الحقها كما يلحق اللص امتعة سواه بخزانه مسروقاته . وبذلك اعاد منليك الى الاهالي المرتاعين في تلك الارضي بعض طمأنينتهم .

غضبت روما واثارت عصبيتها لهذا الانكسار تفرضه عليها امة « همجية » ، في رأيها ، على دولة « متمدنة » مثلاً . غضبت وأرسلت جيشاً من ٢٥,٠٠٠ جندياً لتنفيذ احلام غزواتها .

اما الكاتالانيزر الانكليزي ، فكان يواصل اساليبه في استفزاز روما المهانة من جهة ، ومن الجهة التالية يغتم فرصة رغام ايطاليا الزائدة للتحويل على منليك . قالت بريطانيا لمنليك : « خير لك ان اصلح بينك وبين الطليان . وما تخسر بذلك الا قطعة ارض صغيرة تلقمهم اياها و . . . قطعة صغيرة لي ايضا . اني احتاجها لادفع بها عنك شر هؤلاء المغتالين ! . . » لكن منليك اعتقد بحزم ان مخاطبيه اطفال — اطفال خطرين جداً ، اخطر من المغتالين !

في ذات الوقت كان الطليان ، واطفال الكاتالانيزر من خلفهم ، الذين لم يحصلوا سواء بىكاه او بدون بىكاه على حليهم من الحبشة ، يظهرون حباً لثيماً للاسلام . يحاولون ابداء اثاره الفتن الدينية في البلاد . عملوا من قبل على استخدام المهدي ، ومن بعد حاولوا استغلال تعصب تابعيه . ثم علم الاطفال « وابناء الذئبة » كيف يعملون للتفريق بين حنا ومنليك وجعلهما ديكين متقاتلين ، وقد سبقت الاشارة الى اخفاق هذه الدسيصة باتفاق العاهلين . ولكن الدسيصة تواصلت ، وظلت تتفتح حلقة عن حلقة ، حتي انتهت بمقتل حنا على يد قوم المهدي ، بعد ان يئس المستعمرون من خيره وأملوا في

ان ينشق مكانه معارض قوي لشكيمة منليك . وعلى اثر مقتل حنا لم يعدموا فرصة لزج البلاد في ما اشرنا اليه من حالة الاضطراب والذعر ، لمضاعفة المؤامرات والالغامات المتنوعة ، المدفونة في اتفاق السياسة الاستعمارية الخفية الدموية .

رأى الايطاليون فرصهم . لاشك في ذلك . لم يستطيعوا الاخذ بالحرب ، فليجربوا غير الحرب . وإذا البلاد في هذه الحالة ، ومنليك احوج ما يكون الى مسالمة جيرانه الذئاب ، جاؤه باسم السلام والتحاب لعقد معاهدة كادوا يصورونها له ، بالفاظهم الغرامية ، الناعمة ، شيئاً شبيهاً بعقود الزواج بين الملائكة . عقدت المعاهدة ، فكان لها قصة اية قصة ! (معاهدات اوتشالي — ايار ١٨٨٩) . والقصة هي في ان نص المعاهدة الموقع عليه كتب في اللغة الامهرية ، حيث جاء في حرفيته ان الملك منليك « يمكنه ان يستعمل » الايطاليين كوسطاء مع بقية الدول . غير ان الايطاليين ترجموا العبارة لزويراً على الشكل التالي : « مجبور على استعمال الخ . . . » ولا لزوم للقول بان ترجمتهم ، التي جعلت الحبشة بهذه العبارة بلاداً محمية بكل معنى الكلمة ، لم يكن عليها غير امضائهم الشريف ! وعملوا ، فوق هذا ، على استغلال ضيق منليك المالي

بدغدغة ذقنه وخشخشة كيسهم . أقرضوه أربعة ملايين
فرنكاً ، ولكن لقاء استلامهم جمر « هرر » كضمان على
ايفائها وبشرط ان يمتلكوا كل مقاطعة « هرر » فيما اذا تأخر
بوفاء المبلغ . كانوا يعتقدون بانه لا يستطيع ذلك ، ناسين ان
في الزاوية عيوناً انكليزية واسعة الاحداق ، وان للسكاتالانيزر
جيوباً مملوءة لوقت الحاجة ، وانه لم تعجبه كثيراً الطريقة التي
يترجون بها المعاهدات وينسونه خارجها . في الواقع ، ان
الانكليز اخذوا يفكرون بان هذا المجرى في الامور يجب ان يتحول
قليلاً . لقد ظهر لهم كرن ايطاليا أسأت الفهم قليلاً إذ أن دعوتهم لها لم يكن
يعني بانهم « تركوا لها وحدها النعجة الحبشية المسكينة » اذ ذلك كثير جداً
على ذقن خادماتهم التي اخذوا الغش تجاه سيدها يخرج من قلبها الى يدها !
غير ان الانكليز كنتموا حرقهم ، وراحوا ينظرون
كالمتفرج المسرور الى الملك هو مبرت وهو يهدي منيليك ،
كعربون صداقة ايطاليا ، مجموعة بنادق ومدافع ، ويتأملون
كيف يعلن في نفس الساعة امام محتشد الدول بان الحبشة
اصبحت تحت حماية ايطاليا ، وبان هذه تبرعت بالحماية لا لشيء
الا المدنية والسلام والنور والعطف وغير ذلك من الوان
هذه الحلويات التي اعتاد السكاتالانيزر عليها قبله بزمان . ولذا ،

لم يمرض على معاهدة « اوتشالي » وغزليات هومبرت وقت قليل حتى خلقت بريطانيا ملكاً من شخص اسمه الرأس « منغاشا » ، فاعلن هذا الثورة ونصب نفسه على نسخة ثانية لعرش الحبشة بصفته حبيب الانكليز والابن الطبيعي للرحوم الملك حنا . لكن منليك تغلب عليه وضمه اليه . ثم لما اراد الايطاليون ان يطبقوا تفسيرهم العبقري لمعاهدتهم هزأ بهم ، واختار عمداً ان يخبر بقية الدول رأساً على امور مختلفة مما اختص بمصالح مملكته . تلك المملكة التي اصبحت غارقة في مئة فخ وفخ من احايل الدول الناهشة ، ولكن التي كان التنافس وثوران التناهدش فيما بينها نفسها على الفريسة واستعمال منليك لهذا التنافس بدراية ، السبب الاول لبقائها على الخريطة . لقد كان الكاتالايذر داهية الخبائث والفتن والاستلاب . ولكن شدة طمعه كان يصطدم مع اطماع من يستعملهم . وكانت السنيورا الايطالية كذابة متسرفة بحيث اصدمت بشهوة سيدها لضرتها . اما منليك الحبشي ، المستخف به ، فقد استطاع ان يطبق على ذينك الوحشين اسلوباً دقيقاً من اساليب الحياة في الادغال البشرية . استطاع ان يتناول من الكاتالايذر اساعة دور السعدان الذي وكل اليه تقسيم الجبنة بين الهرين . غير ان

الفرق بين رمز الخرافة وحقيقة السياسة كان في ان الهرين هنا اراد ان تقسم جنبنة السعدان نفسه ، لاما سلباه من سواه ، وكان همه هو الاحتفاظ بجبنته !

الا ان اللعبة على الكاتالانيزر ، على ملك جميع السعادين السياسيين الاذكياء ، لم تكن سهلة . لقد اراد ايطاليا على محاربة الحبشة واضعافها ، ليعود فيكر عليها او لتستجير به استجارة من لاذمن الرمضاء بالنار ، وماساير منيليك ، الذي عرف كيف يستفيد من هذه المسائرة ، الا قصاصاً لايطاليا على قلة ما انتبته الى مقاصده . لكنه ما ان فهم بان السنيورا المتراخية فهمته ، انها يئست من المعاهدات والحماية وادركت وظيفتها ومبلغ غنيمة المحسوبة لها من القيام بهذه الوظيفة ، حتى عاد يدفع في ظهرها دفعاً مشجعاً ويعمد الى تخليص منيليك دور السعدان ليلعبه هو . وبذلك عادت ايطاليا ايضاً الى سياسة المناوشات والمعاكسات والتعديات والمغامرات ، وعاد الجبار الاسود منيليك الى المدافعة واتقاء النبال المصوبة الى شعبه من هؤلاء القردة البيض .

وهكذا دواليك استمرت المناقشة والمناوشة ، والغارة ورد الغارة ، والاخذ والعطاء بالبنادق والمدافع والسيوف ،

دائراً بين الحبشة وايطاليا ، بينما عيون الكاتالاي زر تراقب
 بسكون وطمأنينة ، وبينما اظفارها واظفار ايطاليا معاً تنخر كالمناجذ
 (جمع قنفذة) ، على حد تشبيه منيليك للفعالية الاستعمارية ، في
 باطن اراضي بلاده الى ان اقبل عام ١٨٩٦ . في ذلك العام
 انفجرت دفعة واحدة جميع هذه الملفات المدفونة والاحتكاكات
 الحادة . انفجرت كل هذه الحروب الصغيرة ، الكلامية
 والسلاحية ، المستمرة ، المملة ، المخربة ، في حرب واحدة
 كانت في الحقيقة معركة واحدة .

هي معركة « عدوى » الشهيرة التي تحطم فيها الجيش
 الايطالي تحطيماً امام صلابة الشعب الحبشي واطولته ، امام
 غرامه باستقلاله وارضه وكرهه للمستعمر الابيض ، للوحش
 الخبيث ، للدموي المطامع .

لقد أجفلت ايطاليا بعد هذه المعركة اجفال اللص الجبان .
 وجد توسعها حداً يقف عنده بحنية رأس أدخل فيه الاحباش
 قليلاً من الاحترام — لكن لوقت ...

اما الكاتالاي زر البري فقد سكت ليفكر بهدؤ . يد ان
 مناجذه لم تقف عن الحفر في بطن الارض ، ولم تمض بضعة
 اسابيع على « عدوى » حتى اخذ يكفكف دموع ايطاليا

وبعرض عليها كل « المساعدة » المطلوبة لاجل نشر النور
و « ارجاع الدنيا الى العادات السلمية » ، كما قال اللورد
« كاسترليغ » في ذلك الزمان . فاخذت السنيورا القبلات ،
هذه المرة ، وتركت كستناء الحضارة والعادات السلمية في النار !..
وذلك لان شواء الاصابع لا يشتهي قبل ان يذهب ألم
الشواء السابق !



قوى واساليب ومعاهدات وعبر (١)

لا مكان في هذا الكتاب الصغير للدوران واللف حول ما لانهاية له من المداورات والمناورات ، والكرات والفترات ، والمحاولات العجيبة الغريبة ، واللطمات الخلفية المتوالية ، المتنوعة ، التي كانت الدول الحائمة حول الحبشة تقذفها عليها في سيل لا ينقطع . ان هذه لكثيرة ، طويلة الاخبار ، مملّة ، ذات نغم واحد من الدس والخيانة والخلو من جملة الفضائل الادبية والميزات الانسانية النيلة . حبكها حبك مؤامرات شطرنجية تدور على بيادق بشرية لا يشبع اللاعبون بها من اللعب . أجل ! ان الحبشة صدت الهجمة الاستعمارية المسلحة في معركة « عدوى » صداً عنيفاً دائماً . لكن الحرب بين الاستعمار وفريسته لم تقف ، وكانت في الحبشة من أبلغ البراهين على صدق « كلوسوتز » في تقريره ان حالة السلم (في النظام

(١) في القاموس : العبرة هي الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد الى ما ليس بمشاهد (بعد) والاعتبار هو قياس ما غاب على ما ظهر . وهذا المعنى عينا نقصه من استعمال اللفظة .

الاجتماعي القائم طبعاً !) ليست الا حرباً بغير سلاح . لقد
 حمي وطيس التلاكم الاستعماري بعد « عدوى » اكثر مما كان
 حامياً ، وكل ما تبدل في الميدان انه اصبح ملاكمة اقتصادية
 ودبلوماسية ، تبرعات بالخدمات المعكوسة لقاء امتيازات طاعنة ،
 وتنقيلات في حجارة السياسة الاستعمارية بدهائية ودقة ونعومة .
 لم يردع الدول ، التي تتعاطى مهنة استعباد الشعوب عن اكتساح
 مجال لاطماعها ، انكسار جيش زملائهم الايطاليين فيه . لم يردعهم
 الا عن المغامرة في اتباع اسلوب اللطمة المدوخة ، الا عن
 التفكير بان اللقمة الحبشية قد يسهل عليهم ازدرادها دون تقطيع
 وطبخ . لذا عادت شركة المستعمرين بعد « عدوى » ، وعلى
 رأسها الكاتالايوز البريطاني ، الذي تعلم درساً ثانياً بعد امثلة
 حملة « نايير » عن ثبات الحبشة ، الى التقطيع والطبخ والالنة
 لحم خروفيهم بمواصلة حقنها انواع أدويتهم المهرثة .

وهكذا فان المعركة التي عقلت التقدم السريع للاستعمار
 الايطالي لم تكن فاصلة ، كما ان كل معركة ضمن النطاق
 الاجتماعي الماضي والحالي وفي سبيله ليست بفاصلة . ان تلك
 المعركة ، وان كانت قد ارجعت المعتدين من تلايبيهم عن
 متابعة الهجمة العلنية الوقحة ، الا انها لم تطوق الحبشة بسور

منيع لا تتسلقه بقية الدول درجةً درجة . لقد قلل نصر
الاحباش استهتار المستعمرين بهم . جعلهم يدخلون على سلوكهم
تجاههم شيئاً من الاحترام ومراعاة قواعد التأدب ، وان يحولوا
— على الاقل — طريقة تنفيذ خططهم . حولوها من الامتحان
الارغامي ، من دق العنق وموالاته الصفات با كف وحشية
غليظة الى الاختراق باساليب شبكية ناعمة : اساليب الاستملاك
الاقتصادي المتعمق ، تقديم مساعدات ملفقة واحسانات
مزعومة ، تشديد قبضتهم على مرافق البلاد وتوسيع استثمار
شعبها بواسطة ألعاب الحقوقية البرجوازية ، تحويط البلاد
بقوى ومواقع حربية ، سد جميع المنافذ الى الخارج في وجهها ،
بث الدعايات الرجعية والاستعمارية العديدة المتباينة ، استغلال
الايوضاع والاحقاد الاقطاعية وشراء الكثيرين من الزعماء
الذين يدفع المستعمرون اجورهم من حياة شعبهم . اما الزعماء
هؤلاء — الذين يبيعون وطنهم واهله بصفقات اغتالية ، متهمكة
الانانية ، كما يبيع التجار السياسيون — من زعماء الاقطاعية
والبورجوازية العربية او طائهم ، كما يساوم اضراب شكيب
ارسلان عن حياة ستين مليون عربياً مظلوماً في اسواق
المزاد الدولي — أما هؤلاء ، فان في الحبشة ، كما في كل بلاد ،

عدداً لا بأس به .

كل هذه الرويات التي كانت تمثل على المسرح الحبشي بعد « عدوى » هامة للغاية ، وفي كل منها درس بليغ للشعوب المقهورة التي تستهدفها ، ولا عداً الظالمين . بيد اننا ، كما أشرنا ، لا نستطيع في هذه صفحات المعدودة ، بالنسبة لاتساع الموضوع وكثرة دقائقه وتفصيله ، ان نسرّد حتى القليل منها . الوقت لا يحتملنا على الاطالة في رسالة كهذه نريد ان نسايق بها الحوادث . ومثل تلك الروايات ونتائجها معروفة ومشهورة ومحسوسة من قبل الملايين الذين يستهدفون لها . لكن ما قد يكون مبهماً او خافياً او غير مفهوم او منتبه اليه تماماً من امرها ، هو الاساليب والكيفيات الموضعية التي تجري بحسبها ، القوى الحقيقية ، المعينة ، المحدودة ، التي تلعب ادوارها ، واهمية كل لاعب ودرجة تأثيره وعمله . لا يمكننا ، لذلك ، إلا ان نحصر البحث في استعراض بمجلد لما نراه ابرز الوقائع من هذه الناحية ، لا من ناحية شهرتها او دعاية المستعمرين او خيال الساذجين . إلا ان نفهمها فهماً واقعياً صحيحاً ، إلا ان نستخلص العبرة العامة منها والكيفية الشاملة التي تتحرك بها والنتائج التي تصلها في حقبتها التاريخية ، حقبة النمو الاستعماري

لذي تستمر فيه مأسية وتتضخم ، الذي يرمي الى اغتيال الشعوب برمتها لمصلحة أركانه المتنافسين والمتحدين من رأسماليين العالم .

بهذا العمل الموجز يعرف ، على الاقل ، من العدو البشري واين هي مواقعه . به تفهم بالتعيين القوى الحية العاملة في الاستعمار ، ودرجات عملها وأشكاله . وبه ، اخيراً ، يستطيع ضحاياه وكارهوه ان يستفيدوا ويقووا ، مما يعجل في شيخوخة الاستعمار ونظامه ، ينهكه ويقضي عليه بتسديد الضربات اليه بدقة واصابة بعزم المعرفة للهدف والاتحاد في يد رمايته . وليجلب نظرنا في الدرجة الاولى أدهى واشد ممثليه ومديره ، لانه ، كما اشرت في بعض ما سبق مما كتبته ، اذا ما تهشم رأس الثعبان مات لا محالة . اذا تخلصت الانسانية من بواعث المصيبة لم تعد من مصيبة موجودة . ولا يهمنا : طبعاً من امر تلك القوى والممثلين التغزل بحلاوة عيونهم وجمال عضلاتهم ، بل ادراك الطرق التي يتبعونها ، ونتائج تلك الطرق ، وقواعدها ، لاجل ايجادة مقاومتها .



لا نستطيع ان نرافق تطور المزاحمة الاستعمارية المريعة

التي كانت تتعمق قبل الحرب مرحلة بعد مرحلة في كل العالم ولا كيف كانت تتشكل في الحبشة وتنفجر بعواصف من الفتن والدسائس الدائمة بين المتزاحمين ، ضد بعضهم البعض عليها وبينهم جميعاً ضدها في آن واحد . كذلك ليس من مجالنا في كثير او قليل ، رغم اهمية الموضوع ، ان نفصل في امر تطور هذه المزاخمة بين اسيااد الدول حتى لم يعد امامهم شيء خال يتصارعون من اجله ، فراحوا يتخاطفون من بعضهم بعضاً ما يقبضون عليه ، ويأكلون شعوب بعضهم بعضاً في كارثة الحرب الكبرى ، ولا في كيف تجلت هذه المحاربة المجرمة المجنونة على المسرح الحبشي في اجتهاد كل جبهة من جانباها — الالمان والحلفاء — على جر فريسة تكالبهم الى بالوعة المجزرة . ولا تعرض بغير التلميح الى وصف او تحليل الصور المخزية التي تبلور فيها ذلك التجاذب بين الجبهتين : كيف كان الالمان يستعملون الاسلام مطية لما آربهم ، وكيف كان الحلفاء ، ورأسهم بريطانيا ، يركبون النعرة المسيحية ليشرکوا معهم الاحباش في المهرجان القرمزي ، فيقعوا في النهاية صيدة منهوكة للاستعمار الغالب ، الذي من عادته ان يصيب عصافير كثيرة بحجر واحد . وليس ايضاً بالمقدور ، في هذه السراء

ان نقف اكثر من لحظة لاقتفاء آثار التأثيرات التي احدثها ذلك الاحتكاك والتعدي الدائم على الاحباش : كيف تحركت فيهم نكرة وطنية حققة تحركاً ثورياً قوياً . كيف تعلمت الزبدة من شبابهم وقوادهم المفكرين ، وئيداً وئيداً وبأثمان باهظة ، ان المستعمرين لا يمكن محاربتهم بغير سلاحهم وآلاتهم وتكنيكهم . كيف كرهوا بريطانيا وحلفاءها الى حد ان سرت في قسم منهم ، وعلى رأسهم امبراطورهم المتهور « ليدج باسو » ، الرغبة بان ينقلبوا مسلمين نكابةً بانكلترا المسيحية ، ايام لمعت اثناء الحرب بارقة امل بان مثل هذه الخطوة الخنفسارية قد تخلصهم دفعة واحدة من مخالف اعدائهم . كيف تلاعب الاستعمار الالماني بهذا الامل ، وكيف وقف الاستعمار البريطاني منها لوقفه التي تنطق بها السطور التالية من كتاب تبرير ضميره ، « التاريخ الشعبي للحرب الكبرى » ، حيث جاء فيه :

« كانت متاعب إخماد حركة مقاومة السيطرة البريطانية أخف في الحبشة منها في غيرها . فان الذين كانوا حول الامبراطور الشاب دفع بهم جنون التحمس لآخبار النصر التركي على الدجلة الى التطرف حتى الى ما لا يحتمله شعبهم نفسه ، اذ اقترحوا بمفاجأة وغف محويل الحبشة من دولة

مسيحية الى دولة اسلامية . لقد اقترح عليهم هذه الخطة الفريدة وكلاء الامبراطورية الالمانية ، التي كانت قبل الحرب قد تأمرت ضد مسلميها ذاتهم في افريقيا الشرقية ، وحاوات ان تستعمل ضدهم تربية الخنازير كسلاح لاجراجهم عن دينهم !... الخ ، (ص ٦٦ — مجلد ثالث) .

... واخيراً ، كيف انتهت جميع هذه المهازل الدينية التي كانت تستتر خلفها مطامع الدول الى فوز بريطانيا في خلع الامبراطور ، ومن ثم الى صيرورة ما كان من احوال الحبشة الى شر مما كان عليه .

كل هذه الروايات والتطورات والتقلبات ، وما تخرج من عبر وما يقدم العلم بها وتذكرها من استفادات عملية ، يصعب علينا حتى طرقها الان . اذن ، هيا نتقدم الى مطلبنا الذي بيناه ، وبالتالي الى معرفة ما هو :

اولاً — رئيس شركة المستعمرين الذي هو صاحب الحصص والارباح الكبرى فيهم ، والذي يكون وجوده حجر الزاوية في نظام الاستعمار اينما كان ، وبالتالي في ميدان الحبشة موضوع بحثنا . ثم علاقته ببقية الشركاء ودرجات عملهم وتأثيرهم بالنسبة لبعضهم البعض ؟ وهذه هي القوى .

ثانياً — ابرز الأساليب التي تتبعها هذه الشركة جمع المكاسب ومحق الحياة أو قهرتها ، اي في التوصل الى عقد المعاهدات التي تشبه علامات الطريق المشيرة الى مبلغ ما يصير اليه اعضاء الشركة من مراحل نموهم او تقلصهم ؟ ويمكن اتخاذ اعمال رئيسهم الفحل كأقن «مثل أعلى» راهن على اعمال البقية .

ثالثاً — العبرة التاريخية الشاملة لكل ما تقدم في السؤالين السابقين، اي التوصل من معرفة الكيفية العامة للمشاهدة لحركة الاستعمار الى ما يمكن ان تكون عليه نتائج سيره في الحبشة بالنسبة اليها والى شعوب دوله نفسه ، وبالتالي للعالم جميعاً ؟

ان الجواب على السؤال الاول يكاد لا يحتاج الذكر . فبريطانيا العظمى ، بريطانيا الكاتالانيزرية ، مملوكة ديدمونة وأنبغ حاشية متمولة ، ذات البقاع التي لاتغيب عنها الشمس ، وأشباه العبيد الذين يعدون بمئات الملايين ويعيش أغلبهم كالميكروبات — لها شرف الرئاسة . وليس ذلك فيما يخص بالمشروع الحبشي فقط . أما بقية الاعضاء فيحسن أن نخصص بهم الفقرتين التاليتين :

لقد سبقت الإشارة الى محاولة اعادة ايطاليا الى الميدان بعد «عدوى» ، فأنشأ سياسيو بريطانيا يصيغون لها جلهم

الخلاصة التي لم تؤثر كثيراً هذه المرة ، لان المستعمرين
الايطاليين ايضاً بارعون في التعبير الشعري اللطيف . (١)
وعلى ذلك ، لما لم يتجرأ الايطاليون ان يطوحوا بانفسهم في
مغامرة تعلموا ثمنها ، ولما كانت بقية الدول لاتزال حائرة حول
الحبشة بشدة ومطالبة « بحقوق » واتعاب فيها ، ولما ظلت
الحبشة ذات مناعة ضد « اغتيال » استعماري مفاجي* ، فقد
رأت بريطانيا نفسها مجبرة على التسامح مع الدول الاخرى
بان تتقدم معها وتسبقها مهيمنة الى الساحة . واهم تلك الدول
المانيا وفرنسا ، وخلفهما رهط من الصغار الذين لا يخاف
شرهم امثال بلجكا واسوج روسيا الخ . . . كذلك ايطاليا ،
فانه بقي لها دور ، انما غير الدور « العدوي » الا انه عندما
استفحل جداً الاستعمار الالماني ، فاصبح شعباً مخيفاً قائماً في وجه
بريطانيا ، عمدت الى تمييز فرنسا على امبراطورية غليوم . عرقلت
على هذه السبيل بقدر ما استطاعت ، وشدت أزر تلك ،
واخذت تحسب ألف حساب لطغمة نسيبها القيصر المزعج ،

(١) يقول لسان حال انكلترا ، السير هارولد ماكميكل : في ١٨٩٦ . . . اذ
كانت « اي بريطانيا » شديدة الأثر بحاجة تقديم المساعدة لايطاليين الذين
كسرهم الاحباش يوم ٢٩ شباط الخ . . . من كتابه السودان الانكليزي
المصري . - ص ٥٧

الى ان حطمته في الحرب الكبرى واخرجته من دفتر حسابها
في الحبشة الى حين ...

كانت العلاقة بين هذه الدول دائماً كما سبق وكانت : تنافس
مستديم وتحالف مستديم على — الحبشة . الاوروبي الابيض
ضد الاوروبي الابيض وعدوه ، لكن الاثنين معاً عدوا الاسود .
انا واخي على ابن عمي ، انا وابن عمي على الغريب . المستعمر
الافرنسي والاطالي اولاد « بدون شرف » في نظر الاستعمار
الانكليزي ، والعكس بالعكس . اما الحبشي ، فهو في نظرهم
جميعاً ابن سعدان وقجة همجية . لكن جميع الدول التي
تترافق وبريطانيا الى ميدان الفتح وحصاد الغنائم كن دوماً
مغبونات بالنسبة لاستاذهن رئيس جوقتهن . جميعها تخسر
كثير منها ، وهي تربح اكثر من الجميع ! قسمتها تنتهي في
الغالب الى تطبيق اقتراح الغني البخيل على جاره الفقير عندما
خطر له ان يأكل الحلوى :

منك الدقيق ، ومنى النار أضررها

والماء منى ، ومنك السمن والعسل ! ..

وبعد ذلك يأكل الاثنان بقدر القابلية وطول الباع وما في البطن

من اتساع . بيد انه كثيراً ما كانت الخسارة كلها تكون من

جيب ودما. ابناء تلك الدول ، والربح كله من نصيب بريطانيا ، كما حدث في حرب « عدوى » . هذا ، ومن المشهور عند الناس ان النفوذ الفرنسي اليوم اقوى نفوذ استعماري في الحبشة . والحقيقة ان فرنسا كانت طوال اواخر القرن الماضي وما فات من هذا القرن المبارك تحفر اقنيثها واوكارها في تلك البلاد ، تتغلل كالبراغيث في جسم البدوي وعباءته . لكن الدوائر المطلعة جميعها تعلم ، يا عزيزي ، بان الحبشة مورد غنائم للانكليز من أغزر مواردهم ، وان ما يمتص منها رأسماليوهم اقتصادياً وما يستفيدون سياسياً يربو أضعافاً على ما تمتص بقية الاستعمارات وتستفيد مجتمعة . ان منابع النيل ، مراعي الاوغادين ، تأمين قلب الامبراطورية البريطانية من رسوخ قدم قوية فيه ، تجارة السودان والصومال الانكليزي ومختلف الامتيازات ، لأمور تكفي وحدها لاثبات القول . ان الانكليز يحاولون القيام الاقنعة على مثل هذه الحقائق التافهة . انما عمالهم انفسهم يقرون بها ، ومنهم عربي ذكي قضى في الحبشة سبعة عشر عاماً ، أقصد به السيد ابراهيم حسرن الذي عاد منها مؤخراً ونشر سلسلة مقالات في « الاهرام » جاء فيها مثل هذه الاعترافات

التي لا تخفى على عليم (١) .

والان ، اظن هذا القدر يكفي هنا بخصوص السؤال الاول ،
لانه سيقتى من محاور الكتاب حتى نهايته فينجلي ويثبت اكثر
فاكثر للقارى مع استطراد البحث .

بخصوص الاساليب ، فاننا كما قلنا سنجتزئ ببعض ما
تبعه رئاسة الشركة منها ، لكونها المثل الاعلى للجميع في هذا
الباب . والان تفضل وتمعن في بعض الطرف والتحف :

في عام ١٩١٦ لم يجد « شرف » انكلترا الشهير سلاحاً
لمقاومة عدوها الا « رعن » ، الملك « ليدج ياسو » ، خيراً من
استغلال النعرة الدينية وتبليغها حدود المسترة التي تقطف اثمارها
بسهولة . كان هذا الملك كثير الميل والتذوق للعادات والامور
العربية ، حتى انه اخذ يظهر بين صحبه من العرب في كامل قياقتهم .
وكانت النتيجة ان صورته بعضهم وهو في هذا اللباس ، وان
طبعت منها مئات الوف النسخ في الخرطوم . ثم وزعت في
طول الحبشة وعرضها كدليل على ثبوت اتهامه بانقلابه مسلماً ،

(١) راجع له سلسلة مقالات نشرت في الاهرام في اعداد مختلفة من

وبذلك كانت نهايته . ويروي الصحفي الهنغاري « لاديسلاس فارغو » في كتابه « الحبشة عند مسائها » ان الذي لعب الدور الاول في رواية الثعالب هذه كان الجاسوس الانكليزي المعروف الكولونيل لورانس . يقول ان لورانس المذكور زار الحبشة تلك الاثناء وقضى فيها بضعة اسابيع ، حيث قبع يغزل غزله (١) .

وهكذا نجد ان من أثار فتنة الاحباش على ملكهم باسم المسيحية وبغضاً بالاسلامية هو ذات الذي لعب بالعرب باسم الاسلامية وغراماً بالعربية . هو رسول اسيا دبريطانيا الذين خرجوا راجحين في كلا الصفتين المشينتين . ولنا بهذه المناسبة ان نتذكر كيف استعمل الانكليز نفس طريقته هذه مع ليدج ياسو ضد امان الله ، ملك الافغان المصلح ، وكيف يتبعون امثالها في كل أرض تطلب التحرر ولقدّمهم فيها مكان يدوس . لنا ان نتذكر مناشيرهم التي يلقون بها من طياراتهم في الهند ضد الهنود الشيوعيين . لنا ان نفكر بكونهم حماة جميع الملل الدينية ، مشجعيها ، مناصري مجامعها ورجالها وجرائدها ، للفرقة بين الشعوب . لكي يجنّوا الشعوب فيسهل

عليهم استثمارها . الى آخره ! هذا وتحسن الملاحظة بان طغيات الجواسيس والدساسين والمحركين في خفاء السرايب غير المنظورة من امثال لورانس ابن الاركان الركنة في الامبراطورية . هناك جيوش منهم موزعة في كل ارض ، يلبس افرادها كل قناع معروف ومجهول . لكن المعروف غير المجهول من أمر « الانتليجنس سرفيس » ولواحقها ، هذه المنظمة المريبة التي لا تأنف يدها من شيء ما تغمسها فيه ، كثير ولا يحتاج الذكر . انه يحتاج التنبيه فقط .

في آذار ١٩٢١ تذرعت الحكومة ذات الجلالة بغارات قبائلية وقعت جنوبي الحبشة على حواشي « كينيا » والسودان ، ولم تكن اسبابها معلومة (!) لوضع قنصل بريطاني محاط بالجند والشرطة كأنه دولة قائمة بذاتها ، في بلدة « ماجي » الواقعة في جنوب غربي الحبشة . حجتها كانت في انها تريد التعاون مع الحبشة على ايقاف هذه الغارات ! ولما أخفق هذا المسعى للاستيلاء على شرحة ما ، راح كتابها الاذكياء يقولون بان السلطات الحبشية تعرقل اعمال بريطانيا السلبية في قمع الغارات الحبشية .

أما رحلات المحسنين وبعثاتهم فطريقة لا بأس بها . ومن

الامثال الجميلة على هذه الارساليات باخرة باسم «السيدة بايكر»، سيرت في اعالي النيل ونهر «الصوبات» عام ١٩٢٢ . جعلوها مستشفىً عاماً لتطبيب الاهالي مجاناً ، « لا اكتساب وداد المتوحشين المحليين » كما يقولون ، وربما لتحويل وداد المساكين الى بذرة حرب اهلية تذهب هباء بالبلاد والمتوحشين وحب المحسنين جميعاً — في لهب منير .

السودان بريطانية طبعاً . لكن حكومتها تلقب « بحكومة السودان » . اما هذا الاستقلال باللقب ، فالمراد الحقيقي منه ان يكون الدفع والعمل من اهالي القطر ، والمسؤولية المادية والادبية في شذوذ التصرفات واقعة على عاتق دولة وهمية اخترع لها اسم « كوندومينيوم » ، بينما قبض رصيد الغنائم يكون من وظيفة اللوردات واصحاب الفبارك والشركات والمصارف والاسهم في حي « السني » في لندن . السودان هذه ، طريقة لها ميزاتهما في الاقتناص من جاراتها ، وخصوصاً الحبشة . عام ١٩٢٨ ، مثلاً ، شنت فرق من جنود الدولة الوهمية غارات على الحبشة . لماذا ؟ لان القبائل الحبشية على الحدود كانت تغزو ، باسم الحبشة ولكن بدافع اسباب عليها عند اصحاب العلم ، القبائل التي تنسب الى السودان . هذا ، وقد وضعنا

لفظة « مثلاً » في سياق الكلام ، لان هذه التفاعلات والمصادمات المبهمة تبقى قائمة على قدم وساق كالحركة الدائمة حيث يوجد للكاتا لايزر قدم وساق . هي لا تختص بعام دون عام ، ولا حتى بشهر دون شهر .

مثل آخر نزعج به القارىء لزيادة التنوير . في ربيع ١٩٢٩ كان وجود الكاتا لايزر (ولا يجب ان ننسى ابدأ بان اهم صفة للاستعمار البريطاني مقترنة مع طبيعة هذه المادة) باعثاً لاندفاع قسم من قبائل « التوركانا » ، التي تقطن مستعمرته في كينيا ، الى التعارك مع بطون من « الموريلى » و « الدونيرو » الحبشية . ارادت بريطانيا (اي السودان) ان تتخذ هذه المعارك حجة على التدخل . لكن الحكومة الحبشية أسكتت صوت الفتنة بعزم ، فكتب بعد ذلك احد « شعراء » الامبراطورية يقول : بنادق الملك (يقصد جلالة الملك جورج الخامس الذي احياه يوبيل فضي في عام ١٩٣٥ ب م م) - بنادق الملك الافريقية والقنصل المقيم في « ماجي » ، بمساعدة (فقط !) السلطات الحبشية ، قد حسنوا (فقط !) على امل قيام « بنادق الملك الافريقية » بزيارة التحسين ! (الموقف » (١).

(١) كل ما بين الهالين من التعليقات والتفسيرات للمؤلف وذلك ظاهر لكونها

ليست مصبوغة بطابع « شاعر الامبراطورية » المستشهد بكلامه .

هذا، وحتى الساعة لا يزال عاهل « ماجي » الصغير يشكل نواة تلتف، حولها مشا كل لا تنقطع، فيرفع من بعدها كتاب وشعراء الانوار الاستعمارية عقائرهم ليطالبوا من تشع هذه الانوار عن وجوههم بان « يضعوا الحدود لتلك المآسي » ! — المآسي الموجودة الان في العالم مواد كاتالازيرية منشورة في سبيل ما لا يؤدي الى الفضيلة والخير والمحبة بين البشر . مثل حوادث الحدود الحبشية تجري الامور في معظم المستعمرات البريطانية المتاخمة لاراض غير مستعمرة بعد ، حيث لا تهدأ اصابعها عن طلب الاختفاء في اعشاش الاجمات الضائعة . وعلى ذكر الحدود المفقودة ، الشبهة « بالرمال المتحركة » التي تبتلع الناس ، لا نظن بان هناك بأساً من ان نذكر ايضاً بانه كلما فوحت بريطانيا بمسائل الحدود ، لكي تتعين بذلك المسؤوليات فيها تزعمه وتثيره مع « جيرانها » ، عمدت الى المراوغة والتخلص . حاولت الاختفاء بخفة الارنب وتواري الثعلب . وذلك لان لا حدود للامبراطوريات التي تعيش على حياة الشعوب ، لان الابهام والظلام خير مساعدين على مدها اليد الى ملك الملايين وحربتهم ، ولانهما يؤلفان أروع جو تستعرض فيه احلام امتلاك العالم وتطبق فيه ، متفشية كالآلوة التاريخية المحتاجة ،

التي لا تقف ولا ترحم ولا تسمع انين قتلاها .
 من غرائب البراعة المنتشرة حيث ينتشر الاستعمار ،
 ان بريطانيا توصلت مرة (مرة كمثل) الى جعل الحبشة
 تضع في ناحية من الحدود حامية قوية تكون هي مسؤولة عن
 اعمالها وتسديد نفقاتها ، لالشي* الا لحراسة المصالح البريطانية
 وتمهيد توسعها ! على رأس هذه الحامية وضع قائد يصفه
 « ماكىكل » ومن يزينون الوجه ببراقع جلدية بالقول عنه
 انه « قدير » . ولا شك بان اقوال مثل هؤلاء هي ايضاً
 مقدرة حتى قدرها . فان واحدهم لا يلبث ان يعلق بالاطراء
 على شي* حتى يكون اطراؤه الاشارة الخفية التي يفهمها اللبيب ،
 فتهتك رغم براعة التستر .

ومن هذا القبيل في استعمال الاشارات تعليق « ما كمل »
 على قضية تلك الحامية وقائدها بقوله : « ان الحادثة تبشر خيراً
 للمستقبل ، لكن التوصل الى التأمين الثابت (الا من
 والتأمين ، الضمان والتضمين ، وهلم جراً هي « بريمات » الالعب
 الاستعمارية في كل مكان) ليس ممكناً بدون شي من التعديل
 يدخل على الحدود ، فنتقل جميع المستنقعات (مستنقعات —
 شي* تافه !) من تحت حكم مقسم الى موحد ا » (١)

(وتفسيراً : من الوضع المبهم لتعدي بريطانيا على أراضي الحبشة الى قبضة استعمارها « الموحد » !) (١)
 يقول الكاتب المذكور ايضاً : « قد يكون لوحظ بانه منذ ١٩٢٧ اخذت الفعالية العسكرية لحكومة السودان تقوم على الحواشي الحبشية » (٢) . اجل ، ان فعاليات « حكومة السودان » تستهدف الحبشة ، تشن الغارات ، تعكر صفو الامن وطمأنينة الاهالي المسلمين . هي فعاليات تتخذ من جملة حججها مقاومة تجارة الرقيق ، بينما اسياذ الرق البشري نواصع الجبهات . وتتخذ ايضاً حجةً في القول بوفرة السلاح عند القبائل وفي الواجب (يا مسكين !) الملقى على عائق اصحاب المدافع والطيارات وبقية قائمة هذه الاشياء بنزعه . هذا ، بينما السلاح الذي في يد ابناء تلك القبائل ما هو الا احداثين : اما عتيق بالي يرجع الى ايام الدراويش واما — (لا تضحك ، كما يقول قائد عظيم) جديد ، بديع ، ماركة « ريمينغتون »

(١) من طريقتنا في الكتابة ، اداة المذنب من فمه ، لذلك فانا نمسك في الغالب واحداً من نفس المذنبين للمناقشة دون التجاء الى الشهود ، وهم كثر . وبهذا لا يمكن ان يقال باننا لم ننظر الا من جانب واحد ، جانب ما يقوله الخصوم او المحايدين الذين يمكن ان لا تكون نظراتهم صدقتهم . بذلك لا تكون قد اخذنا الافادة من احد غير الذي هو صاحب المصلحة في التلاعب بها

(٢) ، السودان الانكليزي المصري ، ص — ١٨٦

الاصلية (١) . . . هذا حقاً اسلوب جميل . لكنه معروف غير جديد .

تلك هي الاساليب . اما المعاهدات ، نتيجة الاساليب ، فهاك نظرة عليها :

جاء في معاهدة ١٩٠٢ التي عقدت بين الامبراطور منليك والكولونيل « هارينغتون » ، بالنيابة ، عن حكومة ذات الجلالة ، كون على الحبشة :

« أن لاتبني او تسمح ببناء أي إنشاء عبر النيل الازرق وبحيرة تسانا (منبع النيل الازرق) ونهر الصوبات ، مما قد يؤخر جريان مياهها الى النيل ، الا بموافقة حكومة جلالته البريطانية وحكومة السودان » .

أن « لايجري أي تدخل في مياه النيل الازرق وبحيرة تسانا الا بعد استشارة حكومة جلالته البريطانية وحكومة السودان . انه في حالة حصول شيء من هذا التدخل ، وكل الشروط الاخرى فيه معتبرة ، يكون التقدم فيه لاقتراحات حكومة جلالته البريطانية وحكومة السودان . وان جلالته

الامبراطور منليك لا يخطر له بان يعطي اي امتياز بالنظر الى النيل الا زرق وبحيرة تسانا الا لحكومة جلالته البريطانية وحكومة السودان او لاحد رعاياهما .

ثم ، بالاضافة على هذه المعاهدة التي وضعت الاساس العملي والعلني والحجة والوسيلة الكبرى بيد الاستعمار الانكليزي ، أعطي للانكليز ايضاً باسم « حكومة السودان ! » دوائر نفوذ حول المناطق المذكورة في المعاهدة وسواها تحت لقب مضحك هو : « محطات تجارية » ! وانتزعوا ايضاً ، على ذمة كتابهم ، حق بناء سكة حديدية عبر الاراضي الحبشية لوصل السودان بمستعمرتهم « اوجاندا » وهذا اذا تم . يقسم ظهر الحبشة مقطعين . ومن يعيش بظهر مقصوم ؟

وفي ١٩٠٦ تبرع الايطاليون ، من « حقوقهم » التي اغتصبوها او « نصبوها » من منليك (١) لاحبابهم اولياء نعمتهم الانكليز ، بما جاء في تصريح الدولة الايطالية التالي في ذلك العام ، من انها : « وهي محتفظة بحقوقها في مياه نهر

(١) كان الايطاليون بعد اذ احتلوا الساحل الاريثري ولم يعد في الامكان اخراجهم خصوصاً بريطانيا تافع فيه قد قطعوا الحبشة باحتلالهم هذا عن منفذ الى البحر ولقاء هذه الضربة اعطوا منليك مبلغاً من المال ، فلم يعد امامه الا ان يرضى او يحارب . لكنه رضى ، باعتباره ذلك اخف الشرين .

« الغاش » المارة بالاراضي الايطالية ، تقوم ايضاً بتعديل مجراه فيما يختص بنظام المياه بالاتفاق مع حكومة السودان وبوحي مبادئ الجيرة الطيبة ! ، هذا ، ولا حاجة الى القول بان هدية ايطاليا هذه لسيدتها الكاتالانيزرية ، التي قدمتها لها كشمن على ما تكبدته هي (اي ايطاليا) من اعباء الفتح في الحبشة ، تترك لها الاربتريا ، وهي لا تملك سوى « الحق » الاسمي في مثل مياه نهر « الغاش » ، كشيء لم يكن في ذلك الوقت وحتى هذا الوقت إلا رمالاً صفراء وشمساً وهاجّة مذيبة ، بعض مدينتا وقرى ناعسة حولها بعض قبائل متنتلة تائهة .

منك الدقيق ومني النار اضرهما ! .. « من » انكلترا الغنيمة ومن ايطاليا الثمن اموالاً وارواحاً ! الى آخره ... ثم ، عدا هذا التصريح وتلك المعاهدة واتفاقات كثيرة اخرى لا مجال لذكرها ، نجد ان بريطانيا وضعت بيدها حجر الاساس في الاتفاق الثلاثي الشهير الذي عقد في ديسمبر ١٩٠٦ بينها وبين فرنسا وايطاليا ، والذي لم يكن اكثر او اقل من مخالفة ثلاثية على اقتسام الحبشة ، بعد ان تأكد لكل من هذه الدول — وأبعدها نظراً انكلترا طبعاً — استحالة هضمها على واحدة منها بمفردها فحسب ، بل حتى صعوبة ذلك عليهم

مجتمعين بدون تنافس ، الامر الذي هو الاخر يصعب حصوله .
 وكانت تقسيمات الغنائم المنتظرة لهذه المعاهدة تابعة للقاعدة :
 لبريطانيا لقمة الاسد ، وللآخرين ما يفضل ، يوزع عليهم
 بصفتهم حلفاء اشبه بأمناء الخاصات الملكية . أمناء يشاغبون
 على سيدهم ، مع ذلك ، ويضجون حول رأسه ان لم يبدل
 لهم الاجرة والبخشيش . بل وقد يتحمسون حتى ليعمدوا الى
 عرقلة تنفيذها ، كما فعلت فرنسا . ولكن رغم كل شي تبقى
 بريطانيا اكثر الشركاء أسهماً وارباحاً . هي في معاهدة ١٩٠٦
 مثلها في اتفاقات قناة السويس ، مثلها في اتفاقات « سايكس -
 بيكو » السري اللئيم الذي فضحه اصدقاء الشعوب المظلومة
 من البلاشفة ، مثلها في عقود اراضي النفط العالمية ، مثلها في
 درجات النفوذ الاستعماري في مختلف بلدان الشرق من
 الصين حتى الجزيرة العربية الخ . . . لها الغنيمة الكبرى اللينة
 بأقل التكاليف الممكن . لسواها البلغة الصغرى القاسية باهظ
 تكليف ممكن ! . . .

في معاهدة ١٩٠٦ تلك تعهدت فرنسا وايطاليا بان تضمنا
 نفسيهما « مصالح بريطانيا العظمى ومصر » (خذ بالك : « مصر » ،
 مثل « السودان » ، لفظة مرادفة لبريطانيا في قاموس الاستعمار)

في صحن النيل الخ . . . » . مقال ذلك وعدت بريطانيا ببعض المساعدات . والنتيجة كانت ان بريطانيا ضمنت صحن النيل ، بل ملكته ، ان ايطاليا ربما نالت بعض التوافه ولكنها غير معروفة لضآلتها . وان فرنسا اخذت بعض امتيازات وهمية لم يكديتم منها سوى تسهيل تكميل امتيازها القديم الذي اخذته من منيليك والمتعاق بالسكة الحديدية الممدودة من جيبوتي الى اديس ابابا . ولو لم تكن الحبشة « جلدة » أي جلدة سمكة ، لانتجت معاهدة المتمدنات الثلاث اكثر الله من ذلك طبعاً .

بعد فترة ١٩٠٦ جاء دور من التراخي ، رجوع التحاسد والتنافس فيما بين الدول الثلاث ، مناوشات صغيرة ومؤامرات جزئية لم تنته الى اتفاقات ذوات بال . ثم جاءت الحرب الكبرى ومعها مؤامرات كبرى ايضاً سبق ذكر شي منها في فترة الحرب حاول كل الطرفين جر الحبشة معه ، ولكن الدور الحكيم الذي لعبته تركها على الحياد . لعب احسن ما في ذلك الدور ولي العهد الرأس « تفري ما كونن » ، وهو اليوم الامبراطور « هيلاسيلاسي الاول » . هذا الرجل يذكرنا برجل شرقي قوي آخر عاند وعاكس في انحدار بلاده الى بالوعة المجزرة العالمية . هو مصطفى كمال الذي لم ينجح كزميله

في صد تيار المطامع الصغيرة ، التي كانت لحكام تركيا ، عن
كب شعبهم البائس الشجاع في الثورة . غير ان الحوادث لم
تترك الحبشة في اطمئنان انزالها . بل أنزلتها في فح معاهدة
اخرى لم تكن تدري شيئاً منها .

هي معاهدة لندن السرية ، عام ١٩١٥ ، التي اقصد . باعت
بها ايطاليا حليفها المانيا واشترت الحلفاء الاخرين . او قل
اشتروها ، ومن جملة الاثمان التي دفعت لها فيها كانت الحبشة .
دفعت لها ، بلى . ولكن عليها ان تقبض ! ان ايطاليا الفتاة ،
المستعمرة الفتاة ، لما تزال غرة ساذجة بالنسبة الى القوادات
الشائعات . لقد ارادت ان تغازل بريطانيا بانضمامها الى المانيا ،
وقالت : ربما فازت الاخيرة . لكن ما عتمت ان دخل
قلبا الرعب ، فخانت الحبيب الجديد راجعة الى الحبيب القديم .
وهذا نقدها على مغازلاتها درايم ورق ، قصاصات ورق على
حد تعبير الوزير الذكي « بيتمان هو لفيغ » قصاصات معاهدة
لندن . ظنت ايطاليا انها ملكت الحبشة بها .

ثم راحت الحرب وجاء مؤتمر الصلح جاءت معاهدات
جديدة كلها ملفوفة باعتناء ومربوطة بشرائط حمراء وخضراء
وزرقاء كشهادات الطلبة المزهويين . وكان ما كان من

رويات. كان ما كان من التهامات عب فيها المؤتمرون كالخنازير في الزبالة . وكان ان ايطاليا لم يسمح لها بالاشتراك في ولهمتهم، فكانما عادت في نظرهم حرف علة او فعلا ناقصاً . لم ينتبهوا حتى الى انها وجدت في يوم ما ، الا حيث يدور مندوبوها معهم في حلقة الذكر حول موائد المؤتمر . ومن ذا الذي يمنع احداً عن حب الله؟ غير ان رقصة الدراويش وحدها لم تكن تكفي احلام رأسماليهم . لذلك فقد جرت بين المجتمعين حول الطاولة الخضراء التي أعدت في « فرساي » تقسيم الشعوب هذه المحاورة الصغيرة :

قالت السنيورا : الحبشة !

فانشأت بريطانيا وفرنسا (وقد جلستا في شخصي لويد جورج وكلمانتسو عن جانبي اميركا في شخص ولسون ، كصاحبي موسى يرفعان يديه المبتهلتين على الطور) — انشأنا تقولان :

— شأنك وشأن الحبشة . وما دخلنا نحن ؟ وما نخصنا

هذه المسألة ؟ ولم التكلم في موضوع بعيد غير حيوي ؟

لم تقولوا « كلا » ، لئلا يحصل لحس امضاء ، مع ان هذا التعبير وما قالوا يعنيان بالنتيجة شيئاً واحداً . الا ان ايطاليا

ذكرتهما بالامضاء :

— والمعاهدة ؟ ها هي في الجيب ايها الحبايب !

فاجابنا: اجتمعنا للصلح والسلام لالحرب والحضام. ومن يأمر كائنها
السنينورا بان لاتذهبي وتمدني الحبشة؟ اتظنين اننا نتناول سوريا
والعراق وتركيا والसार والتعويضات بتوقيعنا الشريف فحسب؟
فسكت السنينور الذي يمثل ايطاليا . ولما كان توقيع هذا
السنينور شريفاً لا غبار عليه ، ولما كانت الحبشة تحتاج ثلاث
دول كايطاليا المنهوكه يومئذ ، وما يزيد على خمسين وزيراً محكماً
« كاورلاندو » و « جيوليتي » وشبهها ، فقد بقيت المعاهدة
حبراً على ورق في متحف الاتيكات الاستعمارية ، وبقيت
الحبشة على الخريطة بلونها الخاص ، والتهى بقية الشرفاء في
استذواق طعامهم في كل مكان غير الحبشة . كان لهذه في
حسابهم وقت غير ذلك الوقت . وحسابهم لاريب ، دقيق .

إلا ان لهذه الرواية نكتة تنتهي بها . ذلك ان بريطانيا ، التي
كانت ممن وعدوا ايطاليا بالحبشة في معاهدة لندن ، اخذت
منها لقاء هذه الهدية الخيالية السرية هبة علانية ملبوسة تستطبع
ان تقبض عليها بشيء من الجهد والتضحية واغتنام الظروف
اخذت هذه الهبة ساعة كانت تماطل ايطاليا في فرساي وحواليها ،

عندما راح كل كلب يطلب عظيمته . في ذلك الوقت ، في ١٩١٩ ، صرحت ايطاليا بمذكرة رسمية انها تعترف بالسيطرة الاولى للمصالح البريطانية على مياه « تسانا » ، وانها تقدم ، عند ما تطلب « حكومة السودان » ذلك ، المساعدة اللازمة لاقامة خزان عند تلك البحيرة . وبهذه التصريح أضاف الكاتالايذر الى أوراقه وحقوقه التي اخذها من « منيليك » بخصوص مياه تسانا (فضلاً عن تصريحات ايطاليا السابقة بخصوص مياه واشيا . اخرى في الحبشة والاثريريا) ورقة جديدة وحقاً جديداً أخذها من ايطاليا . أعطت ايطاليا هذه الهبة لانها لم تكلفها شيئاً من جهة ، واملأ بان « تسهل لها انكثرا الحصول على بعض مطالبها » ، اي على تحقيق نص معاهدة لندن بشأن الحبشة ، من جهة . لكن المعاهدة لم تتحقق ويصعب ان تتحقق . اما غنيمة الكاتالايذر فتكاد تكون في اليد .

بعد ذلك جاء الى ايطاليا دورها الاستعماري المتطور ، الملهب ، المتعطش الى الدرهم والدم ، بمجيء النقمات الفاشستية الصياحة ، المجسمة في شخص رئيس لها كان انساناً قد باع شعب بلاده لاسياد فتاكين يدعى « بنيتو موسوليني » ويقلب بالدوتشه وبالديكتاتور وبما على هذا الوزن الالهى من

الاسماء . وكان من جملة تلك النقمات التي لا تحصى واحدة ضد انكلترا من أجل الحبشة ، واخرى ضد فرنسا من اجل مقاطعات كثيرة ضمن قائمة وهمية طويلة من الاحلام الرسمية . وهنا نصل الى موقف أصرح نوعاً من كل ما سبق . موقف تميل الكفة فيه بالدول الثلاث المحيطة بالحبشة الى التنافس على غريمتهم اكثر مما تميل الى الاتفاق عليها وتقسيمها . هذا ، وإن كان التذبذب بين ذينك القطبين هو ، كما نردد ، أبدأشأن الاستعمار في كل دور حديث من ادواره وتجاه كل منطقة يسيل لمنظرها لعبه ، حتى انك لا تدري متى ينفجر تحابب اصحابه تذيحاً وتدميراً ، أو في أية دقيقة يقتل تحاربهم فتلة بدون بعدها كانهم اصبحوا عشاقاً لا تجنهم في بعضهم الا العيون .

منذ ذلك الوقت (١٩٢٠ - ١٩٢٢) حتى اليوم والدول المحيطة بالحبشة كالكلابات بالعنق لم تتفق مرة واحدة عليها اتفاقاً ثابتاً ، اميناً ، طويل الأمد نوعاً . كانت لا تلبث ان تبدو كأنها انفقت فيما بينها حتى ينشب الاختلاف ، فالتشائم في اجمل القوالب . ألا أن الذي وضع « باتوميم المائدة الخضراء » قد صور جماعتنا هذه تصويراً عبقرياً للاجيال القادمة من بيننا الذين سيقون بعد خراب عصر الرأسمالية

والاستعمار (١)

والان لنقرر بان هذا الميلان نحو التنافس على الحبشة هو العبرة التاريخية الكبيرة التي فصل اليها في هذا الفصل . فلنتبعها قليلا بعد اذ عرفنا شيئاً عن القوى ودرجاتها ، عن الاساليب ، عن المعاهدات ونتائجها .

اذا كانت البلاد التي يستهدفها المستعمرون شديدة ومنيعه، مخنكةً وذات موارد اقتصادية واسعة ، ويستند الحاكمون فيها على محبة الشعب وشعور وطني قوي عنده وإرادة مخلصه لثروته ، فان تلك البلاد لا يستطيع ان يتفق عليها المستعمرون . لا يستطيعون ان يقتسموها ايضاً ، كما لا يمكن لاحدى الدول المستعمرة ان تلحق باملا كما جملة تلك البلاد وان جزت منها بعض التخوم والاطراف . وذلك لسببين :

اولاً — لتناقض مصالح تلك الدول وعدم قابليتها الائتلاف الا عرضاً وسطحياً . مثلاً : يمكن اليوم لانكلترا وايطاليا ان

(١) البانتوميم، تعني الرواية الصامتة التي يتكلم الممثلون فيها بالرموز والاشارات اماهنة التي تذكرها فهي قطعة لم ار اروع منها في مثل هذا الفن ، وقد شاهدها في الكازينودي باري في عاصمة الكومون . . موضوعها كان يدور حول موتمرات السلام ونزع السلاح التي تبثديء بالخطابات وتنتهي بهالين الاموات تهكمها المحزن المرير كان من اسمى نوع وقد نالت جائز تقولية كبيرة

تتفقا على تقسيم الحبشة حياً ببعض الغنيمة طالما لا يمكن لاحداهن الحصول عليها كلها . ولكن ما ان تتفقا حتى تصطدما ، لان انكلترا تجد ايطاليا الاستعمارية الجديدة توشك ان تربض ، بقسمتها الجديدة المضافة الى املاكها الشاطئية السابقة ، في قلب امبراطوريتها ربضاً مزعجاً جداً . كما ان ايطاليا بطبيعتها التوسعية ما ان تظن انها ضمننت القسم الذي اخذته حتى تأخذ في الاتجاه نحو البلاد المجاورة التي تخص انكلترا ، فترسل دعايتها بين اهاليها وتحضر فيها مؤامرات من كل الانواع ، مما يعني انها اصبحت تناصب حليفها العداء بسرعة ، حتى قبل ان يتم الاستيلاء على الغنيمة . وهكذا . . .

ثانياً — لان البلاد المحنكة ، الشديدة البأس والمراس والروح القومية ، ذات الموارد الواسعة والتي يستعد حكامها للسير بها في سبيل الاصلاح السريع ، تاخذ عند اول بادرة تبدو لاتفاق الدول المستعمرة عليها بالتلويح لاحداهن (او لبعضهن) بشي من مواردها التي لا يؤثر عليها اعطاؤها ، بل التي قد يفيدها ويأتيها بمبادلة منافع جيدة اذا عرفت كيف تستعمل هذا الاعطاء . فتكون النتيجة ان الدولة (او الدول) التي عرضت عليها المغانم تغتر بها ، اظنها بانها ستربح الربح

منفردة ، وبأنها ستحرم زميلاتها من اي شي* فيبقين دونها في الميزان الاستعماري . لذلك لا تلبث ان تخرج من عصابتهم خروجاً مقاوماً لهم . ، مؤدياً الى استقرار التنافس فيما بينهم بعد ان كان بينهم جميعاً وبين البلاد المستهدفة . وفي الغالب تنتهي المسألة الى ان لا تعطي هذه الاخيرة شيئاً ، بل وقد تأخذ . وفي باب التلويح بالغنائم لواحدة من الدول المتفقة (أو لبعضهن) تهددها اياها ايضاً بان تعطي سواها . وهكذا نجد البلاد المستهدفة تملص من بين مخالب الدول المتعدية ، فتوجه خنجرهن المسموم الى قلبهن بعد ان كان موجهاً الى قلبها .

هذا الامر الذي يمكن ان يعتبر كقاعدة في علم السياسة وفنها قد أيده الواقع العملي تأييداً لا يقبل المناقشة الكثيرة . فان بلاد السوفيات ، تركيا الحديثة ايران الحديثة والحبشة استطاعت حتى اليوم ان تعدي الدول الرأسمالية عنها لكونها حازت على تلك الشروط من شدة مراس وحنكة في قوادها وشعبها ، من موارد واسعة ومواقع مفتاحية « استراتيجية » او سياسية دولية وطبيعية « طبوغرافية » (١) ، واخيراً من حب الشعب لمن

(١) الموقع المفتاحي « الاستراتيجي » (اي من وجه الفن الحربي) هو المكان الذي يعطي المستولى عليه قدرة او ما

يحكم بلاده وعمق شوره الوطني وعمل ذلك أو اولئك الذين

يسمونه « افاتأجأ Advantage على العدو لسد الطريق امامه ؛ او لفتحها امام ذلك المستولي ؛ بقوة اقل من قوى ذلك العدو . مثلا : جبل طارق وحصونها ؛ مضائق الدردنيل ، العقبة والسويس ، فلاديغوستوك وطياراتها التي تستطيع ان تمحق قلب اليابان وتعطل دماغها الاداري والصناعى قبل ان تستطيع هذه الدولة العسكرية السخيفة حتى التحرك في حواشي بلاد السوفيات ، خط السد البحري الجزائري الذي يمتد من جنوبي ايطاليا عبر صقلية حتى خليج تونس والذي تستطيع حتى دولة محطمة منحلة كاطاليا ان تلغمه وتحصنه وتسلط حواليه اسرابا من الطائرات بحيث تقطع به الطريق بين بريطانيا وامبرطوريتها الاسيوية الافريقية قطعاً قتالاً لها . هذا وهناك اما كن كثيرة يظنها الناس مفاتيح هامة ؛ بينما هي في الواقع اوهام وخيالات مرصوفة ، والمثل على هذا تجده في قواعد « سنافوره » الهائلة التي ليس لها فائدة عملية كبيرة تتناسب مع ضخامتها والقصد منها حتى ولو كان القصد دفاعياً لا هجوماً . اما الموقع المفتاحي من الوجهة السياسية الدولية فمن خير الامثال الموضحة له موقع تركيا وايران الملاصق لبلاد السوفيات . فهذه البلاد التي لاتعيش من اسلاب الامم المظلومة في الخارج بل من انتاج النظام الاشتراكي في الداخل لا تحتاج الاستعمار وتكرهه

يحكمونه على الاصلاح الانقلابي السريع في مصلحة الشعب .
ان اجتماع كل هذا او معظمه قد انتج في تلك البلدان تلاعباً
بالدول الاستعمارية يعطل تلاعب هذه بها . ولا يقل الحديد
الا الفولاذ !

اما كيف تتجلى لنا تلك القاعدة الاستعمارية بالاقتران مع
الحبشة ، فبنظرة صحيحة بسيطة نلقينا على تنقلات خطى انكلترا
وايطاليا وفرنسا من حولها ، منذ الهدنة حتى اليوم ، يلبس تلك
القاعدة تشكّلها الحي وبرز ثبوتها القوي بجلاء ومحسوسية

وتساعد الشعوب المظلومة ضده . وقد ساعدت تركيا ويران فاستتب
تحرر هاتين الدولتين وطعنت المستعمرين ، وفي طليعتهم بريطانيا ،
الطعنة النجلاء بذلك .

واما الموقع الطبيعي « الطبوغرافي » للبلاد فهو صفاتها
الجغرافية الخاصة ، كالجبال والامطار والصحراوات الحبشية مثلاً ،
التي تجعل فتحها من اجل الصعوبات ، وكمسافات الشاسعة التي
يتألف منها اتحاد الجمهوريات السوفياتية والتي تكفل ، بالاضافة
الى جميع العوامل الاخرى ، استحالة التغلب عليها ، وبالتالي
استحالة القضاء على اساس النظام الشيوعي وبذرتة المولدة مع
امكان القضاء السريع على النظام الرأسمالي واصحابه وديكتاتوريه
وحالبي شعوبه

رائعة في تفكيرنا .

بعد الهدنة غرقت الرأسمالية الايطالية في خضم من مشاكلها وفخاخ صنعها حتى خلقت وسلطت الفاشستية سلاحاً لها تخلصها (١) ، هذه الفاشستية المدمرة الرعناء التي تلقت مساعدة لا يستهان بها من الرأسمالية البريطانية نفسها . والرأسماليان البريطاني والفرنسي من جهتهما كانتا منشغلتين بجعل دولتيهما توطدان استعمارهما في ممتلكاتهما الجديدة ، في استغلال معاهدة فرساي واستحلاب المانيا بكل ما عندهم من جهود ، في الانهباك بتوسيع الاسواق الموجودة وجنأ الارباح الهائلة . لكن ما ان ارتاح بال الرأسمالية الايطالية قليلاً ، واطمأنت تنفس الصعداء الى نعومة فراشها الفاشستي الوثير ، وما ان تسهلت حركة دواليب الاستعمارين البريطاني والفرنسي من جديد وانغمست التاهما تدوران بتوطد وقوة استمرارية ، حتى رجعت قابليات الثلاث الى ضجيعتهن الافريقية المنشودة

(١) انظر الكتاب الثاني من الجزء الاول من محميات في العرب ، حيث الفصول المعقودة على ايطاليا الفاشستية . وانظر كذلك كتاب دالم خطه البديع « الفاشستية والثورة الاجتماعية »

تنبض وتوقد . رجمن يحرقن التفكـكـير بها ويقسمن في
جداولهن انخاساً على اسداس لعل النتيجة تكون بدون كسر .
تارة يحاولن ادارة المربع وتارات يحربن تربع الدائرة !
كان الخوف في ذلك الوقت على الحبشة من بريطانية اكثر
منه عليها من زميلتيها الاخريين . وكان خوف الزميلتين عليها
شديداً لانه كان يصعب عليها ان تقتحما الحبشة فيما اذا
سارعت بريطانيا الى ذلك ، أو مدت يدها الى قطعة سميثة .
منها . وكانت ايطاليا اشد اهتماماً بالامر من فرنسا لان
تحمسها الفاشستي الاستعماري المشتعل اشتعالا ، وما سبق من
غمط « حقها » بعدم فرز حصة لها من سلاائب الحرب ،
وانسداد جميع بقاع الارض في وجهها (لانها جميعاً اما مستعمرة
ومنتهية الحساب ، واما اقوى منها ، واما بعيدة جداً عن
متناولها) ، ومركز الحبشة من حيث لصوقها بمستعمرتها في
الاريتريا والصومال ، ومغريات الوان الثراء الطبيعي المكنوز
في ارضها — جميع ذلك دعاها الى ان تعمل على إحاطة الحبشة
بسياج لئلا تقع لغيرها . واذا قيل : لماذا لم تعتمد اليها بالالتهام
واكتفت بان تعمل للمحافظة عليها من مخالب سواها ، كان
الجواب المحكم على هذا السؤال بأن ايطاليا ، وان كانت قد

استطاعت بعد استتبابها الفاشستي ان تفكر في الحبشة وتحيطها بالمداورة والمراقبة ، الا ان جميع الظروف من داخلية وخارجية ، من مادية ومن معنوية لم تكن توافرها بعد على ابتلاع جارتها الافريقية .

في ذلك الوقت كانت امور الحبشة وحياتها السياسية تتمركز شيئاً فشيئاً حول الشخص البصير الفذ ، الراس « تفري ما كون » الذي سبق ذكره . والخطوة الاولى الميسورة التي رغبها ورأى فيها فائدة ودعامة لاستقلال بلاد شعبه ، كانت في ادخالها كعضو الى عصبة النفاق الاعظم يومذاك ، عصبة الامم . ولما تقدمت الحبشة بطلب ذلك الى عصبة الامم في عام ١٩٢٣ ، رأت ايطاليا ان قبولها مفيد لها ايضاً وان العصبة تكون ذلك السياج الذي تحفظ فيه نعجتها من اسد « البيون » و ضيع فرنسا وبقية الثعالب الصغار . فشدت ايطاليا أزر الحبشة في طلبها . ولم تكف بتأييد الطلب فحسب ، بل تقدمت هي نفسها بطلب ادخال الحبشة في حديقة الحيوانات الشهيرة بجمال انواعها وندرتها في جنيف . ثم أيدت فرنسا ايطاليا والحبشة معاً ، برغم العداوة التي كانت محتدمة وقتذاك بينها وبين الاولى بسبب

المطالب والعوائق الموسولينية لاراض ومستعمرات فرنية،
 خوفاً من ان يلتهم النعجة برمتها ذلك الاسد الخبيث الذي
 كان يسبقها الى كل ما لذ وطاب من جسم العالم . ومن
 الطبيعي ان يكون ذلك الاسد قد عاكس المسألة كل المعاكسة
 اجل ، وكانت « زعيمة المدنية » في ذلك المشهد تلطم خدها
 حسرة على اجلاسها بجانب الحبشة في الحديقة ، بجانب هذه
 البربرية التي تأكل اللحم البشري لان بريطانيا لاتستطيع ان
 تأكلها بمحبة وسلام وبركة الله . اجل ، كانت انكلترا يومذاك
 هي التي « تبوق » وتصيح ضد ادخال الحبشة الى الجمعية بحجج
 انها بلاد همجية ، يسود فيها الرق ، لاتتمتع حكومتها بسيادة
 مركزية عصرية ، لاسلطة لها ولا أمناً ولا نظاماً ولا روحاً
 مسيحية ولا ثقافة ولا رأسماليين فيها . لكن ايطاليا بدعم
 عدوتها فرنسا لها غلبت « صديقتها » ومعلمة رأسماليتها وممونة
 فاشستيتها .

وهكذا دخلت الحبشة العصابة ، فكانت هي الكاسبة
 بقوتها ومناعتها على ايطاليا ، وبمحنة المتكلمين بلسانها والعاملين
 لمصلحتها ضد مصلحة اللوردات في لندن . هكذا كانت
 الدول الثلاث خاسرات . وهكذا نجد ان « العداوة »

« والصدقة » الفاظ واوهم في قاموس الاستعمار ، وان الطمع الاشعبي في المصلحة القريبة ، هذا الطمع الغريزي المنغرس في طبيعة الاستعمار نفسه ، يحتم له ان يعمي ابصار المتكالبين الراضخين ، شعروا او لم يشعروا ، لتلك الغريزة الضيقة بمجرد وجودها واستفحال اسبابها .

ثم هكذا ايضاً نجد ان الاستعمار في دوره الحالي (الحادث بعد الحرب) من امتداده وتشابكه ، من تداخله واحتكاكه وتعاكسه في جبهات عديدة في آن واحد ، من انتشاره العالمي الكثيف ورضوخه لعوامل كثيرة جديدة سيأتي تبيان اهمها — هكذا نجد من كل ماتقدم انه يجعل الدول تشقق وتختلط متحاربة ومتحالفة في آن واحد بحيث تتشكل بينها عدة جبهات ، بحيث تحارب الدولة منها في جبهة ضد حليفة لها في جبهة اخرى ، وتصادق في مكان او مسألة او مصلحة اخرى . (مثلاً : فرنسا عدوة ايطاليا في اوروبا وصديقتها في الحبشة . انكلترا صديقة ايطاليا ضد فرنسا في اوروبا وعدوة لها في الحبشة وهلم جراً . . .)

ولو قيل لماذا تحمست ايطاليا لادخال الحبشة عصبة الامم وذلك يقوم عقبة بينها وبين الحبشة كما يقوم بين انكلترا وبين الحبشة ايضاً

لو قيل ذلك لكان الجواب الواضح المفهوم عليه ان ايطاليا الفاشستية في عام ١٩٢٣ ، وهي تفكر بحفظ الحبشة من غلبة سواها بواسطة ميثاق عصبة الامم وهي وراه ، لم تكن تظن كثيراً ان هذا الميثاق نفسه يحفظها منها وسواها وراه ! لقد فكر سياسة ايطاليا (موسوليني ونسخه) بانها حين تصل الى حالة من الاستطاعة المادية ومواتاة شتى الظروف تبذل الحبشة ملفوفة بميثاق او بدون ميثاق ، وذلك طبقاً لروح المبادئ الموسولينية ، طبقاً لتعاليم الفاشستية التي تصرح بكل سذاجة بان القوة حاكم والضعف حمرة وجرم .

وطبعاً ، مثل هذه الغلطة الاساسية البسيطة المظهر ، مثل هذه الخطوة التي تقع على ارض غير متماسكة ثابتة ، هي التي ترقد تحت طيات وطيات من بسط الحوادث وحصر الاوارق وسجاجيد السطوحيات البراقة والثرثرات الفصيحة والمناورات الذكية ، لتلغنها جميعاً في ساعة آتية تنضج فيها الامور . تلغنها باسرها ، من اولها الى آخرها ، وتبقى وحدها الحقيقة البسيطة ، القوية ، العارية عن كل سخف وزينة . وتبقى وحدها ليسقط فوقها كالبرد المنهمر اولئك المتجبرون الذين يركبون البشر باسرجة من الاكاذيب والاعطاء . انهم يستغلون هذه

الأكاذيب والاختطام اسلحة ضد سواهم لفرط ما يسيل من
لعابهم المسموم امام منظر غنائمها السراية القرية . انهم لا
يرونها شيئاً يستعمل ضدهم ايضاً . بل لا يرون بانها ضدهم
بمحض وجودها ، بمجرد ارتكابهم اياها . بانها لا بد من ان
تنقلب الى أفعل عوامل القضاء عليهم ، ساعة يحين الحين بتضخم
ما زرعوا بأيديهم من شرورهم المجنونة تضخماً انفجارياً لا تحتمل
الحياة وقواعدها بقاء اسبابها واصحابها . انني اشبه مثل تلك
الخطوة القلقة بغلط تافه لا يكاد يبين ، او لا يؤبه له وينتظر
له أثر ، او تحول النظر عن رؤياه خيالات ضخمة ، شاحخة ،
غاوية ، تقع في اساس بناء كبير . فيذهب صاحب البناء بعد
ذلك يرفع صرحه ويرفعه مفتوناً بسحره حتى ينتهي منه . فلا
يجد عند ذلك الا والشقوق والتفتت آخذاً بالسريان في بنائه
من اعماقه حتى اعاليه . مبشرة بانهاره او بوجوب هدمه من
قبل مهندس عاقل يدرك اسرار التدمير والتعمير .

بعد حوادث ١٩٢٣ وعبرها . (وكلها ضمن العبرة الرئيسية
التي نوضحها ومن متفرعاتها) ، نامت المسألة الحبشية في
الظاهر حتى عام ١٩٢٥ . اقول « في الظاهر » لان الضجة

والتنافس الحاد الملتهب لم يكن متجلياً على مسرح السياسة الدولية . غير ان الميكروبات كانت تعمل كانت الدول ترقص رقصتها الافريقية الممتازة بتلويحات البطن الكثيرة ، بفتلات السيقان والظهور والعيون وكل عضو من الاعضاء تسري فيه دماء الشهوات المتوحشة عند ارباب الاستعمار الابيض .

وكانت اخبث فعاليات تلك الميكروبات حركة السكاتالايذر الساكنة . فانه ، بما في يده من الاوراق والمعاهدات وبما هو متمتع من التغفل حتى النخاع في كل جسم دولي ، راح يلوح باوراقه وهزهزها في كل جانب ، يعمق تغلغله السري والعلمي ، المادي والمعنوي . كانت تارة يهدد هذه الجهة بما في يده ، وتارة يغرر تلك الجهة بها ، وفي جميع « التارات » يمطر بالوعود ويطيل المساومات على العمولة . اما أنفق دور تصوره فكر لعب في هذا الفصل الحبشي ، فقد كان المسؤول عنه والقائم به سكرتير مجلس الملك اليوم ، الاستاذ رامسي ماكدونالد ، الذي كان في ١٩٢٤ رئيس وزارة سماها سادة الانكليز من قبيل التهمك والتعزية « بوزارة العمال » !

في عام ١٩٢٥ عادة المسألة الى اليقظة وظهر من جديد تفتقات دماسل ميكروبات الزهري الاستعماري على وجوه

اصحابنا الفرسان الثلاث . في ذلك الزمان كانت بعض آمال مستعمري الدول الثلاث معقودة مخالفة ثلاث في سبيل التقسيم . كانت ايطاليا راضية بهذا التقسيم ، تتأمل الحصول على الحصّة الكبرى من الاراضي ، لانها كانت راضية بترقيع امورها الداخلية ، وحشوف رؤسائها الملحاحين بشي ، وتنفيذ ولو بندا واحداً ضئيلاً من الالوف التي بنت عليها الفاشستية مجد ايطاليا « الحديثه » في عقول المغرورين من ابنائها ، وأماره كل صعلوك ومتشرد وجائع في جموعهم الجرارة . ثم كانت انكثرتا راضية لانها ارادت الحصول على مياه الحبشة بأية طريقة كانت حصولاً مقبوضاً عليه ، وذلك لاستعمالها كمرکز لتوسع احتلاي صريح في البلاد ، كضمان ومهيج لمشاريعها الاستثمارية الواسعة في مصر والسودان ، واخيراً لارغام هذا الانف الحبشي الافطس الذي اتعبها جداً لطمه وقرصه وعضه من دون ان يرغب .

اما فرنسا ، فقد سكتت . وبسكوتها بانت نهاية الامل البارق بالتحالف الثلاثي .

تغنجت اللعوبة قليلاً في البدن ، ظانه ان ذلك يجيئ اليها بحصّة تستأهل الاشتراك في الوليمة . لكن لم تلبث ان ادركت

كون تلك الحصة الدفعة لم تكن لها . ثم لم يلبث ان ظهر ايضاً انها غير راضية — بل معادية ! وعلى الاثر جاءت اتفاقيات ١٩٢٥ بين بريطانيا وايطاليا كحركة قد تجعل فرنسا تقبل بالدخول كطرف ثالث كيفما كان الامر ، وبعد ذلك كضربة تنتهي بها المشكلة بوضع الحبشة في الجيوب والخزائن ، بتحرير ارضها وسكانها الى اموال اصحاب رؤوس الاموال .

في ديسمبر تبودلت المذكرات بين الاعيب السنيور والاعيب اللوردات (اي من يسمونهم « رجال الدبلوماسية » في سياسة العالم الرأسمالي . في هذه المذكرات المتقابلة المقبولة جاءت امثال هذه البنود :

١ — بالنظر للمصالح الحيوية التي لبريطانيا العظمى بما يتعلق بمياه بحيرة تانا (اوتسانا) ، تؤيد ايطاليا مطالب انكلترا في بناء سد على هذه البحيرة ضمن دائرة « منطقة النفوذ الايطالي » كما هو محدد في معاهدة ١٩٠٦ .

٢ — تؤيد ايطاليا مع حكومة الحبشة (كذا ! حكومة الحبشة اصبحت بشطحة في سطر تعني انكلترا وايطاليا) مطالب بريطانيا بشق وبناء طريق سيارات بين بحيرة تانا والسودان .

٣ - لقاء هذا يجب ان تؤيد بريطانيا العظمى ايطاليا في بناء وتشغيل خط حديد من حدود الاريتريا الى حدود الصومال الايطالي ، مخترقاً بلاد الحبشة غربي أديس ابا با .

٤ - تطلب ايطاليا !يضاً سيادة اقتصادية مستقلة في غربي الحبشة ، وفي كل المناطق التي يمر بها خط سكة الحديد المذكور اعلاه . هذا الطلب تؤيده بريطانيا . (١)

اجل ، بريطانيا تؤيد كل ما يعطى لها ، وكل ما تعطي لسواها من دون قبض ، وكل ما اذا أعطي لسواها كان كافياً هي التي اخذت ما أعطيت ! غير ان القوة تسد القوة . وفرنسا ، منافستها الثقيلة في اوربا ، رفعت عقيرتها بالتصويت والاحتجاج على قلة حياء زميلتها ، متمسكة في شدة باذيال الحق والحقوق ، وحرية الشعوب وشعوب الحرية ، وعظمة الحبشة ورقيا ، وصدافة فرنسا لها وغرامها ، قائلة بان كل ما اقترفته انكلترا وايطاليا ينافي ماجاء في معاهدة ١٩٠٦ . هذا ، وبالمناسبة ، لا بأس من ايراد نقطة ، هي ان تلك المعاهدة لم تنفها بنود اتفاق ١٩٢٥ فحسب ، بل وانها نفسها تتناقض حيث تعترف باستقلال الحبشة من جهة وتحضر تقسيمها بين الثلاثة المعترفين به من جهة !

(١) وفي الانفاقات وفروعها امورا متباينة اخرى كثيرة ، كالمحطات والطرق والاحتكارات المتباينة الخ...

اما الحبشة ، فانها لما علمت بما يدور عليها ما استطاعت عملا الا ان تواصل ارسال كلمات رقيقة واحتجاجات صارمة الى عصبة الامم ، عصبة انكلترا وفرنسا وايطاليا في ذلك الوقت. لكنها كانت تعتمد على قوتها الداخلية في ردع انكلترا وايطاليا عن تحقيق الاحلام ، وعلى مقاومة فرنسا في الخارج . ولذلك لم تلبث القضية ان انتهت الى تراجع المتآمرتين . أعلنت حكومتا الجلالتين البريطانية والايطالية بكل انسانية ولطف سكري ان ليس في نيتيهما سوى الخير والفضيلة والاحسان ، ان اتفاقات ثنائية لا توجب ربط طرف ثالث وما اشبه ، مع ان الاتفاقات الثنائية التي تكلمتا عنها كانت تستعير لسان حكومة الحبشة كأنها عبارة عن والد متوف ترك وصيته لوارثيه في نصوص تلك الاتفاقات .

ثم سكنت انكلترا عن هذه الاتفاقيات كأنها لم تكن ، وسكتت عن ما تم من اسرضاء فرنسا بحشوفها بلقمة متقطعة من جسم الشعب ، لتعود في ١٩٣٦ الى محاولة اكتساب ود الحبشة ولطم فرنسا بتقدمها للاولى منفذاً الى البحر عبر الصومال الانكليزي في مرفأ « زيلع » - الامر الذي لو تم لكان وخزة في قلب فرنسا ، لان ميناءها « جيوتي » عند ذاك يفقد

امتيازه الاحتكاري بصفة كونه الطريق التجاري الوحيد بين الحبشة وبين العالم (باستثناء الدروب الثانوية الضئيلة بينها وبين السودان) . لكن الحبشة رفضت هدية انكلترا يومذاك لان « جيوتي » كانت تكفيها ، ولان هدايا الاستعمار الانكليزي لا تكون عادة لوجه الله ، والاكتثار من المنافذ الى دنيا موبوءة بجراثيم الاستعمار ليس بالعملية الصحية المرغوبة .



ومرت الايام والحوادث على هذا الشكل من تفرق كلمة اعداء الحبشة كما بدا كأنها تأتلف ، وهذا التفرق الذي كان يسببه ما ضبطناه عن مناعة تلك البلاد وحرارة الاطماع في صدور « صديقاتها » . لذلك لما جاءت سنة ١٩٢٨ فكر السنيور موسولينى بان احسن ما يفعله امام الحبشة ان يعقد معها ما سماه « محالفة صداقة » كانت في الحقيقة وفي روحها أشبه بهدنة حرب او بقواعد موضوعة لتنظيم العداوة في ايام السلم . ولكن الشعب الحبشي ، الذي أحب ان يتقي شر الوحوش المحيطة به كيفما بدا له شكل هذا الاتقاء ، رضي بالمعاهدة . حتى اذا لم تقده فيما يأتي من الايام بنتيجة ملموسة ، كانت على الاقل سجلا لكلمة ينقضها صاحبها بالسهولة التي

كتبها فيها . (١) وسلوك كهذا السلوك المنتظر من الرجل الشريف ، الذي يري العالم كيف يكون الادمان على التدمير وتمزيق كل شي حتى اقواله وافعاله ونفسه (٢) ، من

(١) فيما يلي ملخص لاهم نقاط هذه المعاهدة :

١ — الصداقة الدائمة بين الدولتين .

٢ — تحديد الحدود بين الحبشة والاملاك الايطالية على بعد

١٨٠ كيلو متراً عن البحر جهة الحبشة .

٣ — انشاء الحبشة طريقاً بين « دينيه » ، فيها الى « عصب »

في الاريتريا .

٤ — حل كل اختلاف يقع بين الحكومتين بالمفاوضات

المباشرة . وان لم يحصل اتفاق يصير الالتجاء الى التحكيم ، ولا

يكون الحق لاي من الدولتين باستعمال القوة في اثناء سير التحكيم .

هذه النقطة الرابعة موضحة في البند الخامس من المعاهدة ،

التي تبين الطرق الواجب اتخاذها عند فشل المفاوضات .

(٢) جاء في الجرائد : قابل صحافي فرنسي ضابطاً بحيرياً

ايطاليا كبيراً ، فقال له : « أدرك موسولينى انهم نصبوا له

فخاً ، ويعترف بانه سقط في هذا الفخ . . . وسيرى العالم متى

آن الاوان كيف يموت الرجل الشريف » . (جريدة « فلسطين »

— يافا — ١٧ ت ٩٣٥) .

صاحب تلك الكلمة الممضاة باسم « الصداقة » ، قد ينقلب سلاحاً ضده . وكل هذا التوقع حصل فعلاً في ١٩٣٥ . لقد صبح في هذه الايام الفائزة ، ايام الاختلافات والمخالفات الدهليزية والمفاوضات اللولية المبرومة ، تعقدها دول الاستعمار العالمي على روح الحبشة ، ايام الاستعدادات والهجمات الحربية الوقحة التي قام بها فاشيستوايطاليا لغزو الحبشة راكبين صهوة معاهدة صداقتهم ، التي قام فيها بقية « العالم المتمدن » لردعهم عنها ، والتي أعدت الحبشة المناضلة اثناءها قبراً لهم فيها أسود عميقاً .

والان لنلاحظ من كل ما تقدم بلاغة الصدق في عبارة الكاتب الثوري الكبير « بالم خط ، » حيث أجمل تاريخ الحبشة السياسي المعاصر بقوله : « نجحت الحبشة حتى الوقت الحاضر في ملاعبة دولة ضد دولة » .

غير ان المستعمرين الاذكياء يدركون ان الحبشة خصم عنيد ، كما يدركون ان اطماعهم وتحاسدهم وتخوفهم من بعضهم البعض تسببها تلك المناعة وتزيدها في آن واحد . لذلك نجدهم - وهم يرمقون بعضهم البعض بأعين ثعابين شديدة الرقابة ، وكل واحد منهم يمنع الاخر عن مد اليد اليها كلما هم بالامر - لذلك

نجدهم دائماً ، وفي كل فرصة ، وفي كل ناحية ، يجتهدون لعرقلة الحبشة عن الارتقاء ومنعها عن ان تضاعف قوتها . بدلال على هذا ب بروز واتقان تحالف الدول الثلاث عليها لمنع السلاح عنها . وكـم تشبه هذه الدول خاطبي « بينيلوبي » في « الاوديسة » ، اولئك السادة الاشراف الذين كانت يطلب كل واحد منهم يد السيدة الجميلة الامنية ، ويحول كل واحد منهم دون حصول الاخر عليها ، ويحاذر الجميع معاً لثلاث تفلت من يدهم او يداهمهم زوجها البطل الغائب .

في ٢١ اغسطس ، ١٩٣٠ ، عقدت بين انكلترا وفرنسا وايطاليا معاهدة « تضع نظاماً خاصاً للحبشة بصفتها دولة مستوردة للسلاح » ، كما جاء في كلام المستر إيدن في مجلس العموم البريطاني ، ردأ على سؤال للمسترماندر في جلسة ٢٧ ايار ، ١٩٣٥ . بهذا النظام الخاص ظن الخاطبون ان الحبشة تأكدت لامحالة لواحد منهم فيما اذا لم يتسامحوا في الاشتراك بها على اسلوب الجاهلية واهل « التيب » في زواج الضمدا . كان من جملة مواد هذه المعاهدة حظر ارسال الاسلحة الى حدود الحبشة ، والغايات من ذلك تجدها في هذين الخوفين :
١ - خوف كل دولة من ان تجري الاخرى تعبئة على

حدود الحبشة ، فاك تساحها منفردة .

٢ — الخوف من ان تتسلح الحبشة ، فتقذف بهم جميعاً في البحرين : الأحمر والهندي .

يبد انه يجب ان لا يغيب عن بالنا ، ونحن نكاد نضيع في شبكات من « اشتراكات ، الامراض الاستعمارية وتلويباتها المعقدة ، حقيقة واحدة عجيبة الصراحة ، لامة كالجرة الكبيرة خلف عتمة المحروقات . تلك الحقيقة هي : اذا كانت من نتيجة مقبوضة او شبه مقبوضة خرجت من جميع هذه الدورات لاحد ، فهي كسب صريح للكاثالايزر البريطاني . هي كسب له وان كان أقل كثيراً مما أمل وعمل له ، مما يأمل ويعمل له أبداً أبداً .

لقد توصلت بريطانيا العظمى بعد مراوغات السنين الدامية المملة الى اخذ الامتياز بينا خزان تسانا . لهذه البحيرة وامتيازها قصة طويلة جداً لاتسع هذه الصفحات شيئاً منها ، كما ان لها اهمية عظيمة في تاريخ استعمار شرق افريقيا ، بحيث ان رسل المانيا لما شرفوا بلاط الامبراطور منليك فتحوا عينيه بدون حسن نية بشكل فهم منه ان هذه البحيرة وحدها كافية لجلب حرب على بلاد شعبه .

يكفينا الان من تلك القصة الطويلة لاظهار غرضنا الاستتاجي ان نعلم ان امر البحيرة انتهى - بعد الصولات والحولات التي يصعب احصاؤها ، وبعد حوادث واحاديث ومؤامرات استمرت بصورة مشتدة عقب تدخل الاستعمار الاميركي بواسطة شركة « ج. ج. وايت » ومحاولة الحكومة الحبشية قذفها في وجه بريطانيا - الى عقد مؤتمر حاسم في اديس ابابا في غضون ١٩٣٣ . كان اعضاء المؤتمر ممثلي السودان وشركة « وايت » والحبشة و - مصر ! وكانت نتيجته تعاقدهم على بناء الخزان بقبول الحبشة . والمشروع لا يزال على الورق الى اليوم ، محفوظ في جيب بريطانيا كراسمال نائم .

اذا كان في المشروع ضرر ما باعتباره خطوة من خطوات الرأسمالية الاجنبية في البلاد ، فان ما يدره على حكومة الحبشة من المال الذي تحتاجه بشدة لتسهل به تقدم الشعب قد يوازي الضرر ، وقد يزيد عليه اذا كانت الحبشة تعرف كيف تستعمله بدل ان يستعملها . اما حكومة السودان ، اي فرع « المكتب الاجنبي » ووزارة المستعمرات وبيوتات المال في لندن ، فان المشروع ليس الا امنية بدیعة من امانيتها القديمة . والشركة الاميركانية كذلك لم تخرج منه فارغة اليدين . بقيت اختنا

العربية مصر ، التي ترادف بريطانيا كالسودان حيث يكون الدفع فتدفع عنها ، وترادفها حيث يكون القبض ، فتقبض بريطانيا بالنيابة عنها ! وهذا ما جاء بخصوصها في عقد خزان تسانا : « ان هذا الخزان تبنيه مصر وتدفع المصروف عليه في الدرجة الاولى ... »

والان نرجع الى العبرة فنقول : نجد الاستعمار يتنافس فيما بينه (شركة « وايت » وبريطانيا في هذه الحالة) ، فيخرج هدفه القوي المحنك من المعمة إما رابحاً وإما ، على الاقل ، سليماً من توالي لطماته ، بل وربما مستفيداً منها حسب فكرة « نيتشه » في « الايكي هومو » ، التي تقول بان كل فرصة تصيبه ولا تقضي عليه تزيده طلاقة . نجده يتصرف باموال الشعوب الضعيفة التي يحكمها ، فان لم يربح من هدفه القوي رجع الى خادmates يغترف من كيسهن ، وخرج لذلك ولكثرة تلك الخادmates وتحكمه بمواردهن رابحاً كيفما كان الامر (بريطانيا ومصر حيث تدفع الاخيرة عشرات الملايين في سبيل الاستثمار الانكليزي للخزان) . ثم نجد ان ركن الاستثمار الركين و« ذخيرته » ، كما يسميها ستالين بدقة في كتابه الككلاسيكي « المسائل اللينينية » ، التي يمد يده اليها كما

انسد امامها الطريق الى جيب هدفه القوي (الحبشة مثلاً) ،
هي البلدان الضعيفة التي يتسلط عليها بقبضة - عنيدية (كمصر
في هذه الحالة) . بعد ذلك نستنتج بانه طالما كان الاستعمار
قابضاً على هذه « الذخائر » بقي حياً قائماً على رجليه ، وانه
لا ينحل ويسهل تصويب الضربة اليه التي تعدمه وجوده الا اذا
خلصت منه فريساته وعاشت مستقلة بامورها كما تعيش
اهدافه القوية . واخيراً : نجد ان انكلترا ربحت شيئاً برغم
القاعدة فيها (التي نقصد منها ان تطبق على الكل لا على الجزء ،
على الحبشة كلها ، لا على مشروع « تسانا » وحده) . هذا ،
مع ان فرنسا لم تكد تضع شيئاً في جيبها ، وبينما ايطاليا التي
اخذت تحلم بالحبشة منذ ما وصل باباواتها الوسطيين علم
بوجودها لم تقبض غير معاهدة الصداقة ، وغير مراكز جيش
من القناصل والجواسيس تزرعهم في ابعد اعماق البلاد ، لا
لشيء الا ليستفيد منهم الاحباش بنايات جميلة تقل في ايطاليا
مثيلاتها ومحطات لاسلكية من الطراز الاول لقاء ما يدفعونه
لهم من الاخبار العتيقة والعبارات الرقيقة على مآدب
الامبراطور . (١)

(١) محطة اللاسلكي في اديس ابابا ، مثلاً بناها الايطاليون كنقطة من

هكذا ، والان بعد ان غدت منابع النيل باجمعها وشك
الدخول في قبضة بريطانيا العظمى ، فللعالم ان لا يستبعد —
فيما اذا توفقت الى السيطرة المطلقة على هذه المياه بحراب
احتلالها وسدودها وأقنيها — ان تنقلب الخرافة القديمة عن
قطع مجرى النيل الى حقيقة ممكنة .



الخلاصة ، نكتب هذه الصفحات لنستخلص الدروس
ونعممها علينا اجمعين ، لنشدد على ضرورة الاستفادة العملية
منها في سيرة الحبشة وسيرتنا جميعاً ونحن نقاوم الاستعمار ، عدو
جميع شعوبنا الشرقية والذي رأيناه حتى الان وان كان بسيطاً ،
سريعاً وناقصاً من وجوه كثيرة ، يكفي بالاشتراك مع كثرة
الحوادث المحلية والعالمية الحاضرة ، ومع بلاغة معانيها الموافقة

نقاط توغلهم الاستعماري . لكن الامبراطور هيلاسيلاسي لم يلبث ان
صادرهما منهم معوضاً عليهم بما هو الثمن الحق لها وبماتوا به قيمة المحطة في نفس
الوقت اضعافاً بالنسبة الى حاجة الحبشة بها . ومثل هذه الحاجة الحيوية لبلاد تريد ان
تحرر يعرقل الغريون واليابانيون المستعمرون كل طريق الى سدها

حسب ما يترامى لنا لكل ما ندعيه — نقول : يكفي كل هذا لايقاظنا ، لتتوزر سيلتنا ، لتنبهنا ليس لحسب الى ما يحصل في هذه الساعة الرهيبة في التاريخ من محاولات لتجديد الهجمة لاجل ابتلاع الحبشة ، بل والى ما يضمره ويحفظه الاستعمار لجميع الشعوب المقهورة ، بل لجميع شعوب الارض ، من مصير تاعس مشؤوم فيما اذا اطلقت له اليد ولم تبت وقض على اصحابها قبل سيرهم بنا حيثأفي طريقهم المخطوط المحتوم ، طريق الحرب العالمية لاجل تقسيم العالم ، واستعباد جميع من لم يستعبد بعد ، وتعطيل التقدم والراحة والحرية البشرية تعطيلاً مؤخراً لنموها ، مجرماً بحق حياة وطمانينة مئات الملايين .

ان الموضوع الحبشي هو موضوع الساعة . من حوله يدور عراقك عظيم قد تكون نهايته العراق النهائي الذي يقع في هذه الحرب الطويلة ، الهائلة ، القائمة بين الاستعمار والرأسمالية من جهة ، وبين حريات جميع الشعوب المقهورة (وفي طليعتها شعوب الهند والصين والبلاد العربية الالية العظيمة) وجميع الطبقات العاملة (وفي طليعتها جمهوريات السوفيات) ، من جهة . لم يكذب بقى من مجال مفتوح تتزاحم عليه دول الاستعباد الا الحبشة . تتزاحم عليه مجتمعة ومتنافسة بالتبعية لاسلوبها

القديم الذي شرحناه في ذلك . تكاد الحبشة تكون الحوض
 الفارغ . الضعيف نوعاً ، الوحيد الباقي الذي يتسع بعد الانسكاب
 مطالب الاستثمار والتحارب الرأسمالي فيه ، وبالتالي لسكل ما
 يمتاز به من فوضى وشقاء . وهذا الحوض يمتلي* الان بكل
 ذلك دقيقة بعد دقيقة . واذا ما امتلا لا بد من ان يقع الانفجار .
 كما يمكن جداً ايضاً ان يقع هذا الانفجار الان وقبل ان يمتلي*
 بل كما يمكن جداً ان يقع حتى فيما اذا لم يمتلي* بفضل مناعة الحبشة
 كوطن قوي يدحر الهجمة عليها . ولكن كيفما يكن الحال ،
 فالحبشة تبدو الان لجميع من يترقبون الحوادث ويرفقون سيرها
 ويتوقعون نتائجها ، مفتاح « ايو ليس » لفك اسار رياح
 التطاحن الهوجاء بين المستعمرين ، فياً تكون بعضهم ببعضاً ،
 وياً تكون شعوبهم ، لانه لم يعد لهم ضمن حدود نظامهم
 الفوضوي ، الضيق ، المحصور ضمن جدران اباح الافراد
 وشركات الاحتكارات ، شيئاً آخر ياكلونه .

قد يقع الانفجار اليوم او غداً . كل اماراة وعلامة تدل
 على قرب الساعة التي يتخبط فيها الرأسماليون (أملاً بتخليص
 انفسهم من الشباك التي يتخبط فيها عالمهم ونظامهم هذا التخبط
 الحاضر الذي يريع رؤياه والشعور به كل انسان عاقل) الى

اشعال قبيلة الالغام تحت أركان مجتمعهم . اما كيف يحصل هذا الاشعال، او حتى هل ينجحون في احداثه، فامر مبهم له عدة احتمالات .

من الاحتمالات انهم قد يضرمون الحرب على بعضهم البعض . منها انهم قد يكونون ابعد نظراً من ان يتزحموا فيما بينهم في هذا الوقت الحرج ، فيجتمعون من كل نواحي عالمهم ويسوقون جيوشهم الى اكتساح جنكيز خاني ضد اعداء مشتركين . هناك دلائل كثيرة تشير الى محاولة واسعة لتجميع دول الرأسمالية ، من اليابان في الشرق ، عبر الباسيفيكي والانتلتيكي ، حتى بولندا في الغرب ، في جبهة متحدة ، جبهة غايتها محو الجمهوريات السوفياتية ، اعداء نظامهم الطبيعيين ، وتحقيق الاستعباد والاستثمار الاقصى في مئات الملايين من سكان المستعمرات وطبقات بلادهم العاملة . ثم هناك احتمال ثالث في ان يسبقهم هؤلاء الاعداء فيقتلون حربهم في مهدها ، او حتى وهي جنين في الرحم ، وهي فكرة في دور التنظيم ، بواسطة الثوار التي لاتدع لهم مجالاً للتحارب قبل اخمادها وترتيب امورهم بعدها ، والتي تنتهي في الغالب الى قلبهم عن عروشهم قلباً نهائياً ، كما ترينا بوضوح وصدق كلمات رومان رولان

الخالدة في كتابه « السلم بواسطة الثورة » . واخيراً ، هناك احتمال رابع ولا يدركه او ينتبه اليه ، كما اظن ، الاعداد ضئيل جداً من افذاذ مفكري العالم الانسانيين . هو احتمال لا يبدو قريباً من الواقع ، بل يخيّل الى متأمله اقرب الى الحلم . ولكن كم من حلم سبق الواقع ، وكم مما بدا واقعاً لم يكن الا مظاهر سطحية لا تدع مجالاً لتبين الواقع الاكبر ، الاغم ، الاقرب الى الحدوث .

هذا الاحتمال الرابع هو فرع لفكرة « السلم بواسطة الثورة » او اخت لها . ونستطيع تلخيصه في الكلمات التالية :

تكون المعامع الهائلة الفاصلة بين جبهة الاستعمار والرجعية من جهة ، وجبهة التحرر والتقدم من جهة ، قد انقضت في ساحات بلاد السوفيات وميادين الصين . ينسد السبيل امام المستعمرين — بعد انتصار الاشتراكية العظيمة في الاولى والظفر الحربي المنتظر « لجبهة الجهاد الوطني » في الثانية — الى هذه البلدان . كلما بدا شبح الحرب في مكان هرب الى مكان بسبب مهارة ، بل عبقرية ، السياسة السوفياتية في ادارة دفة التوازن العالمي ، هذه السياسة الحكيمة التي يرجع اليها والى مجرد وجود السوفيات القوي الناجح الفضل في عدم نشوب الحرب في

السنوات الاخيرة الماضية ، التي لم ير العالم في كل تاريخه مثلها غلياناً وتجهماً واستعداداً لوقوع اروع ما يتصوره العقل من الانفجارات . تنقذ دول الرأسماليين بسبب هذا الانسداد في سبل الترقيع امامها الى معاركة مشاكها الداخلية المستزيدة ، المهدة بالانقلابات في بلدانها ومستعمراتها ، المتضخمة دقيقة بعد دقيقة بفضل توالي الازمات وتسارعها وتعمقها وتضخم تناقضاتها وشروورها ، وخروج اسواق السوفيات والصين واسواق بعضها البعض من يد استثمار رأسماليات بعضها البعض المشتتة . تضعف هذه الرأسماليات بنتيجة هذه الاحوال شيئاً فشيئاً ، سائرة نحو الانحلال والتضاؤل (١) ، حتى لا يعود في

(١) وهذا ما هو حادث بالواقع والاحصاء في كل مكان في العالم . فالاغنياء يقلون اكثر فاكثر . المليونيريون يقلون يوماً بعد يوم ، مشكلة بعد مشكلة . مليونات المليونيرين تقل عدداً وتأخذ ارقامها واصفارها بالهبوط . كل شيء يهبط قيمة و كمية في العالم الرأسمالي ماعدا الدعاية والجيش التي يرجى من تضخيمها ان توازي كل ما يحصل من التناقص في بقية النواحي جميعاً . وهكذا نلاحظ ان الرأسمالية لاتقضي بنظامها الفردي على جميع الطبقات بالهبوط فحسب ، بل يجرها هي ايضاً نحو التضاؤل .

يدكل منها غير جهاز بمحالتها المنهوكه ، المتوثره ، المفقوده الدماغ الصحيح والدعامه الشعبيه اللازمه وغير نظام واساس اقتصادي محطم . اخيراً ، تسقط الرأسماليات المختلفه ، المتباعدة ، المتعاديه بسبب اشتداد تنافسها الملازم لتلك الاحوال ، امام شعوبها المنهوكه المهناجه بتدبير وتنظيم احزابها الثوريه المختلفه ، بضربات انتفاضيه ، فتتعتها بسهولة كما تنقر الفرخه قشرة البيضة فتكسرها وتخرج مولوده للحياه والشمس من جوها المظلوم الضيق . اقول « بسهولة » ، لان نهايه على هذه الصوره ، مها صحبها من المناوشات والاضطرابات او حتى من الثورات الداخليه ، ليست بشي* ذي بال فيما اذا قيست بحرب تقع بعد هذا التقدم المشاهد في اجادة مخترعاتها « الاباديه » . بهذه النهايه لا يعرف العالم انفجار رأسمالي استعماري مريع على قياس ووزن الحرب التي سبقت ، تلك « الحرب العظمى » التي غرست في اعماق النفس البشريه كرهاً ونقدهً شديدهً ضد اي شي جنوني يشبهها .

هذا هو الاحتمال الرابع الذي يتراعى لي امكان حدوثه . الذي اعتقد بوجوب السعي اليه اذا امكن السعي وظهر الامر لمن هم اعمق اطلاعاً على حقائق الامور وبواطنها ميسوراً

لادارة الدقة اليه .

كل هذه الاحتمالات المدهشة ، القضايا الجبارة التي تهز العالم من اساساته وتدافع افكاره وحياته وقواعده مدافعة اوقيانوس هادر عاصف لمركب يائس ضل ربانه المسير ، تخطر في البال على اثر تطور قضية الحبشة التي رافقناها في هذه الصفحات تطورها الراهن المريع . كلها ، سواها ايضاً مما هو ليس الا فرضيات مخلطين واوهام خائفين على مقاعدهم ، فوقها جميعاً جبال من الكلام ، الكتابة ، الثثرة ، البحث ، التكهّن ، التداول ، النأمر ، التفلسف والتناقش ، تثيرها ما وصل اليه في هذه السنة (١٩٣٥) تنافس الدول المستعمرة على الحبشة ، ما يرافق ذلك التنافس من صعوبة هضمها ، انسداد سبل التوسع امامها في كل مكان آخر ، تضخم ازماتها ومشاكلها وتمركزها من حول الحبشة اكثر من كل مكان آخر ايضاً ، واخيراً وصولها في جميع ذلك الى هذا الحد الذي نشاهده والذي يشم العالم منه رائحة البارود والغاز تتصاعد فوق اشلاء الابرياء المحروقة العفنة .

والان . لتتقدم من حيث وصلنا في الكلام عن طبائع

الاستعمار وماضيه وجولانه حول المملكة الافريقية العريقة
منذ أبعد اوقاته — لتتقدم من ذلك نحو اكمال تمحيص امور
هذا الاستعمار ، اسراره ، الاسباب المباشرة لاثمته الحاضرة
امام هدفه الشديد المراس ، اقواله واساليبه ، حقائقه ومدعياته ،
مظاهره وفضائحه ، قواه وقوى اضداده ، نحن وهو ، وفي
النهاية : مستقبله ا



الدكتور جيكل والديكتاتور هايد

« ذات عصر بارد ، حزين ، من يناير ظهرت في شوارع لندن الاعلانات الاولى عن الحبشة . » حادثة دموية في الحبشة » كانت واحدة تقول . « موت ١٣٥ » ، قالت الاخرى . كانت جميع اخباريات الصحافة موجزة نوعاً ، وجميعها جاءت من روما . المراسلون الذين كانوا في « أدیس أبابا » لم يكروا بعد قد علموا شيئاً عن حادثة وال وال . وكنت ماراً في لندن فحسب ، وكانت المدينة تهمني أكثر من أبناء الحبشة . في لندن ، ايضاً كانت معركة تتقدم في ذلك الوقت — حول منارات « بليشا » . لقد وجدت هذا القتال أجذب لي ، ونسيت الحبشة التي كانت أبعد ما يجلب الانتباه .

« إلا ان الحبشة لم تكن تقبل الاهمال بسهولة . فالاخباريات راحت ترد أكثر فأكثر ، وتلك البلاد صار ذكرها يتردد أكثر فأكثر في البيانات الجديدة ، حتى اصبحت الامبراطورية المجهولة موضوع الاحاديث اليومية . كان الاهتمام الشعبي ينمو ، فلم تعد الحبشة بلاداً مجهولة . . . أخذت انباؤها تظهر على

الصفحات الاولى في جرائد القارة . . . ، إه .

كانت الحادثة واسمها الغريب ، وال وال ، بادي بدء ،
 شيئين بعيدين عن اذهانتنا وشعورنا وتوقعاتها بعد « واق الواق »
 نفسها عنا . ثم رأيناها يزدادان ولولة كلما تطورت الواقع
 حتى اصبحا كأنهما يبلعان كل الانظار . والحبشة ، البلاد
 شبه الخيالية التي كانت اقليماً مبهماً كعوالم الفلك الديني
 وفكرة غير محسوسة في رؤوس معظم البشر ، برزت في وقت
 قليل ، وقت صاعقي التقلبات مسرحي المفاجآت ، حقيقة صارخة ،
 خطيرة ، يطن بها دماغ العالم ، يدق لها قلبه دق خفوت وهبوب ،
 وتلاش وتواثب ، كأنها الضربة القاضية على كيان مهتم
 نخرته الامراض . في اثناء شهر او شهرين او ثلاثة من النصف
 الاول من هذه السنة بدا كأن مشكلة القرن العشرين ، مشكلة
 الاستعمار ، بجميع تفرعاتها وقضاياها واشتباكاتها ومصائبها ،
 بكل مالها من ماض هو كل ماضي التاريخ ومن آت هو كل
 المستقبل ، قد تكتلت وتحلقت حول الحادثة الشاذة ، التافهة ،
 غير المنتظرة ، تكتل الماء المتطير حول محور هوجاء مزوبعة .
 ان أبهم نقطة وأقصى بقعة عن بصر العالم المتلاصق المتناقض
 وعن سمعه ظهر كأقرب شيء إليه . بل اصبحت الحبشة الدولة

الافريقية السوداء الوحيدة المستقلة، المجموعة الاقطاعية، المتأخرة، الجامعة بين أحوال بداية الانسان الاجتماعية الاولى واوضاعه الوسطية والقديمة، حجراً اساسياً في مستقبل الانسان، وشرعاً منفوخاً للمركب المسرع به نحو المجتمع الاشتراكي .

لكن ما هي هذه الواقعة ؟

إنها شيثان . هي نهاية بداية أولاً . وهي ، ثانياً ، بداية نهاية . وهذا ، ولا شك ، كلام مبهم ينطبق على جميع ما تضمنه الحياة والكون . فلنفسر ، إذن ، معناه في هذا القسم من الحياة والكون ، قسم الحبشة والعالم في سنة ١٩٣٥ .

كلنا نعلم علم السمع والبصر والتجربة بان من يريد أن يأخذ من غيره بالقوة ما لا يريد أن يعطيه اياه ذلك الغير ، ينتهي معه الى الاعتداء عليه . كلنا نعلم من سيرة الاستعمار في شرقي أفريقيا أنه كان أبداً يمد اليد الى ملك الغير وينتهي معه ابداً الى حادثة محزنة من عديد حادثات التوسع الاستعماري . في كل مكان يدخله كان ينتهي الى الاشتباك بالمقاومة المادية المسلحة مع اهل البلاد اللذين يريد امتلاكهما، ان لم ينته أيضاً بالملاكمة الحربية تقع بين مختلف قواه ودوله وعصاباته . وما وال وال الا نهاية واحدة لبداية ذلك التوسع الاستعماري حول

الحبشة وتجاهها ، وقد نتج عنه فيها نوعا تضاربه : بينه وبين هدفه من جهة ، وبينه وبين بعضه من جهة . ان سيرته القديمة ، المتشابهة الخطوط والقواعد والاسباب والتشكلات ، انتهت في والوال كما كانت تنتهي دائما ، اي الابتداء بالتعدي والاعتصاب والانهاء بالقتال . غير أن وال وال نهاية كبيرة ضمت ، اولا ، كل بدايات الاستعمار في افريقيا الشرقية ، ثم ما لبثت ان تطورت وتوسعت كما رأينا حتى شملت بدايات جميع العالم الاستعماري وأضداده في الدنيا ، حتى أصبحت النمسا معلقة بها كما تتعلق تركيا ، واميركا كما فرنسا ، وسوريا ومصر كما الهند وأستراليا ، الصين كما اليابان ، المانيا واليمن كما بلاد السوفيات والجزر الاسكاندينافية او الايندوينزية .

أما كون وال وال بداية نهاية ، فمعناه أنها بداية واسعة تضم بدايات فرعية كثيرة ، موزعة في كل مكان على وجه البسيطة ، وتتجه كلها نحو نهاية الاستعمار . ان المعركة التي بها يبتدى دوره النزعي الاخير . من ثورة ١٩١٧ الروسية الى وال وال ، من « الزحف على روما » في ١٩٢٢ واليا ، من ثورة ١٩٢٧ في الصين نحوها ، من بداية الازمة الاقتصادية في ١٩٢٩ ، ومن قيام هتلر في المانيا ، ومن جميع

اهتزازات الحرب العظمى ، بل من يوم أتجه أول مبشر اوروبي الى الحبشة ، بل ومن ساعة دشّن « ولسن » جمعية الامم ، بل ومن اول حجر وضع في بناء الامبراطورية البريطانية حتى آخر حجر — نجد التيار آخذاً بيد الاستعمار الى نهايته عن طريق الابتداء بوال وال . ان هذا الاسم الافريقي يشبه حديدية عظيمة ممغنطة جذبت اليها كل قطع المعدن الاستعماري والمعدن المقاوم له . تظهر في ناحية اخرى من العالم ، وباسم آخر ، حديدية أعظم وأقوى مغناطيسية لتجمع كل هذه القطع اليها . لكن وال وال تبقى أول قطب يلتقط أخيراً خيوط التنافر والتناقض في حياة كل العالم ، ليتحارب عليه سلبها مع ايجابها في الساحات التي انفجرت عنه ، ولينتهي أمرها جميعاً أخيراً ، في هذه الساحات او في سواها ، الى اندماج السلي بالايجابي اندماجاً متناسقاً ، متآلفاً ، « هارمونياً » ، تخلص الدنيا به من حالات التنافس والحرب القديمة الراهنة .

في جميع الفصول التي سبقت من هذا الكتاب شرحنا بدايات النهاية الاستعمارية . وفيما يلي منه نجتهد أن نصور شيئاً من نهاية الابتداء .

في الحياة الاجتماعية بعض القوانين والقواعد الابتدائية التي يصرح كل انسان موزون العقل بانها يجب ان تتبع ، بانها « حق » ، وبانها اذا أهملت تصبح الامور مشوشة اكثر مما هي . طبعاً ، لا يتبع كل انسان هذه القوانين والقواعد ، ولكن كل واحد يقبلها « نظرياً » ولا يتجرأ أن ينكرها صراحةً (الابشواذ من فقدوا عقلهم السليم او من بالغوا في الوقاحة والغرور والاعتماد على مقدرتهم السفسطائية) . من أول وأهم تلك القواعد ثنتان :

١ - احترام الامضاء .

٢ - الاستنكاف عن الاغتصاب العلني والتباهي العلني به .

والان ، ماذا حصل في وال وال وماذا أظهرت الحوادث التي تلتها . انها أظهرت ايطاليا الفاشستية تقترف « الخطايا » الثلاث معاً : انكار وجرب ولو الاحترام الكلامي لاية قاعدة ، لحس الامضاء بصراحة قوية ، اقراراف الاغتصاب والتفاخر به الى درجة الاعتراف بانه هو « الحق » ، مع ان صورة الحق العالقة في عقول كل البشر تذكر ذلك . أظهرت انكلترا الاستعمارية تحاول كل جهدها ان تصل الى اغراضها تحت ستار احترام ما انكرته زميلتها وريبتها ، واخيراً غيرها سائرة على

نفس اسلوب بريطانيا ، ولكن في طريق اكثر وعورةً وافضح لها . غير ان المثل الاعلى لسكلي الشريفتين هو ايطاليا . انهما لا تفضلانها ، بل نتيجهما في اغلب الاحيان اكثر وبالا على المستعبدين والمستثمرين . ومع ذلك ، فهما في الحين الحاضر يودان من كل القلب لو يستطيعان تطبيق مبدأ الفاشستية الايطالية وقاعدتها في عدم احترام اي مبدأ وقاعدة ، فتقل بذلك المزيجات التي تفرضها عليهما محاولات التستر والتلاعب والسلوك « الديموقراطي » الذي يكرهونه .

ينخرنا السيد ابراهيم حسون (وربما يكون حضرته الشخص الوحيد الذي حضر الحادثة في قرب نسي منها وأعلنها بصفته الشخصية ، أي غير مدفوع من جانب الاجانب عواطفه ومشاهداته الخاصة) في مقال له في « الاهرام » (عدد ١١ نيسان) : بان لجنة من الاحباش والبريطانيين كانت بجمعة في مقاطعة « الأوجدين » ، الواقعة في الجنوب الحبشي ، قرب « جرجيوبي » ، على حدود الصومال البريطاني وبالمحاذاة للصومال الايطالي . لقد اجتمعوا هناك باسم لجنة مشتركة لدرس مشكلة الحدود ، المشكلة « الابدية » اوقصة « ابريق الزيت » التي لا يملها المستعمرون .

ثم يستطرد السيد حسون بالحرف :

« بعد أن أتمت (اي اللجنة) ... عملها طرأت مسألة المراعي ، واتفقت الدولتان على ان ترخص لهما (يقصد لرعاة الصومال البريطاني) بريطانيا (كذا) بانتجاع الكل في بلاد الحبشة بدون معارض وبغير دفع أي أتاوة ما ... ولما وصلت لجنة المراعي الى وال وال وجدت الايطاليين منتشرين فيها ، فدنا رئيس اللجنة الحبشي « الفتوراري لثسمى باتي » من الاستحكامات الايطالية مسالماً ، فقابلوه بأفواه البنادق . فرجع الى المعسكر واطلع مستشاره القضائي ، وهو حبشي نبيه اسمه « الاثفوكاتو تازارلو رزو » ، على الامر ، وطلباً من الكولونيل كليفورد ، رئيس اللجنة البريطانية ، ان يذهب مع المستشار لاستطلاع افكار الايطاليين . وبعد ساعة رجعا غير راضين . فحينئذ نقلت اللجنتان مضاربهما الى « عادو » التي تبعد نحو ٣٥ كيلو متراً عن تلك النقطة . وفي ٤ ديسمبر نشبت واقعة وال وال ، وتقهقرت الجنود الحبشية الى « عادو » وعسكروا فيها . وفي غدو وصولهم لحقهم الطيارات الايطالية وامطرت معسكرهم وابلاً من القنابل . ثم طارت احداها وق المعسكر البريطاني الذي كان يبعد نحو كيلو متراً عن

الحبشي . فالبريطانيون نشروا عليهم لتراه وسلطوا رشاشتين معهم لصدها اذا تعدت عليهم ، فحامت نحو ثلاث مرات فوقهم وقفلت راجعة . ولما أعادت الكرة في اليوم التالي ارسلت اللجنة الى قائد قوات الصومال البريطاني طالبة منه ان يرسل فرقة من الهجانة لتحميهم . اما هذه ، فلم تدخل الحبشة (اباا وشمم والله !) ، بل رابطت على الحدود . وما قاله المستر ستيرل والكابتن تيلر وغيرهما كما جاء بالتلغرافات يكفي » اه .

اما « لاديسلاس فارغو » ، فيروي الحادثة كما يلي :

يقول بانه استقى معلوماته من ممثل احدى الدول الكبيرة المحايدة ، لانه وجد شاهدي عيان الحادثة من الاحباش والايطاليين يروونها كل طرف منهم بتحيز . والقصة بحسب ذلك السفير او الوزير تلخص في انه : عند ابتداء ديسمبر إنتهت اللجنة من وضع آخر حجر على خط الحدود بين الصومال البريطاني والحبشة بعد عمل سنتين ، وكان هذا الحجر الاخير عند ملتقى الحدود بين الصومال الايطالي ، وقد حضر وضعه واقره بالنيابة عن حكومته الكابتن « سيموارتي » الذي قاد فيما بعد جنوده الى حادثة وال وال . ولما كانت اللجنة في طريق عودتها الى « اديس اباا » مروا ببيتر وال وال ، وهو

نثر شهير في تلك النواحي لخلو الاراضي الواسعة من حوله من الماء . (١) هناك وجدت جنوداً ايطالية معسكرة ، فأمرها الرئيس الحبشي بمغادرة ارض دولته في الحال . ولأن قائد تلك الجنود رفض وخابر « الماجور سيمورتي » لاسلكياً ، فلم يلبث ان ظهر هذا بقوة كبيرة من الجند الاهلي . ثم رفض كل تحكيم مدعياً بان الجنود الايطالية انما كانت موجودة هناك لحماية الصوماليين الذين سمح لهم بموجب معاهدة ١٩٢٨ بالاستقرار البئر .

لم تقبل اللجنة الحبشية هذا التفسير طبعاً ، خصوصاً وقد رأت سيموراتي يظهر حالا بثلاثه الجديدة التي يستحيل جلبها من الصومال بهذه السرعة لبعد الحدود لا اقل من مئة ميلا ، مما دلّ على انها هي ايضاً كانت داخل الحدود قرب وال وال . من المستحيل معرفة من كان اول من اطلق النار ، والغالب انهم الاحباش الذين لم يهتضموا هذا الاحتلال الصريح « والجرم المشهود » والاخلال بحقوق سيادتهم وحرمة بلادهم . لكن

(١) لاهية هذه البئر في تلك النواحي وبسبب النيات المنطوية في خطط الاستعمار الايطالي ادخلت في معاهدة ١٩٢٨ فقره بخصوصه ، تنص على السماح لاهالي الصومال الايطالي بسحب المياه منه . وهذا اعتراف صريح من ايطاليا بكون وال وال ارض حبشية وفي الوقت نفسه نقطة للتلاعب والاستغلال .

المعركة ابتدأت عند ذاك . لم تفد الايطاليين فيها دبابتهم وطياراتهم حتى امام سلاح الاحباش الابيض ، لان غضبهم كان عظيماً من جراء التعدي عليهم . فأخلى الايطاليين وال وال بعد ان خسروا ٢٣٠٠ قتيلًا جعلتهم صحافة روما ١٣٥ ! . . . وفوق ذلك ثار الجنود الصوماليون في الفرق الايطالية ، فقتلوا قائدآلهم وهم يقولون : « نريد ان نكون رعايا احراراً ! » ، (١) هذه خلاصة الرواية التي استقاها الكاتب المذكور من بحث الاقوال المتضاربة ومعلومات السفير المحايد الذي لم يذكر من هو . وهي على العموم تشبه الرواية الاولى . غير انني شخصياً اميل الى تصديقها على علاتها ، لاني اجد كل حرف فيها يكاد ينطبق على كل ما تعلمناه وجربناه من حياة الاستعمار ، ولأن صحافة روما كلها في اثناء وقوع الحادثة هي نفسها كانت بمجرد اعترافها بوجود الجند الايطالي في ارض حبشية معترفة بانها متعدية ، عاملة على خرق كل قاعدة جهاراً ، جاعلة نياتها ومبادئها الفاشستية الشهيرة حقيقة مطبقة بجعل فكرة خرق القواعد والحق والقانون من اولها الى آخرها هي ممثلة القانون والحق والقاعدة في حياة المجتمع البشري .

(١) صفحات ١٩٨ الى ٢٠١ من كتاب الحبشة عند مائها ، لفاراغو .

منذ حادثة وال وال والعالم ، والرأي العام ، وكل انسان تقريباً ليست له مصلحة خاصة مباشرة بالقضية يتنكر لاي طائفة الفاشستية ويعطف على الحبشة ان لم يعمل لها — على الشعب المسكين الذي كان لا يكاد يدري بوجوده قبل مدة يسيرة فقط . ولقد حصل ذلك لان الناس وجدوا « الحق على موسوليني »! ومنذ ذلك الوقت حتى اليوم والمعركة الاستعمارية القديمة آخذة بالدوران حول الحبشة بسرعة ابدأ مستزيدة رغم كل محاولة لتخفيفها . لقد كانت تجري أكثر فأكثر كتنطير دولاب مجنون السرعة . ولم تلبث حتى أصبحت ميدان المعركة العالمية ، يطحن الاستعمار بعضه البعض فيه ، وفيه يهاجمة باندفاعية الكراهية المكبوتة المتفجرة جميع من ينشدون التحرر من أربطة تعاساته .

منذ ذلك الوقت وسنة ١٩٣٥ تشاهد من الحوادث الهائلة التي تضخمت فيها نتائج النظام السائد ، التي تطور اليها ماضي الاستعمار بأجمعه ، التي تكثرت مع تناقضات الاول ومصابئه ومع جميع مظاهر الثاني وهمجيته حول القضية الحبشية ، ما سيجعلها عاملاً رائعاً في تاريخ التقدم الانساني رغم الاكلاف المرعبة التي يتطلبها تنين الاستعمار البلوع لقاء خروجه من دور

انهياره الجديد . لقد ابتدأت كل هذه النهاية ابتداءً جدياً من
وال وال . ان هذا البئر الصحراوي علامة « كيلو مترية »
عالية تدلنا على مرحلة جديدة من تاريخ الانسانية .
أمامنا وقائع هذه السنة وتطوراتها وإلتفاناتها التي لا تحصى .

لا يمكننا ، وربما لا يمكن لأقلام كثيرة الان ، وسط
المعرفة التي تجتذب اليها كل فرد ، أن يحصيها ، أو يطيل بحثها ،
أو يجيد تحليل دقائقها تحليلاً يصور ويثبت كل علاقاتها
وتأثيراتها على مجرى العالم . كل ما نرجوه هو أن نمر بشطحات
تجمل الامور وتضبط حقائقها ومعانيها واتجاهاتها العامة ، ان
نعدد بعض التفاصيل الرئيسية وأهم عوامل التشقق والتجمع
العجيب الذي كنا نشاهده يطرأ طوال هذه السنة على مراكز
القوى الدولية بالنسبة الى بعضها البعض ، وان نبين كل هذا
— وهو قليل مع ذلك — على ضوء الحقائق والاسس
والاستنتاجات التي تثبتها الواقع والتجارب ، والتي بسطناها فيما
سبق بسط اقتضاب وتسهيل وتكبير بقدر المستطاع .

أول ما طالعنا وأكثر ما جلب انتباهنا طوال العام
كان في الدرجة الاولى ، موقف بريطانيا وفرنسا بالنسبة الى عمل

إيطاليا . ثم مواقف بقية الدول المستعمرة التي لم تخرج واحدة منها عن وودو الذكر بكثافة حول المشكلة . وأخيراً ، موقف الحبشة وأعداء المستعمرين .

وأهم ما لوحظ بعد ذلك في أمر المستعمرين كان روائع تقلباتهم ومباوراتهم ، إلتفافاتهم واختلافاتهم ، أهاجيهم وتغزلاتهم ، حتى ربما لم يمر يومان متتابعان والشعور السائد بين الناس يستطيع أن يطمئن إلى شيء يشبه ما يسمونه استقراراً سياسياً ، وحتى تضاربت الآراء والتكهنات والحسابات والانتظارات بصورة أعجب من العجيب كانت التوقعات لا تعرف أي منطق تتبع ، والجميع ينتظرون أدهش التطورات ويحسبون للامر أقل الحسابات خطراً . كان المتتبعون يحزمون بشيء ويجزمون بضده في وقت واحد . كانت الصحف تتكلم كأنها مولعة ومختصة بتصنيف التناقضات وتكذيب نفسها بنفسها . وتطور الامر وتطور على ما عهدنا حتى باتت المسألة سيفاً مسلطاً فوق رأس العالم باجمعه . أصبحت الحالة كان كل شيء لا يرى له من نهاية ومخرج الا ان يكون هوة مرعبة تمتلي بالجماجم والعويل وما يماثل هذين كلما تضخمت الحوادث وراح الناس وارباب الامر معاً يفكرون في حل لها ، كلما بدا

كان مامن شيء إلا ويعاكس ذلك الحل مهما كان عبثياً .
 اما حلّ الشيعيين ، فكان الشعور العميق به يزداد مع
 استفحال التعقد ، لكن دون ان تعترف به الجبهة الكبرى من
 الناس وتضرب به ضربة الاسكندر بسيفه للعقدة « الغوردية »
 التي عجز عن فكها كل صنديد داهية سواه . حلهم — ذلك
 الدواء الوحيد — كان ولا يزال الدواء الذي لا يشفي المريض
 سواه ، لكن الذي لا يستطيع طعمه فمه المريض ، فيتلوى
 المأاماه مدة طويلة قبل ان يقتنع ويرى بان لا بد له ، ان
 اراد العيش ، من تناوله . طوال العام لم تبين الجبهة الكبرى
 بان كل ما عداه عقاير . لكن تأله من ذلك العام ! انه
 اسرع بالبشرية ، بالجبهة الكبيرة من كل شعب ، نحو ادراك
 هذه الحقيقة . الفرق عظيم بين العالم في اول السنة وبينه
 في آخرها .

الى ماذا يرجع ذلك الشعور التاعس الذي ساد الناس ؟
 لماذا وجمت اوروبا والاميركتا ومعظم الشرق مشدوهة عند
 سماعها صرير مفتاح المصائب الذي استعمله السنيور موسوليني ؟
 تلك المصائب الجديدة ، المتراكمة الظلال ، المجهولة البؤر
 والاوجاع ، المقدرة الفظاعات ، التي رأت نفسها لديها فجأة

رؤيا العين واللمس والشم والسمع ، لا نظر وسمع الخطب
والفلسفات ، والحرافات والتعاليم الجوفاء الخرقاء ، والاستعراضات
المهرجانية والتهريجات المسرحية الصياحة . ان الشعوب
ما كانت ، في الحقيقة ، تصدق شيئاً من هذه التخليطات أو
تأخذها في يوم من الايام مأخذ أمور جدية وتدابير غير ووقتية .
كانت ، وهذا فحسب ، نرى بان لا يحيد لها من الرضوخ ، بان
سبيل الخلاص لم تصل اليه بعد ، وبأن الأحوال لم تكن
أو الدوافع معدودة متآلفة . وهذا الامر لا يزال هو ايضاً
العائق الأكبر عن اتباع حل الشيوعيين ايضاً ، لان معظم
البشر هم في أعماقهم شيوعيون يتوقعون الى التسامي ومحبة
بعضهم البعض . كل انسان يكره الاستبداديه أو استثماره . اما
الاستبداد بالغير واستثماره ، فلافتناع الاجتماعي بليغ الاساس
في ان «الاتا» و «الغير» لا يتجزآن .

نرجع الى سؤالنا : الى ماذا يرجع ذلك الشعور التامس
الذي ساد الناس ؟

الجواب الاول ، طبعاً ، هو في سبب كل علة اجتماعية
راهنه خارجة عن نطاق الطبيعة الانسانية . هو في نظام
الرأسمالية الذي ولد الاستثمار ، الذي بدوره يولد الحروب

والتعاسات كما شاهدنا واقتنعنا من تجربة الحرب الكبرى، فضلاً عما رأيناه ورآه الجميع من الالوف وعشراتهما. من الحوادث الثانوية الأخرى، حتى لم يعد بوسع أكثر كتاب البورجوازية مهارة أو أعظمهم عقلية أسطورية المشرب أن ينكر أمام المعركة العامة كون تلك الحرب الكبرى كانت «كارثة الاستعمار الحديث»، (١).



يبد أن هذا «الاستعمار الحديث»، أصبح بعد حربه شيئاً غير ما كان قبلها. لبثت جميع أسسه وعناصره التي عدناها فيما سبق حية موجودة بعد المجزرة التي تسبب بها، لكن كلاً من هذه الأسس والعناصر غدا قائماً في صورة له أضخم وأخطر من ذي قبل. فمن قبل الحرب كان العاملان الرئيسيان فيه: أما ذلك الاتفاق بين الدول والقوى المستعمرة على ضحاياها فتقسيمها، وأما ذلك التنافس عليها فالقتال من أجلها. ثم كان هناك عاملان مضادان، وأما بصفة ثانوية ضعيفة حتى لم يكاد يجديان فتيلاً. غير أنهما كانا أساس كل شيء بالنسبة

(١) هذا التعريف هو عنوان الفصل الثامن والعشرين من كتاب «ملاخص

التاريخ، لمؤلفه البريطاني الشهير ه. ج. ولز

الى مستقبل الاستعمار، اي بالنسبة لحقبة ربع القرن التي تلي الحزب . هاتان القوتان كانتا قوتي المعاكسة للاستعمار : الاولى مقاومة الشعوب الضعيفة التي يفترسها . والثانية نهضة الطبقات العاملة في الغرب وظهور احزابها الاشتراكية والثورية وتوسعها . تلك الطبقات التي لم تكن تستفيد من الاستعمار الارشوات مقبوضة من بلغ العيش والاجور المخدرة لتستثمر لقاءها حتى انطفاء جذوة النفس ، ثم لتساق الى محاربة بعضها البعض والى الاستعمال ضد الشعوب الضعيفة في سبيل السادة الكرام الذين يفرزون لها تلك الحصص الضئيلة المملوطة من منهبوات فتوحهم و « مدينتهم » .

ضعف ذينك العاملين المقاومين قبل الحرب جعلهما لا يظهر منهما الا انقياد وخمود وانسياق تحت علم الاستعمار او نعله ، بصرف النظر عن بعض الشذوذ . من ذلك الشذوذ كانت الحركة « البولشفية » التي مثلها واحد من اعظم واشرف رجال التاريخ ، بل واحد ربما كان اعظم من تكلم بصوته واثر عليه تأثيراً مباشراً بقرة اخلاصه لخير الانسانية وفضيلة العلم والعدل ، بعدم انحيازه انحيازاً مخلصاً لشيعة واحدة عن خط الدفاع عن مصلحة وتكامل جميع المظلومين في الحاضر ، وجميع الناس على

الاطلاق فيما يلي وقته . وقد وجد ذلك الرجل ، لينين ، ان طريق الخير والعيش الاخوي العادل للجميع هو درب ثورة الشعوب المستعمرة والطبقات العاملة . فتقدم الى هذا الدرب الشاق ليقود البشر الى مستقبلهم .

ثم ما لبثت تلك الحركة التي شذت ونشأت عن وهن وتقهر أصلها ، أي عن ذينك العاملين ، التي بقيت أمينةً كاملة الامانة لروح العاملين وغايتهما ، لخير جماهيرهما المغرورة واستقامة نضالها ، التي مثلها ذلك الرجل وحزبه الفولاذي الكيان — ما لبثت أن تطورت بسرعة مدهشة . ما لبثت أن شملت القسم الاكبر من المظلومين واخوة المذبوحين أثر صدمات الحرب المريعة وخيائتها . لقد انبثقت الثورات والتمردات العنيفة ، إما تحت قيادتها وإما مستوحية من روحها ، تهاجم الاستعمار في كل مكان القارات الخمس ، من المانيا حتى اميركا ، من الصين حتى تركيا ، من فنلندا حتى ايطاليا ، ومن الفيليبين والانيد ونيسيا حتى مراكش وسوريا . ولقد تجسد استفحال شأن هذين العاملين المقاومين للاستعمار في صورة الثورة الروسية الناجحة ، التي مثلت اتحاد نهضتي البلدان المستعمرة والطبقات العاملة ، لان الامبراطورية الروسية

السابقة كانت في قسم منها رأسمالية استعمارية (القسم الغربي والشمالي منها خصوصاً) ، وفي القسم الآخر (الشرقي والجنوبي) كانت شعوباً مذلولة ، محرومة حرياتها الوطنية ومستعبدة لرأسمالية القسم الاول .

منذ ذلك الوقت دخلت القوات اللتان كاتنا في أواخر القرن الماضي جنينين يتكونان ، وفي أوائل هذا القرن طفلين ينميان ، دور الرجولة . لقد دخلنا الميدان الاستعماري لمحاربتة والقضاء عليه . وهكذا تغيرت حسابات الاستعمار وموقفه عما قبل ، بعد اذ تجلى له المعول الاساسي في افئائه يوا كبه العامل الاخر الذي هو تنافس قواه فيما بينها . وكل من العوامل الثلاث ، كما ترى ، خارجة من وجوده كما يخرج الدود من الزيتون وفيه .

ثم يجئنا عامل خامس طلع وظهر ، طبعاً ، كأخواته من نظام الاستعمار الرأسمالي وفيه ، ونمى متضخماً مبتعداً عن قياس أصوله الصغيرة السابقة . وهذا هو الازمة الاقتصادية التي انفجرت من اميركا في سنة ١٩٢٩ لكي لا تنتهي ، أو تنتهي الى أزمة أكبر منها بعد تحسن سطحي مصطنع لا يجدي فتيلاً ، لا يستأصل طبيعة الازمات الدورية في النظام الرأسمالي ، الطبيعة

التي تستولي عليه كما يستولي الممرض أكثر فأكثر على صاحبه كلما شاخ وخرف. هذا العامل هو الذي يخلق تحارب الرأسماليين الاقتصادي فيما بين بعضهم البعض ، اتباعهم في ذلك طرق انتاجهم الفوضوية ، تدميرهم الانتاج ووسائله التي يمتلكونها بدون حق غير حق الاستثمار والتحايل ، وكل ذلك في سبيل تأمين أرباحهم وحدها مهما رافقها من الجرائم والتعطيل والشقاء الاجتماعي . هذا العامل الخامس هو « النظام » الاباحي الاعمى ، المتروك تدميره للاقدار ولتصرفات أناس جهلاء ونصابين وسفكة لا يرون أبعد من انوفهم وفلسهم الذي في يدهم ، ويتحكمون مع ذلك بالمجتمع تحكما لا يراود منه الا مثل أعلى واحد هو مراكمة الاموال وحصرها واستخدامها في المراكمة والحصر واستعباد الانسانية بأسرها . ثم هو نفسه الذي يدهور مسيبيه بالاشتراك مع بقية العومل ومن تلقاء نفسه ، اذ أنه بعد ان أعطاهم نظامهم ملايين وبلايين عادت ازمته تعطيهم افلاساً وتحول بلايينهم الى اوراق لاقية ، او لان هذه الاوراق ليست مع احد سواهم فلا يستطيع احد شراء شي ، فلا يعودون يفتجون شيئاً ، ثم يدمرون المنتج (١) ، وأخيراً لأنه عندما

(١) حوادث رمي القهوة في البحر في البرازيل ، وحرق القمح في امريكا ، وبيع الماشية في هولندا ، وتحطيم السيارات في امريكا ، ومنع استخراج الكينا وشراء الاختراعات وانلافها ، والوف امثالها لم تعد خافية على احد . ان هذا الجنون يملأ الارض الرأسمالية طولا عرضاً

يتناول رأسمالي على آخر ويتناطحان ويتضاربان كالديكة
المجذولة تكون النتيجة المباشرة ان كليهما يخسر ، وكثيراً ما تكون
افلاس احدهما ان يفلس الاثنان امام مناطق اقوى ،
فتغلق معامل احدهما او كليهما ، ويتشرد عمالهم الذين عاشا على
امتصاصهم ، واخيراً تزداد بكل ذلك عرقلة دولاب النظام الذي
تعود في النهاية نتائجها الوخيمة ايضاً على الجميع ، حتى على الذي
خرج من التناحر رابحاً برغم خسارته الاولى .

هذا العامل هو الذي يخرج كالليل غار لنظامه قبضة ضئيلة
تبقى ملوك عالمنا الحاضر الغارق في بربريته ، قبضة تسلم عبر
جميع اهتزازاته التي دهورت صغار « رؤوس » اولئك الملوك ،
قبضة تعيث فساداً في مجتمع فاسد ، مخرب ، ثمرته هذه الملايين
وعشرات ومئات الملايين من الجائعين والعاطلين واشباه
العاطلين ، يموتون نفوساً وجسوماً وهم يعيشون عالة شقية ،
كقطيع من الماشية البهائم التي لا فائدة منها ، التي لا تصلح في
نظر ارباب البشر لغير الكسب في البحر لئلا لا تسعهم القبور
فتفوح جراثيم تعفنهم — عالة لا ترى الرأسمالية المستعمرة
الباقية مهرباً من إعاشتهم في حالة السلم لئلا يموتون في الشوارع
التي يجتازونها ، او لئلا يخننهم عظيم عذابهم ويتحول ضدّهم ،

بدل ان تعيش هي عائلة عليهم ، الامر الذي يهدم الشرط
الضروري لبقاء الرأسمالية . (١)

(١) يقول كارل ماركس وفريدريخ إنجلز في بيان ١٨٤٨ الشهير :
« ان العالم في العصر الحديث بدل ان يرتفع مع تقدم الصناعة
يسقط اعظم فاعمق ، هاوياً تحت مستوى الشروط التي تؤمن
الحياة لأهل طبقته . انه يصبح صعلوكاً ، والصعلكة تأخذ في
النمو باسرع من نمو السكان والثروة . وهنا يصبح من الواضح
بان البورجوازية «اي الرأسمالية ونظامها» لاتصلح ان تكون
الطبقة الحاكمة في المجتمع او ان تفرض عليه شروطها للحياة
كقانون منزل . انها لاتعود تصلح للحكم لانها تعجز عن تأمين
البقاء لعبدها ضمن نطاق عبوديته ، لانها لاتستطيع وقفه عن
السقوط الى حالة يصبح عليها فيها ان تطعمه بدل ان يطعمها
هو . ان المجتمع لايعود يمكنه الحياة تحت حكم هذه البورجوازية ،
وفي كلمة اخرى يغدو بقاؤها غير متلائم مع بقاء المجتمع » .
هذا النطق النبوي بكل معنى الكلمة كتبه العالمان العظيمان
والرفيقان الكريمان ، ماركس وإنجلز ، منذ حوالي تسعين سنة .
واليوم ماذا نرى ؟ ليفكر الانسان بالعشرين مليون عاطل الذين
تشحذهم لقمات بقائهم رأسمالية اميركا ، وفي بقية الملايين في بقية دول
الاستعمار . ليفكر بنصف البشرية بأسرها كيف ترقد على اوساخها
في مزابل الوجود في الهند والصين وسواها ، كيف تعيش

والان ، ها هي هذه العوامل الاستعمارية الخمس تتصادم وتتعدد حول الحبشة . أربعة منها تقاوم الاستعمار وواحدة تدافع عنه . فانشقاقاته الداخلية تحدث بين دوله ، ومقاومة الطبقات العاملة ، ومقاومة ريفياتها الشعوب المظلومة ، صاحبات القضية المتحدة مع قضيتها ، والازمة الرأسمالية الاستعمارية — كلها في جبهة تهاجم ، بادراك او بعقوبة او بحتمية التطور الحاصل ، معاقل الانحطاط والهمجية الباقية في العالم ، بينما فكرة الاتحاد الرأسمالي تكاد تكون مستحيلة التحقق (والتي ان تحققت كانت زيادة الخير خيراً أكثر من زيادة الشر شراً ...) تعمل وحدها لبقاء تعاسة العصور المتراكمة وابعادها النظام « القانونية » .

ها هي هذه العوامل الخمس تتصارع وتتشكل في ساحات الاستعمار متخذة لها مظاهر التقلبات الشاذة والتقلبات

الجماهيم الجرارة منها على الاعشاب وقشور الاشجار . ليفكر كيف وقف نمو السكان والثروة بعد ذلك . واخيراً ، ليفكر بالانقلاب الاجتماعي المنتشر في طول العالم وعرضه بنتيجة هذه الاحوال المرعبة التي خلقتها الرأسمالية ، والتي لم تعد تتلاءم مع الوجوب انطبعي لبقاء المجتمع .

الفجائية الغريبة ، التطوحات والمغامرات ، عصبية التوقعات المعقولة وغير المعقولة والانتظارات المقضوضة مضاجع اصحابها ، البلبلة الفكرية والفاق العام وعدم الشعور بشي من الاستقرار ، عدم رؤية أي مخرج او حل مقبولين او بادين قابلين للتطبيق ضمن مخرج وحلول اصحاب النظام السائد ، حتى ولا رؤية شي من ذلك في حروبهم المملوطة الطائشة ، التي إعتادوا أن يلتجئوا اليها لتسوية امورهم وتصكير ارباحهم بالقتل والنهب بامتلاك قيادة جماهير العبيد المذلولة عن طريق استخدام أسفل واخبث الوسائل ، بحقنها بنوبات هائلة من الجنون العام الوقتي ، فظيعة البشاعة ، كريمة روائح الانحطاط والدماء .

ولكن اكبر عامل مباشر الفعالية في كل هذا التبليل يعكر حاضر البشرية التي لاتزال تائهة ، لكن التي لا تزال ايضاً مستبشرة وذوات ايمان بالخلاص برغم كل شي يرجع في الدرجة الاولى الى فرع يلتقي فيه الميل الاستعماري الى التشقق والميل المعاكس للاتفاق . بل قل ان هذا الفرع لهما هو في الواقع اصلهما يشعان كلاهما عنه . اعني بهذا الفرع او الاصل الجامع انقسام الرأسماليات المستعمرة انقساماً لا كوحدات وطنية ، بل كجماعات لاوطن لها كما ليس لها دين

او رابطة الا دين الربح القريب والمصلحة الانية .
كل متبع اليوم يعلم بان الشركة التي يكون اسمها باجيديا
قد تدون في الواقع هولاندية واميركية ، لان حاملي
اسهمها هولانديون واميركان . رجال كالمفوضين السامين قد
يعملون لمصلحة اية شركة لا يملك شيئاً منها اهل بلادهم اكثر
مما يتوكلون بالمحافظة على مصالح شركات بلادهم ، لان العواطف
الوطنية في الجيوب هي التي توحى لرجال الحكومات جهات
اعطاء الامتيازات والاحتكارات على حساب الشعوب التي،
يحكمونها بسلطاتهم الاقطاعية الحديثة . يخبرنا المؤلفان
الدوليان زيتشكا وهاينجن ، مثلاً ، في كتابهما « الحرب السرية
في سبيل النفط ، اشياء كثيرة من هذا القبيل . من ذلك ، على
سبيل اللوح السريع فقط . كيف تدافع الحكومة الاميركية عن،
وتعمل لمصلحة ، شركات « يتردينغ » الهولاندي الانكليزي
ضد مصالح الشركات الاميركية فضلاً عن البلاد الاميركية
بأسرها ، بينما الحكومة البريطانية تذهب عكس الجهة تماماً .
كلنا نعلم ان أناييب نفط الموصل تخص رأسمالين من اربع او
خمس دول ، ولكن قليلاً من يعلم ان هذه الشركة دول قائمة
بذاتها تحكم لا الاربع او الخمس دول التي ينتمي اليها اصحابها

فقط ، بل غيرها كثيراً ايضاً . العالم يرتجف لمجرد ذكر اسم « الرجل السري » ، باسيل زهاروف اليوناني ، الذي كان يسمسر في الحرب الكبرى وبعدها ابيع اسلحة الى من يقتلون اليونانيين . كان الجنود الفرنسيون يسقطون في الجبهة البلغارية أثناء الحرب العظمى بمدافع افرنسية عيار ٢٥٠ . والمسيو « شنيدر » الفرنسي ، الشريك في معامل اسلحة « شنيدر وكريزو » له معامل في تشيكو سلوفاكيا تبيع المانيا ونمون جناب المهر هتلر بما سيستعمله في الحرب الالية ضد جيرانه . ان فضائح الاسلحة الشهيرة التي اميط عنها طرف من اللثام في مجلس الشيوخ الاميركي في العام الماضي ، فاصطدمت بقية الاماظة بذيول لها في الحكومة البريطانية ، أرت الناس اشياء كثيرة ، لكن الشعور الذي يجب ان ينتج عنها ، وهو ان الراسمالية التي تستخدم الوطنية لاطونية ، لها لم يحس به على نسبة حقيقته وهوله .

رافع لواء الوطنية الاستعمارية (١) في اميركا هو ملك ملوك صحافتها ، المستر « هيرست » . هذا الرجل دعت عشرات

(١) هناك وطنيتان . واحدة اعتدائية ، كاذبة واستعمارية ، وهي رذيلة اما الاخرى فوطنية فضيلة ، وهي شعور التحرر الذي يلهب أبناء كل امة مستعبده

صحفه صباحاً وظهرأ ومساء الى مبدا « اشتر ما هو اميركي » ،
بينما هو نفسه كان يتتاع الات طباعته والورق لجرائده من
كندا وسواها . عائلتا « متسوي » و « متسوكا » اليابانيان ،
الراسماليين الاقطاعية ، تحقنان الشعب الياباني بوطنية فاشستية
مسمومة بينما تساهما انكليزاً او اميركيين في اشغالها ، وتشتركان
واياهم في استحلاب دماء الصين ، وبينما مالىو بريطانيا العظمى
لايبالون بمجد بريطانيا بقدر ما يهتمهم تقدم اليابان الاستعماري ،
لانهم وظفوا اموالهم في مشاريعها . هل ان نظام حيدر
آباد ، اغني رجل في العالم على مايقال ، وطني هندي عندما
يهب نصف مليون جنيه دفعة واحدة لتحسين الامبراطورية
البريطانية بمناسبة يوبيل الملك جورج ؟ هل الهندي آغا خان
حقيقة هندي لمايصرح بأن بلاده ليس لهاقل حاجة بالاستقلال ؟
هل لشانغ كاي شيك ، زعيم فاشستي الصين الذي تقطر عنه
الدماء ، قدر تتفة من الوطنية عندما يتاجر بشخصه بين الدول
ويبيع نصف مليار انسان من ابناء الشعب العظيم الذي ينسب
ذاته اليه ويظلمه — يبيعهم لمتراليوزات اليابان وصناديق حديد
زملائه راسماليي الغرب ؟ هل اسماعيل صدقي المصري مثلاً
يشعر بمصريته ، او « ساسون » بعراقيته ، او العابد باشا

بسوريته ، او هل يبالي اي منهم لو فني جميع العرب عن بكرة
ابهم ورجح كل منهم قليلا من ذلك؟ هل كان لموسولينى وهتلر
ومن واءهمامن الراسمالية، وهل كان للوردات الجزر البريطانية،
شي من الوطنية لما أنشأ هؤلاء دولتي الفتك لاولئك مما يمنعون
في نهبه من شعبهم . (١) كلا! الراسماليون وخذاموهم لا وطن
لهم الا وطن درهم .

(١) راجع للتثبت من النبذات السابقة التي ليست الا نقاط
من بحر، ولرؤية بعض هذا البحر، شيئاً من الكتب او المستندات
القليلة التالية ، التي انتقيناها اعتباطاً :

كتاب « الحرب طبطابة » War is a racket بقلم
الجنرال بطر الاميركي، « الحرب العالمية القادمة » The coming
world war بقلم العالم الانجليزي ت . ه . ووترنجهام
وثائق مجلس الشيوخ الاميركي بخصوص فضائح شركات الاسلحة
عام ١٩٣٤ كتاب تجار الموت Merchants of death
بقلم اينجلبرخت وهانيغن ، وجميع الوثائق والمستندات
التي بني عليها الحرب السرية في سبيل النفط The secret
war for oil نيفن وزيتشكا ، وجميع الوثائق والمستندات
التي بني عليها . كتاب « القطن » Le coton بقلم زيتشكا
وجميع الوثائق والمستندات التي بني عليها . رواية « نار »

بعد هذا التوضيح نستطيع ان نرى كيف كانت تلك
العوامل الخمس تلعب حول الحبشة وبها بتلك الصورة المتنافرة
التحركات التي حيرت العالم ولبسته لسيدتين :
اولاً — لعدم المعرفة الصحيحة التامة ، او على الاقل

الخالدة لهنري باربوس . « استعمار النفط » بقلم اشهر صحافي في
العالم المستر لويس فيشر الاميركي الموجود حالياً في موسكو ،
الفاشستية واثورة الاجتماعية Facshism and social
revolution بقلم بالم خط . « موسليني احمر واسود
Mussolini red and black بقلم آرماندو ورغي كتاب
ستالين لباربوس ايضاً جميع اعداد مجلة كرابويو Crapouillot
جميع اعداد مجلة « موند » Monde الفرنسية العالمية . وهناك
في كل اللغات الاجنبية الحية مالا نهاية له من الكتب والكراسات
والمقالات التي نقشت على حجر التاريخ حقيقة الراسمالية في
العصر الذي كان يلعب فيه بالبشر باهول صورة وكية وتنظيم
مدمر عرف منذ صار على هذه الارض شيء اسمه الانسان .
اما في العربية فلا ندري وجوداً لا أثر من هذا الادب المعني
بحياة الراسمالية ونظامها مما يدل على ما نقول غير مقالات قليلة
خافتة نشرت هنا وهناك في صحفنا .

لعدم الشعور شعوراً يقينياً ، بالعوامل الاساسية الراهنة في حياة الاستعمار .

ثانياً — لعدم تفسير الحوادث المبهمة ، والسفسطات الرسمية ، وتنقلات الشطرنج السياسي ، والتناقضات اللامتناهية ، المغطاة جميعها باغرب ستور الغش والتمويه البورجوازي وأمره وآخر ما استطاع ان يخترعه اختصاصيو الفن السياسي ، على ضوء تلك العوامل وبحسب الاستنتاج المنطقي المبني عليها . وكل هذا يعني عدم ارجاع المظاهر الى اسبابها الحقيقية .

لكن عندما نرجع المظاهر الى اسبابها نجد انه كما تنقسم العوامل الخمس الى جبهتين ، واحدة تمثل إئتلاف الاستعمار وعمله على بقاءه والاخرى تمثل إنشقاقه والهجوم عليه ، كذلك نجد جميع ما يترأى من حركات الدول والهيئات التي فيها تنتسب الى احد مجريين كشيخين ، متداحنين ، منبعثين عن ذينك المحركين الاساسيين في مجتمع اليوم . وفي هذين المجريين المتصارحين اكثر فاكثر ، المتوسعين في شمولهما للحوادث المتعاقبة المتضخمة اكثر فاكثر ، نستطيع ان نضع كل ما ظهر ويظهر في الميدان الدولي لتعلق كل ما يحدث ويتشكل بتلك العوامل الشاملة ، كما نستطيع ايضاً ان نستدل من

جميع ما يجري في ذلك الميدان على خطي المجريين وعلى وجود
وتفاعل العوامل التي ترسلهما كأساس ومنبع لهما .
من الطبيعي ان لانستطيع مرافقة كل تلك الغيرات
الشباطية الجو بتفسير موسع واثبات مطوّل . بيد ان كلا منا
يقدر ان يتبين دائماً وفي كل مكان ، فيما اذا انعم النظر في
الماجريات الدولية بدقة ، وفيما اذا حسب معانيها الاستعمارية
الحياة حساباً واقعياً يرجع بالاشياء الى أصولها وبواعثها المادية
ويقابلها بعضها ببعض معلقاً اياها على عواملها لا على هواء
الكلام والتمثيل المسرحي الرسمي والنظريات الخيالية ، كيف
تتفاعل هذه العوامل وترتبط بها الماجريات ارتباطاً مباشراً
متهوك الستور . ثم بعد ذلك يسهل على كل انسان يستطيع
الفهم ان يفهم ماذا تريد دول الاستعمار ورأسمالياتها في كل
حركة وسكنة لها ، وما هو اقصى ما تستطيع تحقيقه للبشر ،
وبالتالي ما هي المصائب التي تبيتها له والنهايات المحتومة لحياته
فيما بقي الاستعمار طليق اليد يفعل ما يشاء . وبالنسبة يصبح
ايسر على كل انسان ، يستطيع ان يفهم ، ان يفهم موقفه وجهته
ان يدرك ما هي مصلحته الصحيحة (الاتية ان لم تكن الحالية)
ومصلحة أولاده وجماع عشيرته من بعده . هل يجاري المستعمرين

في أقل شي ويصدقهم ، أم لا يثق بكلمة وحركة واحدة تصدر عنهم ، ويعمل ضدهم جميعاً على السواء مهما تكلفوا البراءة وتصنعوا الجمال ، لتخليص نفسه وأولاده وضميره البشرية جمعاء من هولهم وسبتهم ، لوضع كل شي على أساس جديد وعادل ونظيف ، لبناء نظام ممكن وضروري ومسعد لكل انسان حين يتم ، ومتعس اثنائه بنائه لواحد بالمئة او حتى بالالف من اركان الظلم والاباحية المدلهمة .

غير اننا ، وإن كنا لانستطيع مرافقة تقلبات وتناقضات عام ١٩٣٥ من حول الحبشة ، الا أنه يجب علينا ان نوضح بشي من الاجمال كيف كان تفاعل تلك العوامل التي اخرجتها حتى اخرجتها على تلك الصورة المبلبلية الموصوفة ، كما يلزمنا أيضاً ان نوضح كيف تدل هذه التقلبات والتناقضات على تفاعل العوامل . تلزم لنا امثلة عامة الدلالة تظهر دخول الحوادث في هذا المجري او ذاك وخروجها من هذا او ذاك . وهذا معنى التفاعل : جانبان متقابلان يؤثر كل منهما في الاخر بناءً على تأثير الاخر فيه . وهذا ايضاً معنى الحياة والطبيعة وشعلتها المرقية لهما ، المولدة المحركة لهما ، المخرجة من تنافس التناقضات فيها تآلفاً بينها كآلف التناقض

بين الرجل والمرأة في وليدهما .

وسنرى كيف أنه كلما انبثق لذينك المجريين موقف معين قائم بذاته كأنّ اما موقفاً يميل الى قطب ذي جانبيين : في جانب يقع التجمع الاستعماري في كتلة ضد أعدائه لاجل التخلص منهم وانجاح هجمة اقتسام عالمي جديد وفي الجانب الاخر اعداؤه يردون الهجمة ، واما موقفاً آخر ينفرط فيه عقد ذلك التجمع امام ضغط ومقاومة أعدائه ، التحارب الداخلي بين قوى الاستعمار المتنافسة ، سوء أحواله وتهديدها لمصيره تهديداً شديداً . وفي كل موقف آني او محلي نرى الصورة الواحدة المصغرة ، الممثلة للصورة الكبيرة التي نشاهد فيها كيف يعالج الاستعمار اليوم نزعه . هذا النزع الذي ابتداء دوره الاول منذ ١٩١٧ ، بعد وصوله الى قمة عزمه في الحرب الكبرى ، وأخذ يحتاز دوره الثاني منذ ١٩٢٩ ، بعد خروجه مدحوراً مضروباً من مروج مجده الذهبي .

لكن ، قبل الاستطراد بكلمة واحدة في الموضوع يحسن بنا أن نثبت مرة اخرى ما رأينا بأم عيننا من بقاء بريطانيا صاحبة الاهمية الاولى في كلا وجهتي هذا المجال ، كما كان

شأنها في المجالات السابقة . لها الكلمة الاستعمارية الاولى ،
والرأي والادارة والتأثير الرئيسي في كل خطوة تخطوها المشكلة .
للرأسمالي المجتمعين تحت علمها المسعى الاول في الاختلاف
اذا وقع ، وفي التجمع اذا هو وقع . في بريطانيا تبدو أقوى
مظاهر وحوادث الاتجاه نحو التجمع او الانشقاق . نرى
رأسماليين العالم يتحولون اليهم اكثر فاكثر للسير تحت
علمها نحو صليبية الهمجية الحديثة . وفيها نرى رأسماليين يختلفون
وينتظرون ويشطرون بقية عالم الرأسمال معهم . وفي نفس الوقت
ايضاً نجد ان هذا الاستغلال بعلمها تعاكسه وتنافسه تجمعات
رأسماليين ينضون تحت أعلام الدول الكبرى الاخرى ، وأهمها
الجماعة الأميركية والفرنسية . بيد انه ، مهما يكن ، يبقى
« لشخص بريطانيا المعنوي » ، « لشركة الامبراطورية المساهمة » ،
الدور الاستعماري الاول . وما ذلك الا لان املك هذه الشركة
اوسع املك العالم ، لائن دائرة نفوذها اوسع دائرة ، لان
عبيدها « المباشرين » يبلغون ربع أهل الارض تقريباً ، لائن
أعضاءها ابلغ الناس طمعاً ، أكبر الرأسماليين عقلاً ، اعمقهم
حيلة واوسعهم فيها ، اغناهم واكثرهم عدداً ، وادهاهم في طرق
سياسة عبيدهم . بعد بريطانيا ، في الدرجة الثانية ، تأتي الرأسماليات

المستظلات بأعلام بقية الدول ، فترافقها أو تعاكسها أو تحاربها حسبما تقضي المصلحة ، كما يقولون في بلدنا .

كيفما توجهنا نجد بريطانيا العظمى وراء كل حركة استعمارية مهما كان سببها بريئاً أو قبيحاً . ان من طبيعة « الكاتالانيزر » الاستعماري ان لا يعيش وان لا يكون له مكان الا مكان تعيش فيه الفظائع الباردة والحرب . والتجارة بالشعوب لا تربح مثل الربح الذي يأتي من حيث تتذبح .

سواء كانت بريطانيا خلف ايطاليا ، تدفعها للتخلص من الحبشة قبل ان تتقدما للاقسام مع بقية الجوقة لكل منها حسب مقامه ودرجته ، أو سواء كانت خلف عصبة ومباديء « الشرف » و « احترام العهود » واخوات هذا الشرف وتلك العهود ، فان الغاية والحافز وكل العيش — لها اولاً — وللبقايا برفقتها او ضدها — ان تتفق مع البقيات في سبيل القسدة او تختلف معهن على الحصة . دائماً تكون ذات عمل بيد وعمل معاكس بيد اخرى ، ذات قول بلسان وقول باسان ثان ، ذات قول بشكل وعمل او دفع مستور انى عمل بشكل ملغ للقول . ذات وجه مزدوج : وجه الاله « جانوس » .

في بريطانيا العظمى تكبر انقسامات الرأسمالية العالمية

وائتلافاتها ، قسم منها يعمل لهذا الغرض وقسم لذلك . قسم يقول كذا وآخر يقول العكس . شركة يتوكل عنها سياسي مستوزر قد يتوكل في نفس الوقت عن شركة اخرى تضاربها ، فيؤلف بينهما ، او يحصل لهذه من تلك وتلك من هذه ولكليهما معاً من جهة ثالثة ، جهة شعب ضعيف مغلول بآلية السلطات الاستعمارية التي يتصرف بها . هذا التنافس الحر الذي هو روح الرأسمالية الملازم لها ، والذي تتكبر صفته الاستعمارية في بريطانيا ، هو السبب في انه حيث يذهب الكاتالانيزر يرحل الشقاء ، الشقاء العام الذي ليس الا ثمن الارباح المكومة .

ساعدت معظم الرأسمالية البريطانية على خلق الفاشستية في ايطاليا ، وكانت لها اليد الطويلة في نصب « الديكتاتور » على عرشه وفي بقائه منصوباً طوال اربعة عشر حولا . كذلك ساعدت ، بل كانت اكبر عامل ، في خلق « صورة » جمعية الامم . وكلا الضمين كانا متناقضي المظهر ، وحيدى الحقيقة ، حقيقة الدفاع عن ائتلاف الرأسمالية البريطانية حيث كانت تأتلف : في وقف موجة الشيوعية الايطالية وفي استثمار العالم بالاشتراك مع بقية الرأسماليات باسم القانون والثرثرة الافيونية المتمدنة دون ان يقع بينهم حرب تكون نتائجها العن لهم

من التي سبقت .

رَبَّتِ الرأسمالية البريطانية بنتمها الصغيرة ، الرأسمالية الايطالية ، لمقاومة رأسماليات اخرى . كذلك رَبَّتِ رأسماليات أخرى لمقاومة الاولى . وضعت ايطاليا في وجه الحبشة من قديم وقالت لها : « اذبحي لنا كل » . وحاولت ان تخز الحبشة وقالت لها : « ان تموتي اذا انجذتك » . وبعد ذلك بزمان دفع قسم من الرأسمالية المنضوية تحت علم الانكاز بالسنيور الهائل الى اقتحام الحبشة ، والقسم الاخر وقف في سبيله . من قديم جلبت ايطاليا الى شرقي افريقيا . الان تريد اغلبيتها ان تخرجها وتجاس في محلها بعد ان نظفته وطلبت سواه . من قديم هاجم استعمار بريطانيا الحبشة واحتل عاصمتها ، والان بعد صار افضع مما كان يضع على وجه يياض الكلس باسم نصرها على آكل البشر وقبيلته .

مع مجي الفاشستية الى ايطاليا وقعت هذه تحت نفوذ غير قليل من نفوذ رأسماليي بريطانيا . وقد حدث ذلك باسم الوطنية الايطالية الفاشستية وكرامة لمجد «ديكتاتور» يقول بأنه سيجعل صعايلكه الذين اجاعهم ملوكاً ممالكين على بني البشر . ولما كانت ايطاليا اضعف دول الاستعمار طرأ

ولما بقيت كذلك طوال مدة بقاء الفاشستية فيها ، التي ما كان
وظيفتها كانت طوال الاربعة عشر حولاً من حياتها إلا
الادعاء بانها ستجعل القارات الخمس و اوقيانوساتها الخمس
امبراطورية رومانية من جديد ، فقد بقيت الانغام الفاشستية
العالية تطرب بريطانيا ولا تزججها . بقيت تستخدم ايطاليا
كمرافق امين ، وتشجع ديكتاتورها بثنائها الجميل ، وبدرهم اولقمة
اجمل ، وتطوح بها هنا وهناك دون تخوف . لكن لما جاء
الوقت لياكل شرب الذي أجاعه بمجد ذلك الديكتاتور ، ولما
لم يعد يصبر على الجوع ، ولما رأى خليفة ذئبة الرومان ان
لا حيلة له الا بمد اليد الى زاد معلميه وأصدقائه من « جنتلمانية »
الستي في لندن ، ابتداء هولاء الاصدقاء يفكرون ، لكن دون
ان يخلعوا عنهم وجههم : وجه من يريد الاتفاق ووجه من
يريد الاختلاف ، اذ انهم اعتادوا ان يطلبوا الربح ويقبضوه
بكلهما ، فكيف التخلي عن احدهما . ان كان من تجل فهو لاعادة
القناع لسواها . للديكتاتور مثلاً ، كما حصل في بعض مواقف
الرواية الحبشية الحالية . والرجل طبعاً يلبسه وهو فرح يتأبط
احلام المجد . ولكن ...

هذه ال « لكن » تتركها لما بعد ، ريثما ننتهي من القصة

التالية :

روبرت لويس ستيفنسون من مشاهير ادباء الانكليز .
 لقد تصور رواية مخيفة عن رجل ذي شخصيتين ، ذي وجهين ،
 ذي طبيعتين . كان هذا الرجل المزدوج عالماً مخترعاً من جهة .
 كان مهنياً ، عالماً ، مخلص الحب ، يسمو الى تحقيق افكار
 عجبية تدور في راسه ، واسمه « الدكتور جيكل » . انما ، من
 جهة اخرى ، كان ينقلب ، وهو في مختبره وخارج دائرة صداقته
 ويثته الحيمة ، الى نصف انسان ونصف شي* يشبه الغوريلا .
 وفي هذه الحالة كانت تثور فيه غرائز الاجرام ، فيخط الى
 التمرغ في شهوات وتصرفات فظيعة في الحانات وسواها . في
 هذه الحالة يكون اسمه « المستر هايد » .

كثيراً ما تخطر ببالي هذه القصة عندما افكر في مصيبة
 العالم بالاستعمار البريطاني . فهذه الدولة ذات الشخصية المزدوجة
 هي دكتور جيكل ومستر هايد السياسة الراسمالية الراقية . انما
 الفرق بينهما وبين بطل قصة ستيفنسون هو في ان الاول كان
 نبيلاً جميلاً في اصله ، قبيحاً في تحوله الطاري* ، بينما شخصية
 استعمارنا تمثل العكس تماماً . أساسه « هايدي » ووجهه
 « جيكلي » . قلبه ، اعمال اربابه الخفية ، لاشياء كريهة ، بينما

السياء في الغالب حلو وديع كأنه مأخوذ من حمامة بيضاء
الريش ناعمة . وفي هذا الاله ذي المظهرين ، بل ذي الألف
ومئة مظهر والحقيقة الواحدة يرقد اكبر خطر على مستقبل
الانسان وطماننته ورفقه .

ولكن فيه ايضاً — في جزائره الصغيرة — دقة تستطيع ان
تساعد على تسهيل الدرب امام مجرى التاريخ نحو عدل المجتمع
وتساميه . هناك شعب مستثمر عظيم اخرج بايكون وشكسبير
ونيوطن وتوماس مور وشلي وروبرت أوين . يروى انه لما
كان المستر « إيدن » في موسكو هذا العام ، نظر الرفيق ستالين
الى الحائط واطهر تعجبه بالاشارة الى تلك النقاط الارخبيلية
الضئيلة ، اضع في مياه خارطة الكرة بين المانش والاتلانتيك ،
ونوه بان لديها الفرصة بعد لتطهير ماضيها . بعبارة اخرى :
اذا شاء انباؤها شبيثة حقبة بدون رؤية الهند كثيراً في احلامهم ،
فان آكاييل الغار تتوج رؤوسهم ، مقدوفة اليهم من الانسانية
بأسرها لتوفيرهم على كل من يدب مقادير هائلة من العذاب . هيهات !
مالنا ولهذا . لنعد الى الحقائق ، فالاحلام لاتصلح الا
حيث يمكن تحقيقها . لنعد الى دور الدكتور جيكل والمستر
هايد ، الذي يمكن ان تلعبه بريطانيا على عدة وجوه ان شاءت ،

وان تدمج كلا الشخصين في نفسها ان شاءت ورات التناقض المفوض مقيداً ، وان تلبس كلا منهما لغيرها وتبقى هي الروح القابضة وسواها مقبوضة .

من تلك الازياء المنوعة التي تستعمل الوجهين بحسبها كونها اليوم ، في هذه الساعة من سنة ١٩٣٥ ، تحتفظ علناً بدور الدكتور الفاضل ، وتكلف سواها من الممثلين دور المستر هايد المسوخ . هذا ، طبعاً ، هو الموافق عندما لا يمكن اخفاء وجه المستر هايد ، لان بقاءه في سراديب دواوينها الخفية هو ابرع طريقة للمسرح السياسي في العالم الاستعماري . غير ان تعدياً صريحاً ، علنياً ، مثلاً اعلى لا وقع شكل يتخذه الطغيان واللامبالاة الاجتماعية ، تعدياً في المظهر الوحشي الذي تتخذه المغامرة الحبشية منذ يوم وال وال الشهير — غير ان مثل هذا كيف يمكن اخفائه ؟ اذن ليكن المستر هايد والمتحمل كل اللذات الحقة عليه غيرها . ان لم يكن من مهرب من سحنه فليكن ربيبها العتيق صاحبه . ليكن الدوتشه وهو خطيب فوق التانك ، او جاثم فوق الرقاب بمنجله الحصاد . ليكن السنيور موسوليني هو الديكتاتور هايد طالما انه يحب ان يكون ديكتاتوراً كيفما امره .

إنما الفرق بين الدكتاتور هايد وبين شخصية الزواية الأصلية ، فهو في أن هذه لم تصطنع لنفسها سوى صورة واحدة من الفظاعة المجسمة . هذا ، بينما صور واقعة وتصنعات وادوار هايد التقليدية كثيرة . أن كل رسم من الألوف التي ينشرها لوضعياته المتلونة تمثل حالة هايدية تختلف عن اختها

يرسل هنري باربوس الخالد في كتابه عن ستالني قولا نبويا : « ستكون بريطانيا العظمى آخر معقل للرجعية في العالم » .
... لكن لنترك هذا الآن . لنرجع الى العوامل والمجربان .



سـلـم الـاتـحـار

او

بين الارادة والضرورة

طغت على العالم بين ١٩١٧ و ١٩٢٩ موجتان عنيفتان،
الواحدة ثورية تقدمية والاخرى رجعية توقفية . كانت الثانية
تعظم وتسيطر في الظاهر . كانت تطوف لامعة على صفحة
الحياة . اما الاولى فكان يبدو غالباً كأنها تخبو وتتقهقر . غير
انها كانت تعظم وتنفخ من تحت الثمانية ، وتستعد لتبتلعها .

كانت الموجة الرجعية تتخذ لها في الميدان الاقتصادي
وجه احوال من الرخاء والبهجة الموقته . رأى قسم كبير
من الناس دراهم بايديهم ، فاصبح همهم ان يصرفوا والا
يبالوا بغير ساعتهم وافق اشخاصهم الضيقين ، كانوا هاتف
يخرج من أعماق اغوار الحرب الماضية ويخاطب قلوبهم بلسان
كلسان الخيام : اغتتموا الفرصة ، فقد رأيت الموت ، والموت
يأتي . اغتتموا هبات دقيقتكم ، ولا تحسبوا للغد ولا تنظروا

غير القبر بعد مائدة الشراب .

هذه الحالة الاقتصادية والعقلية التي نجمت عن الحرب المجنونة وذيوها وانطباع العالم بطابع اربابها ، والتي قللت قيمة الحياة ونشرت غيوماً مدخنة من الافكار والفلسفات والعادات والنفسيات الاغلاية السقيمة ، اثرت على الطبقات العاملة في الغرب وازعفت نضالها ، ف وقعت فريسة ا كذوبتين هائلتين : الديموقراطية الارثشائية الملتفة من جهة ، والفاشية ذات الفتكات والابجاد الديكتاتورية المدمرة .

اما الشعوب الشرقية فسادها ايضاً ، على العموم ، فترة استرخاء نسبية وان كان حالها دائماً حالاً ثورياً مناظلاً اشد واعنف واروع من حال الغرب . غير انه اعتلى عروش بعض هذه الشعوب في امكنة زعماء مخدرون ماهرون ، كغاندي الذي كان يحبش الهنود لمحاربة ثورة العرب العراقيين والذي جاءه شطر كبير من عظمتة عن طريق الصحافة والاذاعة الاستعمارية ، وكسعد زغلول باشا الذي كان يقول : « الانكليز قوم شرفاء معقولون ! » وهو يقصد من ذلك سياسيتهم المستعمرين .

ثم كانت التوسعات الجديدة ، التي عقبته الحرب والتي

اثيرت هذه من اجلها ، على حساب الامم المغلوبة (جبهة المانيا
ومعاهدة فرسايل بشأنها الخ ...) ، وعلى حساب الامم
الضعيفة التي لعب بها (جبهة الشرق الادنى والانتدابات الخ ...)
فاتحة ميادين فسيحة امام مختلف الجماعات الراسمالية . وبذلك
لم تكن هناك من اسباب مباشرة مستعجلة لوقوع الاحتكاكات
الحرية الشديدة بينها ، أو من ضرورة للتسرع في التوثب على
بعضها البعض ليخلص كل منها ما في يد الاخرى ، خصوصاً
بعد ان رأت ما خرج رأساً عقب حربهم الماضية من قلاقل
توجهت ضدها و كادت تدكها . تضامل فعل التنافس بينها كما
تضاملت العوامل الاخرى . وبالنتيجة تكاثفت فعالية الائتلافات
والتقسيمات عندها . كان هذا متجلياً في اجتماع الدول
المستعمرة الكبرى واذنابها الصغيرة حول مائدة جمعيتهم الحضراء
في جنيف ، التي ما كانت تبعد عن موائد « موتني كارلو »
كثيراً ، ثم لا تختلف عنها ابداً الا حيث تكون المقامرات
المسمومة في المدينة الاخيرة دائرة على حياة الشعوب بعد ان
تحولت الى اوراق نقد و « فيش » ، بينما تستخدم في الاولى على
الشعوب في حالتها الطبيعية الناشفة دون تحويل .

لكن ١٩٢٩ وجد الامور على ابواب حالة اخرى . سقطت

على الناس يومذاك ازمة مالية وتبعها ضائقة اقتصادية ، وتجمست فيها كل ما سبقها ونجمتا عنه من الفوضى الانتاجية والتوزيعية ، من مظالم وإباحتات النظام القائم على تأمين أكوام المراج وقنطرة السلطات والابجاد الشريرة على عصابات من الافراد المنحطين في استغلالهم . كانت ازمة فلس فيها عشرات ومئات الوف من المهاجرين على الذهب ، وتشرد بعد ذلك ملايين عمال ، وصعلكت ملايين اخرى من الشباب والفلاحين واهل مختلف طبقات الشعب . وبالطبع وجدت نفسها الرأسمالية التي سلبت من لطيمات الانهيار الاولى امام مشكلة وجودها ، امام جماهير جراحة يجب ان تعيشهم وتهدي ثورتهم ، امام كتل بشرية هائلة في الشرق اخذت تتحرك كالجبابرة الذين يحلحلون اجسامهم العظيمة طي أصفادها بعد ان مصت عظامها راسماليات الغرب وبورجوازياتها الخاصة ، وأخيراً امام نظام اقتصادي معطل مدمر : مصارف هاوية ، معامل مقفلة ، مزارع شاسعة لا تنتج او تقذف حاصلاتها في البحر او تحرق لعدم وجود من يستطيع شراءها ولعدم وجود الربح في بيعها . في كل يوم يمر منذ ذلك العام ، والراسماليات التي خلصت من زعازعه تحاول ترقيع الامور . تمنع في استحلاب ، اهالي

المستعمرات لتهدى* على حسابهم طبقاتها العاملة المتساقطة ،
 فتزداد جباية الشرق بالنتيجة تمللا ومناهضة لها . فتعود
 قبضاتها على اعتناقهم الى الارتخاء او تقف عن مواصلة الشد ،
 لتتحول الى الضغط على اعناق ملايين عمالها وليرتفع على الاثر
 تمردهم . وهكذا كانت تتمايل منقذة بين الجبهتين وهي تحاول
 وتصادم وتراوغ من اجل موازنة مركزها الممتاز والمحافظة
 على نظامها الاخرق الذي لا يستفيد منه سواها . ثم ، اذ
 تبلغ بها حالة ارتطامها بين صخرتي هذين العاملين حداً لا يمكنها
 فيه ان تضغط او تمتص اكثر مما فعلت من هذا العامل او من
 ذاك ، تتراجع الى حالة من التنافس الداخلي فيما بينها ، مبدأ كل
 فرد من افرادها في ذلك مبدأ « بعد الطوفان » . ذلك لانه :
 « اذا كان لا بد من الحياة او لزمني ، فلا كن انا الباقي والمقضي
 عليه هو ! »

بازدياد هذا التنافس الداخلي كان يزداد سقوط الرأسمالية
 قلعة بعد قلعة ، وافلاسها فرداً بعد فرد وشركة بعد شركة . كان
 ذلك رغم كل محاولات الترقيع ، تعميق الاستثمار والنهب ، اللجوء
 الى النصب على الاسلوب « الكرويجي » (نسبة الى ملك
 الكبريت وصاحب الفضيحة الشهيرة) والاحتيايل « الستافيسكي »

(ملك السرقة الراسمالية الاشهر) و « الميلوني »
 و « الواكري » (١) وغير هؤلاء مئات عاشوا ولا يزالون
 يعيشون على شكلهم ، رغم الضغط الفاشستي والتبويه
 « الديموقراطي » ، رغم البوايس والجيش وأفضع الجاسوسية
 وابع « الانبياء » الكاذبين وافسد الصحافة والراديو والمسرح
 والسينما وكل القوى والوسائل الممكن تصورهما . كانت
 الراسمالية تزداد تحطيماً لبعضها البعض منذ ١٩٢٩ رغم كل ما
 عددنا من اسلحتها واساليبها هذه في التعلق بخيط البقاء .
 كانت تسقط فرداً بعد فرد ، قلعةً بعد قلعة ، شركةً بعد شركة ،
 ملكاً بعد ملك ، وزارةً بعد وزارة ، مشروعاً بعد مشروع ،
 خرافةً بعد خرافة ، أساساً بعد أساس — وقريباً ديكتاتوراً
 بعد ديكتاتور .

خذ النكتة التالية كمثل جامع على ما نقول . فقد جاء
 مؤخراً في البرقيات الواردة من روما ما يلي :

« أثارت وفاة السنيور « كارلو فلتريني » رئيس مجلس

(١) الاول كان وزير مالية الولايات المتحدة والثاني كان حاكم
 نيويورك الاول كان يأكل ضرائب الدولة والثاني اشتهر بعلاقاته مع
 المهربين وغير ذلك . .

ادارة بنك « كريديتو إيتاليانو » فجأة في ميلانو اشاعات كثيرة غامضة . فقد اكتفت الصحف باذاعة وفاته بكلمات قليلة من قبل أسرته ، ولم يصدر ايضاح رسمي للسر الذي يكتنف هذه الوفاة . اما اصحاب البنوك والمحامون في طول البلاد وعرضها فمقتنعون بان موت الرجل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتهمة الملقاة على عاتقه ، وهي « المتاجرة بالنقود الاجنبية ضد مصلحة وطنه » . ومما يقال عنه انه متهم بنقل ستة ملايين جنيه من ثروته البالغة ثمانماية مليون « ليرا » الى سويسرا حيث اودع تلك المبالغ الطائلة في عدة بنوك باسم زوجته . ومع انه انكر التهمة رسمياً يقال انه عرض على الحكومة مليون جنيه الطمس المسألة ، فرفضت الحكومة طلبه . . . وقد وضعت الحكومة يدها على كل املاكه وحساباته في البنوك الايطالية ، واقت حجزاً احتياطياً على حساباته في الخارج الخ ...

(الاهرم — ٣ و ٤ ديسمبر ١٩٣٥) .

هذا الرأسمالي ، الذي انقلب عن عرشه مؤخراً ، كان دائماً من صميم زمرة الذين نصبوا موسوليني ليدافع عنهم ضد هجمات الشعب الثورية عقب الحرب وليجمع لهم المستعمرات . ومع استطراد سير النظام واستفحال اسباب تدهوره في ايطاليا ،

المتجسمة جميعاً في فترته الفاشستية الحادة ، ثم مع انتهاء كل ذلك الى حوادث التناكل الايطالي البريطاني والحرب الايطالية الحبشية ، الامور التي انتهت بدورها الى فرض المجموعة الرأسمالية المعتاضة من رأسمالية ايطاليا وارادة الشعوب للسلام (وهما شيان لم يتفقا الا عرضاً ولهدف محدود بايطاليا الفاشتية وبآثارها الحرب التي لكل طرف حجته وغرضه الخاصان في مقاومتها) للعقوبات عليها — مع حصول هذه السلسلة من الاسباب ونتائجها اصبحت حكومة الرأسمالية الايطالية امام تكاليف باهظة تنكبدها ، موارد مالية وتجارية سابقة مقفلة الابواب ، شعب خالي اليد من كل درهم . اصبحت بحاجة الى مال ، مال مورد جديد ، لكي تبقى الدولاب دائراً متحركاً ، لكي تبقى مهيمنة على عروشها . ولقد بقي لها مورد وحيد هو موردوها . لكن اي رأسمالي يتنازل عن مبالغ طائلة من نفسه . انه قد يعطي مليون جنيه ، كما قيل عن « فلتر نيلي » المذكور باسم ستر فضيحة او اذا امسك به من تلايبه . لكنه ، مع ذلك ، اذا وجد الخطر على مليونه او على أكثر منها لاحقاً به ، فهو يهرب بماله الى بلاد اخرى لا محالة ، لان الرأسمالي وطنه

حيث تكون خزائنه (١) . لذلك كان لابد لبقاء الديكتاتور قائماً على خافوقه الفارسي المزعج ، ولبقاء زمرة الرأسماليين على مقاعدهم الفارسية هذه من خلفه ، ان يقع احدهم ليستمد الآخرون من قوته . ولقد وقع احدهم بحجة او بدون حجة ، بقانون او بدون قانون كان ذلك ، فالمسألة الشككية ليست مهمة . المهم هو الحصول على مال . ولو فرضنا انه خرق قانوناً يوجب على كل رأسمالي تقديم حصته ، فخرقه اياه خير حجة يستخدمها زملاؤه للتوفير على جيوبهم وخير امداد عاجل تأتي الديكتاتور في ورطته . اذن ، فليمت هذا الخارق للقانون بسكته قلبية او بالسم ، ولتجدنا امواله بأسرع ما يمكن .

غير أن هذا السبيل ، الذي ليس قصيراً ولا يتوقف بطبيعة الفترة الانهيارية المستعجلة ، اللاحقة اعقابها برأسها حقوقاً جنونياً ، ينتهي عند استنفاد موارد الرأسمالية التي تقوم خلف ايطاليا او الى هروبها ، وبالتالي الى افساح المجال امام الشعب للقيام بثورته . واذا سبق هذه الحالة خوف كل مالي في ايطاليا من مجي دور وقوعه عن معقده المسنن ، فيئست

(١) ليتذكر القاري كيف ان الذهب الفرنسي يهرب من فرنسا الى اميركا في هذه الايام ، امام حاجة الحكومة الرأسمالية الفرنسية اليه لتسيير دولها وتهدئة شعبها المتمرد لها ، الذي لم يعد يقبل اعطائها اكثر مما يعطي وهو لا يكفي . وهذا مثل واحد من مئات والوف تتكرر منها حياة الرأسمال على اساس نظامه

جملتهم من الخلاص عن يد ديكتاتورهم الفتاك الصياح ،
 فيصبح الموقف بينهم وبينه اما ان يسقطوا هم او يسقط هو . (١)
 لذلك ، فان من المؤكد انه ستجتمع منهم زمرة كبيرة تجدد من
 المصلحة بحسب اسبابها الخاصة في ان تستغني عن
 نفسها عاجلا . وهكذا يظل الاحتكاك الداخلي بين صفوف
 الرأسمالية متقدماً ، يدرجهم واحدا بعد واحد ، ركناً بعد ركن .
 ومن هذا القبيل ايضاً ، ولكن بشكل آخر ، مذبحه « سانت
 بارتوليميو » المعاصرة ، التي وقعت في يونيو من العام الماضي
 في المانيا النازية ، حيث امعن الرأسماليون ورجالهم وديكتاتورهم
 المتوحش هتلر ورجال ديكتاتورهم امعاناً لم يسبق له في تقتيل
 بعضهم البعض ، وفي احتجاج كل فريق لذلك بأنهم غريمه

(١) في هذه الحالة المذكورة ، وقد تأتي قريباً ان لم تكن
 قد حضرت في هذه الساعة الراهنة في ايطاليا ، يجب على احزاب
 الجبهة الموحدة ان تتخذ موقفها بدون دققة واحدة من التردد
 ضد الديكتاتور ، حتى ولو مع الرأسماليين من
 اعدائه ذلك لتقلبه ولتحول قواه وقوى الزمرة الرأسمالية بعد وقوعه
 ايضاً ضد جميع من يبقى منهم وسيكون من جملة قواه حقيقة
 انه يحاربهم ، فيصبح لذلك « بطلا شعبياً » يستثير الجماهير
 ويسوقها على اسلوبه الهمجي المعروف .

بتعاطي اللواط (أي الفعل الشنيع) .

هكذا أخذت تتجه حركة تفاعل عوامل الحياة الاستعمارية : كل منها يضغبط بقسوة وثقل مستعجلين على الآخر وياً كل منه ، والجميع تأكل من نظامها الرأسمالي الاحتكاري الذي خرجت منه . ومن الطبيعي ان الرأسمالية ، وقد رأت نفسها إنحصرت فجأة من كل جهة ، آخذة بالالام كل من نفسها وهاوية ضرباً ونهباً على بعضها وعلى كل ما امامها ، ان تكون رأت أيضاً بان هذا الدرب ميمت لها ، فتحاول التآلف وجمع القوى وتوحيد الجبهة والخطوة في سبيل البقاء .

من ١٩٢٩ الى ١٩٣٥ كانت هذه الحالة تتورم حدةً واتساعاً . فكان العالم الرأسمالي يغرق في ازمة قبل ان يطلع من ازمة ، يخرج من معركة نأكل متقابل ومن حراجه ترنح المصير لتغطسه في تلوياتها المصرية معركة بعد اشد قرصاً من عظمها وحراجه موقف ومصير . وفي نفس الوقت الذي كانت الرأسماليات تبين خطر تقطيعها المتواصل هذا لبعضها البعض وهي مضغوطة بين ارتفاع موجات الشعوب المتمرده ، والذي كانت تحاول فيه ان تتكفل حول بعضها لتوقيف تدهورها على

حساب موردها الوحيد، ضحاياها وعبيدها المتلاشين اقتصادياً بحيث لم تعد تستطيع الاستمداد منهم — في نفس هذا الوقت المتلاطم التناقضات والجهات كان استضعافها وافلاسها وبمجموع احوال خرابها اسرع جداً في السير والتقلب من محاولاتها في التوقف بالتجمع والاتفاق . ذلك لان تلك المحاولات كانت تتطلب وقتاً ومساومات مما لم يكن الانهيار المستعجل ليمهلها عليها . لم تكن مجموعة الرأسمالية الواحدة لتلبث ان تجدد نفسها في مؤتمر او جلسة التوفيق بينها وبين زميلاتها ومنافساتها ، حتى تجد ايضاً بأنها قد تتلاشى قبل ان يتم شي . ثم سرعان ما تعود جميعاً الى مبادلة الضربات ، الى التسلق والدوس على جثث بعضها البعض ، كاولئك الهارين من وجه الطوفان او الساقطين في فوهات جهنم ، الذين رسمهم ميشيل انجلو في كنيسة « السيستين » في روما . وهكذا ... ما بين « ياربي نفسي » ، وبين « يا جماعة هيا نكون اخواناً » كانت الرساليات تعيش طوال هذه الاعوام المدهشة وهي على درب الموت .

حالتها في كل هذا كان كالحلها في السابق تماماً ، كشأنها في كل ما ضيها وشان النظام الفردي التاريخي الطويل من قبلها .

كانت الرأسمالية ، ومن قبلها اهالي المجتمعات القديمة ، دائماً تعيش في تذبذب ابدى بين هذين المجريين : لكن الفرق الهام المميز بين الحالة الراهنة وبين كل ماسبقها من حالات ، ان الراهنة كانت تمثل النظام في اتجاه شامل عام له يميل نحو التساقط وانفراط ، لا في اتجاه عام من الصعود او الثبات او الهبوط البطيء . بل هنا والان نجد خراب الرأسماليات يتسابق كرياح الزوابع . تسير الى استئصال كل رب من ارباب المال والسطوة لا يزال واقفاً على قدميه من اعماق جذوره . والزوبعة تقتل في دوراتها المقتلعة الفتاكة اعنف واعنف دقيقة بعد دقيقة .



في هذا العام وقعت حادثتان هامتان من ويلات الرأسمالية التي تعطيها حياتها . الحادثة الاولى كانت خليقة عامل جديد . هو العامل السادس في حياة هذا القرن السائر من الاستعمار الى الاشتراكية . ولقد كان الوزنة الضخمة التي رجحت إحدى كفتي التاريخ ترجيحاً حاسماً . كان الجسم الذي اتحد فيه عاملا الطبقات المستثمرة والشعوب المستعمرة .

في هذا العام عرف العالم كله بدون استثناء ، رغم كل مانع وحاجز وهائل الاكاذيب والاساطير والجهل ، بان اتحاد

الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية هي اغنى واقوى وارقى
واسعد دولة على وجه الارض ، بأنها تسددالى الرسمالية المنحطة
ضربات تترنخ تحتها سكرى باحلام قبورها ، وبأنها صارت
كذلك في مدة تقل عن ثماني عشرة سنة من الحرب والحصار
والعرقلات المتواصلة ، التي لم تعرف هدنة ، مع العالم الراسمالي
باجمعه . العالم الذي لم يعمل ويتفق على شيء ما في حياته كما عمل
واتفق على لزوم محق ام المستقبل القريب ، يغنون فيه
لتدب الحياة الى الانسانية الدائخة برمتها . ان الراسمالية باجمعهما
كانت دائماً ترتجف وتجرم في خوفها من هذا الحدث ، كالشيخ
الخرف يرى نهايته ويتعلق بكل دقيقة من الحياة ، كاحد اجدادها ،
البابا اسكندر بورجيا ، الذي كان وهو على سرير موته يهذي
طالباً ان يروي ظمائه بدم طفل لدن جميل .

أصبح عالم الاستعمار اليوم بمجموعة من اقزام « ليليوث »
المشاهير يتطايرون جزعاً امام انتفاض « جاليفر » الجبار .
املهم ينقطع اكثر فاكثر من حقن انفسهم من دمه انهم
يواصلون الاستحقاق بدماء عبيدهم ودماء بعضهم البعض في كل
مكان لايزالون يطأونه . انهم وعبيدهم يناضلون بعضهم البعض
في سبيل الاحتفاظ بدمهم . والمجموعة العالمية باسرها تمثل في

هذه الساعة حرب البقاء ، بقاء الانسب : طبقة اعلاق الراسمالية ودماري الحياة او طبقة الانسانية المنتجة ، الطيبة العنصر ، الثائرة ، الحائرة ، المفسودة افساداً سطحياً باخلاقية الراسمالية ، المحكوم عليها منها بالتبدل وبطم التحرك والجهل وفقدان الصراط — لكن المنتفضة الان من جميع هذه الاكفان في ميدان اعظم حرب رأتها الحياة منذ كانت على وجه هذه السيارة . اما الحادثة الثانية ، فكانت وصول عاصفة الوجود الراسمالي ، التنازعي الاثلافي ، مرةً اخرى وفي شكله الانهاري الاخير الى الحبشة ، عن طريق وال وال .

وصلت الى الدولة الوحيدة ، الباقية من عهد المجتمع القديم ، من غير وقوع كلي تحت سلطة الراسمالية وتيار نظامها . وقعت الحبشة بين ان تقسمها الراسمالية وبين ان يحاول كل شطر منها ان ياخذ لنفسه منها اكثر ما يمكن اخذه لتوقيف تدهوره ، اذ ان الحبشة بعد كل حساب — وان كانت صعبة على دولة واحدة ، لانها قوية بظروفها الطبيعية وتماسك شعورها الوطني وحنكة من يقودها (١) — لاتستطيع ان

(١) الحقيقة الاولى بين الثلاث المذكورات عن الحبشة بين الشحطين يظهر بوضوح في اقوال كل من يعرفها ، ولعل

تقدم للرأسمالية منهوبات كثيرة في وقت عاجل . كل ما
 أصبحت تطلبه الرأسمالية (وخصوصاً أكثرها إشرفاً على الخطر)
 من كل مكان يصح لها مربض فيه هو قبضة او قرص عاجلان ،
 لان المشرف على الافلاس القريب الا كيد . يكاد لا يطلب
 الا ان لا يقع افلاسه اليوم ، حتى دون ان يخطر بباله
 ان استحقاق كمبيالة الغد تجمع طابقه دون ريب . ان ارض

اوضح ما ظهر ذلك في كتاب « ما كس جروهل » الالماني ،
 وعنوانه « المعقل الحبشي » يدل عليه . اما الحقيقة الثانية فتتضح
 في ان الحبشة لاتزال باقية على الخريطة كدولة مستقلة بعد كل ما
 مر عليها . بقيت الثالثة ، وهذه تستخلص من كل ما كتب عن
 الامبراطور وبعض اعوانه ومن حوله من الشباب « كالرأس
 نسيبو ، وسواه . واكثر ما يبين ذلك كتاب الصحافي فارغو
 الذي لم يكن خبثه قليلا فيه ثم هناك مجمل انسيرة السياسية
 للحبشة ، التي لو لم يكن على راسها رجال اكفاء لما ظهرت
 تلك المهارة السياسية الملموسة في هذه السيرة . اما من وجهة
 الموقع « الاستراتيجية » الحربي ، فنظرة في كتاب الجنرال ه .
 روان روبنسون « انكلترا ، ايطاليا ، الحبشة » وفي تفصيله
 لمعركة عدوى وتوقعاته ، ثم في ما تناقلته الصحف طوال السنة
 من آراء مختلف الخبراء الاميركان والفرنسيين والانكلتر
 والالمان ، تعطي فكرة في الموضوع .

الحبشة وشعبها يكاد ان يكونا بكرين ، ثم يحتاجان في هذا الوقت غير الملائم الى مدة طويلة للارضاخ .

والان ، وقد وصلنا الى لب الموضوع الاستعماري وضبطنا كل قواه ، كما احطنا بأبرز ساحاته الراهنة وهو الساحة الحبشية فلنلق نظرة على التفاعل الحالي المباشر بين هذه العوامل . لنفحص احتكاكاتها ، فان ذلك ينير سبيلنا .

لكن يجب ان لا ننسى كون الساحة الحبشية ليست الا احدى الميادين الفرعية للحياة الراسمالية في طورها الحالي ، رغم أنها ابرز تلك الميادين وعلامة كيلومترية تدل على آخر مرحلة لتلك الحياة . يجب ان لا يغيب عنا ابدأ ، بعد الذي عرفناه ورأيناه ونراه باعيننا من امر الاستعمار ان ميدانه العام هو العالم بأسره ، هو كل ما يمكن ان يبتلعه الطمع والتنافس ويتعلق به وجوده المنهار . وبالتالي يجب ان لا ننسى لدقيقة واحدة كون الساحة البارزة يمكن ان تنتقل في كل دقيقة مع انتقال مشكلة وجود الراسمالية الى غير الحبشة ، الى حيث يكون الاصطدام بين عوامل بقاء وموت الاستعمار اضخم واسرع نتيجة مما هو في الحبشة . كل انسان يقرأ جريدة يسمع مثلاً عن ساحة الشرق الأقصى ، او ساحة النمسا ، او الساحة الالمانية

السوفياتية ، وكيف أن كلا منها تبدو كأنها ستنبثق اليوم أو غداً كأبرز ميدان يغطي على كل ما عداه . وسيلقى ضوء على هذه الامور فيما يأتي من الكلام . فلنحصر أنفسنا ، اذن ، في ساحة الحبشة التي في فهمنا لها على حقيقتها فهم العالم الحاضر بأسره ، وبالتالي استطاعة على التنقل مع مشكلاته بسرعة وباطلاع سابق على اسراره ، ثم على اختيار موقفنا بقوة ودون تردد في سبيل توليد العالم الانساني اسهل ولادة ممكنة ، ذلك العالم الذي اصبح شرطه واحداً لا غير : القضاء على الرأسمالية الباقية التي تتمسك بالنظام الحاضر ، والذي اصبحت الاساليب لتحقيقه كل اسلوب يمكن التفكير به وتطبيقه والاستفادة منه مهما كانت الفائدة صغيرة .

لكن مهما يكن من امر ، نلاحظ ان الاستعمار في ساحة المشكلة الحبشية الحاضرة يهبط على سلم انتحاره درجة فدرجة ، متبعاً طريقه الذي خططناه . انه ينزل عليه مرغماً ، بطبيعة نظامه في طوره الحالي ، الذي انقلب حاداً بعد الازمان. لماذا ؟ لان العوامل التي جاءت ضده بعد ظهور جمهوريات السوفيات كوزنة حاسمة في ميزان التاريخ لم تعد تحكم عليه التقهقر والاكل من نفسه فحسب ، بل بالخروج من المسرح

على طول .

هوذا العالم كما نراه في هذا العام ينشطر كدول ، الى قسمين : القسم الواقع تحت نفوذ كثيف للراسماليات الكبرى ، والقسم غير الواقع تحت شي منه او تحت شي قليل . فالواقع تحت نفوذها الكثيف المباشر هو كل العالم ما عدا بلاد السوفيات ، حليفاتها من الدول الشرقية (تركيا ، فارس الخ ...) ، الصين السوفياتية ، الحبشة . هذه الدول وحدها تستحق ان توصف كمستقلة تماماً او شبه تمام عن تصرف الراسماليات العالمية بها وعن استيلائها على ارادة حكامها واحتكار مشاريعها الاستثمارية الكبرى ووسائل الانتاج الصناعية فيها واسواقها . وكل استقلال لكل من دول هذا القسم هو استقلال قائم بذاته ، له صورته الخاصة واسبابه الذاتية الخاصة ايضاً .

ثم نجد العالم بعد هذا ، وبناء عليه ، مقسماً تقسيماً آخر الى ثلاث درجات ، تمثل ثلاث درجات لمطامع الراسمالية واغراضها وكفاحها في سبيل البقاء اثناء ما تتلوّى في محنتها الانهيارية الموصوفة .

الدرجة الاولى تؤلف بين تناقضات وعداوات جميع
الراسماليات في نقطة اتفاق بينها ، توحيدها جميعاً في جبهة . هذه
النقطة هي وجود اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية
كعدو مشترك لها جميعاً . الراسماليات غير مختلفة أبداً في
وجوب تحالفها لتخلص من هذا العدو وكلها تحلم باستعمارها .
اما زعيمة هذه الفكرة والحركة فهي طبعاً الراسمالية التي
تستظل بعلم بريطانيا . اما البقيات فيوافقها على مسعاها ،
ويرين في تحقيقه برذاً وسلاماً للجميع ، اذ تأخذ كل منها
اراضي واسعة منها ، تقتل كل منها قسماً كبيراً من شعبها الجائع
في الحرب ضدها ، توجد كل منها سوقاً جديداً لها او بحال
مشروع استثماري خلاب ، وتضرب الفكرة الشيوعية ، كوطنيات
متحررة وكتحقيقات اشتراكية ، ضربة مادية ومعنوية
شديدة ، ضربة تمتلك قياد الامور بعدها زمناً طويلاً يبال
يكون اروح حالاً من حاله الراهن . هذه الضربة تكون
ابدى حاصل تحلم به ، لانها تخلصها من الفكرة والحركة اللتين
يتجسم فيها اتحاد جميع العناصر الانسانية الواعية ، المخلصة ،
العاقلة والشريفة ، على محاربتها ووضع حد نهائي لعصر
بربريتها المجرمة انها تخلصها من سيف جدها ديموكليس ، المسلط

فوق رأسها بأقل من شعرة .

المحرك الأكبر والزعيم الاول للاستعمار ، الكاتالايزر البريطاني الذي يفرق بين البشر ويسود ، يعرف ايضاً كيف يدأب على كم إشتات وتوحيدها امام هذه النقطة ، على هذه الدرجة الاولى من سلم حياته الهابطة . إنه يضم تحت جناحه اويمد بكل « ارادته الطيبة » ، بكل انواع مؤازرته واشكال دهائه ، بحركاته وسكناته ، فكرة وحركة الاتفاق على هذه النقطة في كل مكان لا يزال له فيها وجود .

ساعد الكاتالايزر النينى واليسرى في هذه الطبخة النظيفة هما حكومة اليابان من الشرق ، وحكومة المانيا النازية من الغرب . وكلا الحكومتين مع راسماليتهما هما اكثر نواحي العالم انضغاطاً بين اسنان الالة الراسمالية المتعطلة . الاولى لا يعيش شعبها لياكل ، ولا هو يأكل ليعيش ، لانه ان يسلم كل وجوده في سبيل ايجاد الامداد السكاني لفتوحات مجانين الامبراطورية اليابانية التي تجر لعبة الدمار والنار ، كما كان يجرها « آتلا » وتيمورلنك من قبلهم ، على مرابع الصين المنهوكه ، والتي تجر بركة الانتحار باسلوب « الهارا كيري » الياباني على نفسها . اما الثانية ، المانيا النازية ، فلا شك بان

شعبها أشقى أمة في الغرب الاوروبي، تركبها رأسمالية يائسة وحكومة فتاكة يعد الامبراطور غليوم وزيرته بركتان بالنسبة اليهما، لا تعرفان اي اختراع يحصد لها اكبر كمية من البشر، تجدان نفسيهما مطحونتين بين حجري رحى التاريخ المتكتل عليهما، تبتلعها موجة ثورية ترتفع اعلى فأعلى، وتحصرهما بين جذران ضيقة من اوراق معاهدة « فرساي »، اي من مصالح ومدافع بقية الراسماليات المحيطة بها في بيسمارستان الدول الاوروية الضاج .

تقول العوبة هذه الراسمالية، اهر هتلر، في كتابها « ماين كامف » (أي كفاحي !) : « اذا ارادت المانيا ان تغزو اراضي جديدة في اوروبا، فهذا لا يمكن ان نقوم به على غير حساب روسيا . يصبح من الضروري ان تتحول « الريخ الجديدة » (أي المانيا النازية) الى درب فرسان الجمعية « التيتونية » (١) القديمة، ان ترجع المحراث الالماني الى

(١) فرسان الجمعية « التيتونية » (اي المنتسبة الى قبائل العرق « التيتوني » الجرمانى) كانوا في القرون الوسطى اقطاعيي المانيا المجندين في منظمات دينية اشتركت بالحروب الصليبية ضد الشرق، كما كانت تتجه في غزواتها المتواصلة نحو اراضي بولندا وروسيا.

الارض الالمانية بواسطة السيف وان تقدم سلاماً للامة (١١).
 مع انكلترا وحدها يستطيع الانسان ان يحقق الهجرة الالمانية
 الجديدة تحت ستار ما... وليس من واحد بين جماعة السلم
 عندنا يرفض ان ياكل خبز الشرق، حتى ولو ان المحراث
 الاول، في الازمة القديمة كان السيف الخ...»

اما عن آراء بريطانيا في المشروع. فالمسألة شهيرة أنها
 دائماً خلف الهر هتلر منذ نشأته السياسية وذيوع خبر مبادئه
 العسلية. منذ كان زعيم رأسماليها وملك ملوك النفط في يوم
 من الايام، السر هنري ديتردينغ، يمد حركته بدعاية امهات
 الصحف الصفراء وبالمال يرسله اليه عن يد وكيله الدكتور
 جورج بل، هذا الثرثار المحنك الدخائل الذي قتله اصدقاؤه
 النازي، عندما ظهرت الفضيحة، في ليلة ابريل، ١٩٣٣،
 قرب بلدة «روزينهايم» داخل الحدود النمساوية التي ظن نفسه
 اميناً فيها. (١) ثم ان تصريحات لوردات بريطانيا، وعطف

(١) ص ١٩٥-١٩٦ من كتاب «الحرب السرية في سبيل النفط»
 «لهانغن وزيتشكا»، وبلاستناد الى بيانات، الصحافي النازي
 الفرنسي المعروف «كزافيه دي هوتكلوش».

أكبر رأس مالي العالم من ورائهم ، ومساعدتهم ودعايتهم المتواصلة في سيل هتلر واعداد مشاريعه الجهنمية الخيال على حساب بلاد السوفيات ، معقل أنبل واجمل واعدل ما اوجدته الانسانية حتى الساعة .

خذ مثلاً على هذا قراراً رسمياً ، علنياً ، خالفاً عن سحنه كل ستر من ستور المخادعة الاستعمارية ، ابرمه مجلس اللوردات في يوم ٧ مايو الجاري . لفت يؤمئذ اللورد ديكنسون انظار انداده الى شدة وطأة القرار الذي اتخذته مجلس عصبة الامم ضد المانيا يوم ١٦ ابريل الماضي لاقدامها على اعلان التجنيد الاجباري . ثم طلب من المجلس ان يحيز قراراً في تشجيبه يبدأ ببسمة : « ان هذا المجلس يأسف الخ . . . » ، فجازاه حضرات الاعيان . ثم قال اللورد : « ان عصبة الامم ابتعدت عن السياسة التي كانت مرسومة لها في مبدأ الامر . . . » اي انها بعد دخول جمهوريات السوفيات اليها اصبحت لاتجاري مطامع هؤلاء اللوردات كما كانت تفعل من قبل . وفي تلك الجلسة تكلم لورد آخر يدعي « فويل بكستون » ، فقال ما معناه : « ان الدول التي تعادي المانيا ليس لها حق في ذلك ، فالمانيا (أي راسمايتها لاشعبها النبيل العظيم)

لكرهيتها للشيوعية ان هي الا عامل كبير من عوامل السلم (أي « السلم » الرأسمالي الممهود ١) ، ثم اردف بان هذه الحقيقة خرج وهو مقتنع بها بعد الحديث الذي جرى بينه وبين الهو هتلر في برلين (١) .!

والان ، نعود فنقول بان هذه النقطة التي تتفق عليها الرأسمالية كانت متفقة عليها منذ اول دقيقة ظهرت بلاد الاشتراكية على مسرح التاريخ . فحال نشوب الثورة في ممالك القيصر الروسي إلتف جميع المستعمرين والرجعيين على بعضهم البعض واضرموا لهيب حرب صليبية ضد السوفيات . كان جندي قائد الرأسمالي الالمانى يمشي الى جنب جندي قائد الرأسمالي الفرنسى والانكليزى والروسى واليابانى والاميركانى الخ . . . لاجل قتل ثورة شعوب القيصرية ضد مستعبدتها منذ وجد الاستعباد . لقد وصف المستر تشرشل ، سياسى الاستعمار اللامع ، تلك المقاومة « بهجوم الاربع عشرة دولة ! » ومنذ ذلك الوقت حتى هذا الوقت والعالم الرأسمالى يحارب جمهوريات السوفيات في حالتين من السلم والحرب .

لكن النكتة هي أن هذه الجمهوريات كانت طوال مدة

هذه الحرب مسدودة على من اتفقوا عليها ، اذ ان جميع محاولات فتحها باءت بالفشل والخسران الذريع ، فكانت النتيجة ان الراسمالية لم تستطع حتى الان ترقيع احوالها من هذا المصدر المستقل عنها وعلى هذه الدرجة . بل بالعكس ، كل يوم كان يمر ، ويمر ، ينتج ضعفاً عند المستعمرين اكثر مما ينتج قوة عند جمهوريات الأحرار . واصبحت مهاجمتها اليوم من قبل اكبر عدد ممكن ان يتحد عليها ضرباً من اضمن ضروب الانتحار السريع . ثم ان الاتحاد عليها كان ، (حتى في اشد اوقات ظهور الاتفاق عليها) (١) ، ولا يزال مستحيلاً لمجرد ان محاربتها واخضاعها (ولو على سبيل الفرض) يستلزم وقتاً ليس بالقصير بينما الراسماليات المتحادة وازماتها وحاجاتها ومطامعها امور تتطلب الاشباع والسد السريع ، وبالتالي صرف الجهد في مد اليد الى اقرب واسهل الوسائل التي ليس اخضاع غريمهم

(١) راجع كتاب « عامل بريطاني » (A British Agnet ، تأليف السر « بروس لو كهارت » الذي كان سفير بريطانيا في روسيا ايام الثورة وقبلها وما بعدها مدة لتناكد من هذه الحقيقة التي تبدو غريبة ، ولكن التي ليست مع ذلك الا طبيعية .

بأقربها وأسهلها . وفي هذا نجد التفسير لوجود كفة رأسمالية تكون دائماً مصادقة الوجه للسوفيات وكافية شرها عنها . هذا ، وقوة السوفيات المادية والمعنوية واطمئنان شعبها وراحتهم ومحبتهم^٢ الحقيقية العميقة لقوادهم وزعمائهم هي الاسس الباقية في ردع التعدي المتحد عنها . يكفي ان نعلم بأنه كلما خطر لمجانين الفاشستية في المانيا واليابان بان يحققوا ما يتصورونه طار في السماء ركن ركين لهم في جهة من جهاتهم التي ظنوها معصومة عن العين ، او جاءهم صوت صافي الرنين ، صادقة ، بواسطة سفير او مقالة صحفية او بوق الراديو ، أن مدن المانيا واليابان ومراكز صناعات ودور حكومات رأسماليتهما تبعد بضع ساعات فقط عن الحدود السوفياتية ! عند ذلك يتعقل من لا « يرفضون اكل خبز الشرق » ريثما تعاودهم النوبة .

ويدخل في الدرجة الاولى هذه ، التي تصح مورداً للمحتضرين العطاش ، حليفات السوفيات كتركيا ، ايران ، الخ . . وحول هذه ايضاً سد منيع من وطنية شعبيها وقادتها وقوة الحلف . ثم تأتي الصين السوفياتية في هذه الدرجة ايضاً . ان حرب الرأسمالية العالمية المتحدة عليها مشنونة منداعة النيران على افطع واقتل صورة تكون عليها الحروب منذ سبع سنوات

طوال ، منذ شعرت الراسمالية بوجودها . لكن هذه الحرب لم تفدها شيئاً ، بل انها تستفد وتمتص من قوى الراسمالية مقادير هائلة بدل ان تمدّها بشيء يمسك بها عن الهبوط . ذلك في نفس الوقت الذي تنو الى انتصارات السوفيات الصيني ، في نفس الوقت الذي تقوى وتترعرع شديدة العود وتزداد حجماً وتحريراً للصين المستعمرة يوماً بعد يوم .

ماذا بقي معنا من الدول المستقلة عن الراسمالية في العالم ؟ بقيت الحبشة ، وهي الدرجة الثانية .

اما الثالثة ، فهي ممتلكات المستعمرين نفسها ! هي البلدان والدول التي يستثمرونها أينما كانت .



في الواقع ان الحبشة تأتي في الدرجتين الثانية والثالثة معاً . فهي من جهة لاتزال مستقلة بمعنى الكلمة ، يتصرف اهم واقوى وأنشط حكامها بداخليات امورها وخارجياتها حسبما يرون من مصلحة بلادهم وسيادتها التامة . ومن المشهور عنهم ان الامتيازات التي يعطونها لجماعات متحادة من المستعمرين تسكاد لاتكون اكثر من حبر على ورق يستفيد منها الاحباش اكثر مما تستفيد العصابات المسلحة التي

تنوي تمدينهم .

لكننا نجد الحبشة من الجهة الثانية بلاداً تتعلق بهامصالح
سلبية ، ان لم تكن ايجابية ، لراسماليات مختلفة تمتد من أسوج ،
بلد الجنرال « فيرجين » ، حتى تو كيو ونيويورك . هي لقمة
يريد كل نبيل ابيض التهامها ، وأول من يسيل لعبة لمنظرها
بريطانيا العظمى . كل يرى فيها مورداً وتكأه له ، يستند اليها
قليل في طريق إنحداره السريع . اليابان تجد فيها سوقاً لبضائعها
الرخيصة ومحطة وقاعدة لحلمها الاستعماري الطويل العريض .
المانيا تجد فيها سوقاً وخميرة مؤامرات وموضوع مساومة
على النمسا . ايطاليا الفاشستية تنشد فيها مقبرة لشعبها الجائع
المحتاج وان تحلب منها كل نقطة دم . ملوك النفط من
اميركيين وانكليز يرون فيها ظلال « ذهبهم الاسود » ملطخاً
من كل جانب بأجمل ألوان الدم الاحمر ، يرونه لا أنفسهم
أو لراسمالية « الدوتشة » الذين يقتلع سوقهم من يدهم ان
جاءه النصر ، وينافس اسواقاً اخرى لهم (١) بما يستملك مما

(١) السبب المباشر لسقوط الديكتاتور الاسباني بريمو دي
ريفيرا ، كما يروي هانغن وزيتشكا في كتابهما المقشعر العجيب
عن جرائم وغرائب راسماليات النفط في العالم ، يعود الى

يرقد من ذلك الذهب تحت ارض الحبشة . (٢) فرنسا تطلب

اتفاق شركة « الستاندرد ايل » التابعة لجماعة « روكفلر » وشركة « الشل » التي يديرها « ديترينغ » على خلعها ، بعد ان صار وجوده ديكتاتوراً يحرم سوق اسبانيا من احتكارهم له لمصلحة غيرهم من الراسماليين الاضعف منهم . فتأمل . . . والنكتة ان ملك اسبانيا الفونسو الثالث عشر ، كان مع تينك الشركتين ضد ديكتاتوره لانه يملك اسهماً في احدهما . فلما سقط ديكتاتوره وسافر الى باريس لموت بمرض القلب ، لم يلبث ان تبعه الملك نفسه . فتأمل ايضاً ! . .

(٢) في اوائل اكتوبر من هذا العام نشر كاتب فرنسي خبير في الموضوع اسمه « ف. بلونديل » مؤلفاً باسم « جيولوجية الحبشة والصومال والاثيرتريا ومواردها المعدنية » ، وهو يثبت فيه وجود النفط في هذه المناطق . ويحسن لاستجلاء هذا الموضوع ، الذي لا يزال مبهماً وغارقاً في اسرار مدهمة من رحلات و « نطنطات » المستر تشرتوك والمستر ريكييت مع مستر اومسترين آخرين غير منظورين ، مراجعة مقال تغلب عليه العمية ويدل ابهامه على ابهام الموضوع ، منشور في مجلة « موند » (عدد ٣٤٥ - ١٠ اكتوبر) « بقلم لويس لوناى » تحت عنوان : *Le Marsouinie fait la guerre*

بؤرة جهنمية ما تقذف فيها غضب « الدوتشي » المصاب بأنواع من الالتهابات العصبية فتستريح من شر صياحه ، وشر ثورة شعبه البادية الامارات ، وتدعي بقولها : « اللهم اهلك الكافرين بالكافرين » اذ ترى الدوتشه واصدقاه السابقين لا يخلون على بعضهم بالصفعات غير اللينات . واخيراً ، بقية العالم الراسمالي مجرور بأثره نحو بالوعة تناقضاته المتحولة الى الحبشة لتمايل بينها وبين نقطتين او ثلاث نقاط اخرى مهددة بالانفجار هنا او هناك او هناك في كل دقيقة من دقائق ساعات

اما قول « المانشستر غارديان » : يعجب الخبيرون في احوال الحبشة من اهتمام الامير كيين باخذ امتيازات لاستنباط البترول فيها ، ويؤكدون بان من يتوهم في الحبشة خيرات كثيرة يخطئ في وهمه ، فدليل على وجود الخير من اسود اللون واصفره . أخيراً ، لعل ما نسبته بعض الصف الى احد زعماء « اوسا » (قرب هرر) ، محمد يحيى سلطان ، من « أن الذهب السائل (البترول) الذي اكتشف حديثاً في بلادنا هو سبب الحرب ، وكان واجباً ان تقتل كل رجل يعبر بلاد الدناقل لكي لا يراه » — لعل هذا القول أقرب ما يكون من الحقيقة . بل استنتج بان للنفط الاول في اهتمام الرأسمالية البريطانية الاميركية بالحبشة .

هذه السنة الهائلة . تتطير الراسمالية نحو بالوعتها ، لتجلس على فوهة بركان فائر الجوف ، لكي لا تتخلص من جلستها المزعجة على راس مقعدها الفامي المسنن النحيف ، الذي ليس لها ان ملت القعود عليه الا ان تميل هاوية عنه في البالوعة السوداء التي حفرها « قنافذ الاستعمار » ، على حد تعبير الامبراطور النابغة مينليك !

للرأسماليات ان يتطاحن " تطاحنن الاخير ، او القريب من الاخير ، حول ما يتصورونه في الحبشة من الاسباب التي تطيل بقاءهن .

غير أن الرأسماليات لاني ولا تقف عن التفكير ، وعن العمل بقدر ما بقي لها من القوة المتضائلة والاعصاب المنهكة ، في اللقمة السوفياتية الكبيرة . كلما رات نفسها تندهو زاد تنذبذبا وتسارع بين الاتجاه نحو تلك اللقمة ، بين الانحدار على البقاء بتحطيم مجرى القوى المتحدة ضدها — وبين ان تتيقن من انسداد هذه السبيل عايتها لترجع الى تنازع البقاء في حيزها ، الى قانون حياة الغابات الذي عاشت فيه منذ اول ما رأت عيناها النور !

عندما تراجع الرأسماليات عن الدرجة الاولى الى الدرجة

الثانية تنقسم الى معسكرين كبيرين ، متشعبين ، يظهر ان كحياكة
عجيبة من اغرب المتعاكسات والمتناقضات والاشتباكات
والسحريات، غير المفهومة . انكلترا تبدو حليفة الحبشة وانكلترا
لا تتبعها سلاحاً واليابان صديقة الحبشة وعدوة ايطاليا ،
ولكنها تتبعها سيوفاً لمحاربة الغازات والدبابات . فرنسا حبيبة
ايطاليا وانكلترا في وقت واحد ، والاثنان يكادان يسحبان
الخنجر بدون اقل شك . المانيا الفاشستية عدوة ايطاليا
الفاشستية ، فكيف ذلك ؟ كنا نظن الفاشست يطبقون
قول المسيح : « أحبوا بعضكم بعضاً » . هتلر يعطف على
الحبشة ويرسل اليها الجواسيس . الفاتيكان يريد السلام ،
ويسجد للدوتشة ، ويحترم الحبشة لانها مسيحية ويلفق الاخبار
عن تعذيب رهبانه المهندسين بين الاحباش لتعليمهم كيف
يقتلون بعضهم بعضاً . ثم المانيا وايطاليا الزميلتان تتصافيان ،
ثم تتعاديان ، ثم تتشامتان وتشامتان ، ثم تتعانقان ، الى آخره .
بريطانيا تناصر السلام والحرية وفي الحبشة ويتصيد بوليسها
الشبان في شوارع القاهرة والشيوخ المتفانين في الخير في فلسطين
كما يتصيد لورداتها الحمام . اميركا تحظر البترول واميركا تباع
البترول . إيه ! انه بحر مخلوط ليس في العالم قلم الا ويمل

صاحبه من الكتابة بحبره المعكّر .

غير ان المسألة دائماً تظهر واضحة للجميع ، كلما ، ارتدت
 الاحباء عن جدار الدرجة الاولى الى منا كفة بعضهم ، ان
 اللاعبين الاولين هما بريطانيا ورببتها الفاشستية ايطاليا . بعد
 ذلك تدخل خلف بريطانيا كل رأسمالية ترى لها مصلحة في
 بقاء الحبشة مستقلة ، وخلف ايطاليا كل رأسمالية ترى العكس .
 بريطانيا تقاوم ايطاليا من اجل السلام ، المحافظة على
 الامضاء ، الحرية ، النظام الدولي ، النظام السماوي ، التأمين
 المشترك وهلم جراً . لكن بريطانيا تقاوم ، كما لا يشك في ذلك
 عاقل ، في سبيل مركزها الامبراطوري . فلو فرضنا ان جدار
 الدرجة الاولى ظل مسدوداً الى الابد ، واحتاج « الدوتشه »
 ومن خلف الدوتشه تدير امرهم تجاه حبيبتهم وشعبهم ، وكانوا
 قد ملكوا الحبشة وتمكنوا فيها — لو فرضنا كل هذه الاشياء
 الممكن حدوثها لوقت محدود فقط ، فهل يرحم الدوتشه ومن
 خلفه آباءه لوردات البريطان . لا ، وربك ! انه يلغم البحر
 المتوسط من « نابولي » ، عبر جزيرة صقلية ، حتى طرابلس ،
 ويقطع الدرب بين انكارترا ومكان ما تمص منه مصها في الهند
 ومصر والسودان . انه يرسل طياراته فوق لندن . انه لا

يتريث دقيقة في ابتلاع مصر والسودان ، في النطاوول على الهند ،
وفي اخذ كل بقعة تصلها يده وبركة الفاشستية . ان الطماع
والموشك على الانهيار شخصان لا يعرف لما يتصوران
ويعملان حدوداً تحدد . فكيف بهما اذا اجتماعا في ديكتاتور ؟
في موسوليني الذي لم يرحم احداً استطاع ان يمسك به ويعتصر
منه فلساً او روحاً ترضيه ، الذي يفتك بشعبه ، بني جلده
ودمه ، فتك المنجل بالسنابل . والا ، فما معنى جره ما لا يقل
عن ربع مليون جندي ايطالي ، والوف وعشرات الوف العمال
والموظفين ، وعدد عظيم من جنود المستعمرات الى مغامرته
الحبشية ؟ هل اذا دوح بهم الحبشة وامتلكها تركهم يتفلون
وبأكلون ويحملون في مصيف من النجد الحبشي ؟ أم انه
يرجعهم الى ايطاليا ومختلف بلدانهم ؟ كلا الفرضيتين ليستا بما
يوافق مزاج واحلام موسوليني ومن وراء ظهره . كلاهما
ايضاً لا يتفق مع حالة خطر الانهيار الدائم الملازم للفاشستية
اكثر منه لآية صورة اخرى من صور الراسمالية . بل الذي
يتفق معها ان تمد يدها ، وهي رابضة في قلب الامبراطورية
البريطانية ، وهي تستطيع التحكم بطريق الهند ، الى كل
كنز عن يمينها او يسارها من التي يربض عليها حضرات اللوردات

جاء لاحد السنة هؤلاء اللوردات ، الجنرال روات
 روبنسون، في كتابه الامبراطوري « انكلترا ، ايطاليا ، الحبشة »،
 الذي قصد منه محاولة التوفيق بين الطرفين باخراج الحبشة من
 حلقة العلاقة بعصبة الامم ووضعها بين صديقتها الاميتين -
 جاء لهذا الجنرال، المتلمذ على امثال « ماكينكل ، السابق الذكر،
 ما يلي نقلا وتعليقا : « ان الشعور الذي توحيه العصبة
 الان يمكن اقتطافه من عبارة جاءت في « التريونا »
 (جريدة من جرائد موسوليني) بتاريخ ٣٠ يوليو هي : « قد
 تكون الدقيقة أتت للتفكير اذا لم تكن ايطاليا موسوليني
 مدعوة فعلا لتحرير اوروبا (خذ بالك : اوروبا نفسها ، لا
 الحبشة فقط !) بعمل حاسم هادي من هذه المراوغة الثقيلة،
 البليدة ، المتمثلة في جمعية الامم » . العبارة التي كان من
 الممكن لكتابها ان يضيف اليها قوله : « وعندئذ يصبح الدرب
 خاليا لتلك الامبراطورية الرومانية الجديدة التي يضع « الدوتشة »
 امر بنائها في البنود الاولى من برنامجها ! » - هذا هو نقل
 الجنرال الانكليزي وتعليقه .

ثم هذا هو معنى الاقائم الجميلة في قاموس راسمالية بريطانيا:
 المحافظة على امبراطوريتهم التي لم يبق بينها وبين الذكر الصالح

الاشي كقاب قوسين أو أقرب .

أما إختباء بريطانيا وراء عصبة الامم فتجد فلسفة الامم
 فيما نقله نفس الكاتب عن زميل له . قال لافض فوه : « اسمع
 ما يقوله مؤلف فرنسي علم عن هذا الموضوع : « سيري
 القارى » بانه ، كنتيجة للاهمية الكبيرة التي استوجبت
 الاعتراف بفعالية القوى الجوية ، يصبح من اللازم تطبيق مبدأ
 تمرکز القوى وتناسق الجهود ، بدون تلاعب منا بالكلام في
 غير محله (أي بدون قول شي وقصد شي كعادة كتاب
 الراسمالية) ، ورفعها الى مركز أعلى مما هو فيه انه سيصبح
 من الواجب ربط الجيوش ببعضها : جيش البر ، جيش البحر
 جيش الجو ، الامر الذي يستوجب توحيد الدماغ في القمة ، (١)
 هذا التوحيد في الدماغ تنشده الراسماليات في جمعية الامم ،
 والا فني ديككتاتور مستفرد الدماغ لكل راسمالية على حدة .
 وذلك تجاه من ؟ تجاه من يملك « فعالية القوى
 الجوية » . من المعروف ان بلاد السوفيات اقوى من كل
 العالم في جيشها الجوي . ولكن من المعروف ايضاً ان
 إيطاليا ، بالنسبة لبريطانيا ، قوية ايضاً في الجو . اذن ، الخطر

(١) عن كتاب الجنرال اليهودي ، « ولكن مستعدين » .

حاضر . يجب دماغ فرد للادارة . هل تكون جمعية الامم
هذا الدماغ أم يكونه الديكتاتور . اذا كانت العصبه تجيد
الادارة في سبيل ابقاء راسمالية الامبراطورية وحلفائها ، فلتكن
هي . وهذا سر تعلق بريطانيا بها وتلقيبها اياها بأجمل الاسماء .
وهذا ايضاً سر ترددها ، من جهة اخرى ، واصطدامها بحقيقة
ان في العصبه ايضاً صوت جديد ليس صوتها ولا هونبرة
زميلة . ومثل خرق الجدار السوفيياتي صعوبة نصب ديكتاتور
مستعجل في بريطانيا . إذن ، فلتكن العصبه دماغاً ضد
مخاصماتها ، ان لم يمكن جعلها او جعل شي سواها آلة مفكرة
ومنفذة ضد العدو المشترك على حساب تأخير تصفية مشاكل
وحسابات مطامع الراسماليات الدخلية ، على حساب تأخير مسألة
اللقمة الحبشية ، او النمساوية مثلاً ، او اي سواها . لكن هيئات
هذا ! ان الراسماليات مجبورات على الاكل من بعضهن البعض .
واذن فدماغهن مجبور ان يكون عصبه الامم ضد دماغ
آخر لشرط منشق عليها منها . عصبه الامم هي اذن آلة ،
تخطيم الراسمالية للرسمالية . اذن ، هي آلة الانتحار الاستعماري
البطي ، السلم الذي يقوده في نزوله الى مرقدته درجة درجة .
وهنا تصبح العصبه ، نوعاً ما ، دماغاً صالحاً . تصبح اداة

للسلام الحقيقي الذي لا يرادف معنى كلمة « السلام » في فم
 الراسماليات . بل تعني السلام الذي تحدد معناه شعوب الارض
 المظلومة بلسان ممثليها اتحاد الجمهوريات السوفياتية ، الدولة
 الاشتراكية الوحيدة بين خمس وخمسين دولة وخيال دولة
 رأسمالية ، والتي اصبح لها وحدها من التأثير على العصبية ما يزيد ،
 في حاصله ، على تأثير جوقنة الخمسة والخمسين معاً . فتأمل
 كيف يكون الانحدار !... ثم كيف يقابله السمو . والمثل
 يقول : « كل طلعة امامها نزلة » !

على كل حال ، الموت الطبيعي البطيء خير من الانتحار
 الجنوني المستعجل عند ذوي التوازن .

نرجع الى ايطاليا الفاشستية . ايطاليا الفاشستية تقول
 بانها تريد ان تمدن الحبشة ، ان تحرر العالم من العصبية ، واخيراً
 ان ترسل على العالم انوار الابجاد الرومانية . ما معنى كل هذا ؟
 ان معناه هذا الحساب البسيط :

ارسل الميسيو « جنتيزون » ، مراسل جريدة « الطان » ،
 جريدة الراسمالية والمؤتلفة على معاضدة موسوليني كل منها
 لغرضها الخاص ، من روما الى صحيفته يقول : « في دقيقة
 معينة اصطدمت فرقة (أي فرقة ايطاليا) بجماعة تبلغ الالف

من الاحباش ، ولم تحتاج الى اكثر من بضعة مئات قنابل ،
من عيار كيلويين الواحدة لحصدهم وتكنيس الارض منهم في
الحال (١) . (عدد ٦ اكتوبر ، ١٩٣٥ ، من «الغان») .
جللت مجلة « موند » صفحتها الاولى بهذه العبارة التي قل
أن استعملت البربرية ابداع منها للتعبير عن نفسها ، ثم كملت
الحساب على الصورة التالية المضبوطة بحروف الماساة السوداء
وحروف الثورة الحمراء :

« بضعة مئات تعني على الاقل ٣٠٠ قنبلة كل منها من
وزن الكيلويين ، اذن ٦٠٠ كيلو للالف . بناء عليه يلزم
٨،٤٠٠،٠٠٠ كيلو من القنابل لاجل حصد وتكنيس أرض
الحبشة بأسرها ! » انتهى .

هذه هي المدنية والأعجاذ ، بركات الفاشستية والديكتاتورية ،
التي تستعد لاجتياح العالم كوباء اسود مميت لم تر الانسانية
مثلهما حتى في افطع اوباء القرون الوسطى . . . هذه هي الانوار
والمكانة تحت الشمس التي يطلبها موسوليني لشعبه الجائع ،
الدائع ، الشقي كضفدعة مداسة او كقبيلة من الذباب رشت
عليه سموم « فليت » .

(١) لفظة « Déblayer » التي استعملها المراسل تفيد معنى التكنيس

معنى الحصد معا

مهما يكن الحال ، فالمسألة متعلقة بالدرجة الثانية ، باستقلال الحبشة ، وبالدرجة الثالثة ، باملاك الامبراطوريات الاستعمارية وبقائها ، على حد سواء . وهي متعلقة بالدرجة الاولى ايضاً بقضية العالم التحريرية باجمعه ، بمستقبل الانسان ، بتحقيق الراحة البشرية الحاضرة والالية ، بايجاد النظام الاجتماعي المكمل ، المرفه ، المنمي ، المسعد كل فرد سليم في ذلك النظام .

لكن المعركة الان تدور على الدرجتين الثانية والثالثة . هي بين الحبشة والاستعمار باجمعه من جهة ، وبين الاستعمار والاستعمار من جهة . وهذا الاتجاه . مهما يكن ليشكل دليل تقدم ومناعة لا يمكن مقاومتها في الدرجة الاولى ، دليل انحطاط الراسماليات اكثر فاكثر الى الاكل من بعضها البعض ، انصرافها اكثر فاكثر الى التذابح وصرف الجهود في إراحة البشرية من اثمها العظيم .

بلغت الامور حداً لا تستطيع معه راسمالية بريطانيا ان تتسامح البتة مع راسمالية ايطاليا ، ولا ان تتراجع هذه خطوة واحدة امام الاولى ، لان حياة وموت كل منهما متعلق باقل تراجع يظهر منها . اذا تساحت بريطانيا ورثتها ايطاليا ،

ريثما ترثها الاشتراكية . اذا تساحت ايطاليا ورثتها بريطانيا،
ريثما ترثها الاشتراكية . من منهما يرضى ان يتنازل عن
أواخر ساعاته لزميله ؟ هذا هو السؤال !

ولو فرضنا أن كلاهما تسامحا ، واقتسما مع البقية بلاد
الحبشة المظلومة ، فان القضية بين الامبراطوريات تهبط الى
الدرجة الثالثة ، مندفعة بقوة انهيار النظام الاقتصادي وتدحرج
الرأسماليات الغارقة في ازماتها وتطاحنهما . وستبقى القضية في
نفس الوقت قضية بين بلدان الدرجة الاولى المستقلة وبين العالم
الاستعماري . امام انسداد الاولى عليها ستأكل نفسها حتي
النهاية . واذا هاجمت مباشرة كانت الساعة آخر ساعاتها وعلى
حال ، هجوم المجري المعاكس لا يقف عن التخطيم فيها ، وان
كانت هي تتحول عنه الى تحطيم نفسها .

الاستعمار يجتاز آخر دور من ادوار نزعه .

ساعة خلاص الانسانية قريبة .

على كل انسان شريف ان يساعد ولادة العالم الجديد .
على كل رجل وامرأة يحبان الحياة ويكرهان الموت ،
يحبان اولادهما آباءهما واخوتهما واصدقاءهما ويكرهان من
يذبحونهم جميعاً ويضربون تحويل دمائهم الى دراهم — على

الجميع أن ينضموا خلف الأحزاب التي كرسست نفسها لتوليد التاريخ .

على كل انسان طيب العنصر ان يدافع عن الحبشة المظلومة
ليأكل الاشرار بعضهم البعض !

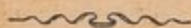
ارادة الرأسماليات تريد البقاء والقضاء على اعدائها .
الضرورة ، أي الظروف والحاجات التي خلقتها وتتحكم بها ،
تجعلها تقضي على بعضها البعض . وهذا ما يسميه الماركسيون
باحتمية التاريخ .

هذا ما يؤذن بفجر صفحة أخرى من الحياة ، نخرج بها
من كهوف ما قبل التاريخ التي ندب فيها كالديدان ، لنتهادى تحت
سحر أنوار العصر الجديد ودفته وجماله وشعره .

فلكين ، اذن ، النضال القائم اليوم هو الاخير !



فهرس الكتاب



صفحة

مقدمة واهدا	
دروس التاريخ	— ١
الهجوم على الذهب	— ٣٥
المستعمرون في بلاد غيرهم	— ٦٩
الكاتاليزر	— ١٠٨
قوى واساليب ومعاهدات وعبر	— ١٣٤
الدكتور جيكل والديكنا تور هايد	— ١٩٨
سلم الانتحار	— ٢٤١



DATE DUE



خياطة، سليم

الحبشة المظلومة او فائحة اخر نزاع ل

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01060671



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

